نمر سعدي

غبارُ الوردة

إيقاعات نثريَّة

قراءات في تحوُّلات الشعريَّة العربيَّة، في الرواية، والهمِّ الثقافي

كُتبت ما بينَ الأعوام 2005 و 2018

عن الأبنودي والفيتوري.. وقسوةِ نيسانَ الأغاني كزهورِ منزليَّة

في أوجِ الربيع الهشِّ يرحلُ عبد الرحمن الأبنودي صاحبُ الأغاني التي كانت تُربَّىٰ كنباتات البيوتِ والزهورِ المنزليَّة علىٰ نوافذِ القاهرةِ الجميلةِ.. وكانت متداولةً أكثر حتىٰ من رسائلِ العشَّاق في تلكَ الفترةِ الذهبية من تاريخ مصر الحديث.. رحلَ الشاعرُ المسكونُ بعشقِ وطنهِ كأنهُ علىٰ موعدٍ باذخٍ مع الورودِ البضاء العاشقةِ..

كانت مرحلة الأبنودي حالةً نادرةً في تاريخ الشعرِ الشعبي لا علىٰ مستوىٰ مصر فقط.. بل علىٰ صعيد العالم العربي كلِّهِ.. لم ينازعهُ أحدٌ في مملكةِ القصيدةِ الشعبية سوىٰ أحمد فؤاد نجم. بعد رحيل الكبارِ من أساتذة هذا النوعِ من الشعرِ أمثال بيرم التونسي وصلاح جاهين.

علاقةُ الشاعر الراحل الأبنودي بأمِّهِ هي علاقةُ كلِّ شاعرٍ عاشَ قابضاً علىٰ جمر البراءة والطفولة والعذاب والذكرىٰ.. علاقة تتسِّم بالشفافية الطافحة بالحبِّ والانخطاف ببرق الأمومة الغامض.. أتذكرُ الآن أمهات الشعراء الكبار وكيف أن أطيافهنَّ الخضراءَ أبتْ

أن تغادر قصائد الأبناء الملوعين.. ولا أنسىٰ هذه الصرخات المبثوثة في القصائد كأنها تمد يداً للأمِّ من ضفة بعيدة.. وأتذكر محمود درويش وحبهِ الأسطوري لأمهِ وأنا أقرأ قصيدة الباب تقرعه الرياح لبدر شاكر السياب التي خاطب فيها أمَّهُ بكثيرٍ من الدمع.. أو قصائد محمد القيسي التي خلد فيها أمه حمدة.. مروراً بأمل دنقل وصورة أمِّهِ الباكية علىٰ قبره.. الشاعر هو ذلك الطفلُ الذي لا يهرم روحيـًا والمحمَّل بكلِّ خطايا المدن ومرايا الرفض وشهوات الحياة ونزواتها وليست الأم سوىٰ الأجنحة الرحيمة البيضاء التي يأوي اليها طائرُ الشغف والألم كلما حاصرته قسوة القدر.. أو تاه في السراب.

****

آخرُ العشَّاقِ المتجوِّلين

يرحلُ عاشقُ أفريقيا محمد الفيتوري أخيراً في عرسِ أقحوانةِ نيسانَ كما يليقُ بشاعرٍ عظيم.. وتماماً كما عاشَ في سنواته الأخيرة بفقر فراشةٍ وبعنفوان بحرٍ وتمرُّد عاصفةٍ خضراء.. يرحل كأيِّ حالمٍ أو طيِّبٍ في زمن الأشرار.. بانكسارِ الفارسِ النبيلِ.. وبخيبةِ أملِ العاشقِ.. وبترفُّعٍ أسطوريٍّ عن فتاتِ موائدِ اللؤماء.. بعدما خطَّ للحياة ولحبيبته أفريقيا أجملَ القصائد بولهٍ وبوجدٍ حقيقيين.. يدي تبحثُ في الليلِ الربيعيِّ والذاكرة عن ديوانيه الصغيرين الأنيقين قوس الليل.. قوس النهار ويأتي العاشقون اليك.. أو عن قصيدة نادرة كتبها في ذكرىٰ مرورِ نصف قرن علىٰ رحيلِ الشاعرِ اللبناني الخالد الياس أبو شبكة ولكنها لا تجدُ في هذا الظلام الهشِّ المطلق إلا قصاصاتِ أحلامٍ..

يرحلُ بعيداً عن وطنهِ الذي أذابَ قلبهُ أعواماً طويلةً عشقاً وقصائدَ حبٍّ من أجلهِ ليُدفن هناكَ في منفاهُ المغربي لا إلا جوار العلَّامة السوداني الشهير عبد الله الطيِّب الذي أحبهُ الفيتوري كثيراً وأوصىٰ أن يُدفنَ إلىٰ جوارهِ.

كانَ الفيتوري نسيجَ وحدهِ وكانَ ذلك الشاعرَ المخلص لقصيتهِ إلىٰ أبعد حدٍّ. وهو متمرِّسٌ بكتابةِ قصيدةِ التفعيلة والقصيدةِ العموديَّة.. وأنا أجدُ نفسي مشدوداً في أحيانٍ كثيرة لقصيدته العمودية التي يحسنُ دوزنة موسيقاها وانتقاءَ مفرداتها مع كثيرٍ من المحبَّة والإعجابِ بقصائدهِ التفعيلية.. هناكَ طاقة غريبة في قصيدتهِ قادرةٌ علىٰ جذبِ النفوسِ بمهارةٍ قلَّ نظيرها.. والقبض علىٰ صورٍ شعريَّةٍ هاربةٍ من لوحاتٍ تجريديَّة وسرياليَّة.. لم يعش فقط كالدرويش المتجوِّل.. بل أيضـًا كالعاشقِ الشبيهِ بتروبادور لم يشفَ من حبِّ وطنهِ الذي حُرمُ منهُ في أوجِ تعلِّقهِ به..

للفيتوري قصيدة مقدَّسة قالها في الذكرىٰ الخمسينيَّة للشاعر الياس أبو شبكة وأنا أحتفظُ بقصاصتها وأضيعها قرابةَ عشرينَ سنة.. وهي من أجمل القصائد العموديَّة لا في شِعرِ الفيتوري فحسب.. بل في الشِعرِ الحديث كلِّهِ.. يقولُ فيها:

برقٌ هو الشِعرُ.. طفلٌ سابحٌ أبداً
بينَ المجرَّاتِ.. مجنونٌ ومكتئبُ
فكيفَ لي وأنا الطفلُ الذي انغرستْ
خطاهُ في الرملِ أن آتي بما يجبُ؟

صدقتَ أيها العاشقُ.. الشعرُ برقٌ وطفلٌ سابحٌ بينَ المجرَّات.. وكيفَ لي يا سيِّد شعراءِ أفريقيا أن آتي بما يجبُ من رثائكَ.. وداعـًا يا ناي افريقيا الجريح ويا قيثارة قلبها الموجوع. وداعا.

****

تحديقٌ بمرايا الذاكرة

قبلَ أيام كنتُ حاضراً في أمسيةٍ ثقافيةٍ في حيفا نظَّمها قسمُ العلوم الإنسانية في جامعتها احتفاء بترجمة روايةٍ جديدةٍ إلىٰ اللغةِ العبرية اسمها(الذاكرة حدَّثتني ومضت.. سيرةُ الشيخِ المشقَّقِ الوجه) وهذه الترجمة هي لرواية فلسطينية تدعىٰ (ذاكرة) .. وكان ضيف هذه الأمسية صاحب هذه الرواية الكاتب والروائي الكبير الصديق سلمان ناطور القابض البارع علىٰ كلِّ تلك اللحظات الهاربة من الذاكرة.. وكان موضوع النقاش يتمحور حول قضية النكبة وتداعياتها وما بقيَ منها بعد سبعةٍ وستين عاماً علىٰ حدوثها.

لأول مرَّة أستمعُ بكل شغفٍ ووجعٍ وبدمعةٍ كبيرةٍ علىٰ طرفِ عيني وبحرقة في القلبِ إلىٰ كاتبٍ فذٍّ يتحدث بطلاقة وحرية وذكاء وبلغة تصل إلىٰ القلب قبل الأذن.. غاص وتغلغل في أصغر تفاصيل النكبة وأسئلتها.. التفاصيل التي لا تهمُّ الباحثين والدارسين بقدر ما تهمنا ما تهمنا نحنُ كبشر.. الأسئلة التي تتردَّدُ بمرارة.. كيفَ خرجوا..؟ وهل يتركُ الإنسان بيته بكلِّ هذهِ البساطةِ ويركبُ الريحَ متكئاً علىٰ حلمٍ أو أملٍ منخور..؟ كيفَ تناثرَ علىٰ هذه الأرض أكثر من نصف مليون مشرَّد في غضونِ أيامٍ معدودة؟ خلال النقاش الموضوعي قام الكاتب باسترجاع حكاية الشاعر القومي أبو سلمىٰ

ولقائه بهِ في ألمانيا وكيفَ أنه هُجِّرَ من بيته (كما فعلَ سواهُ من سكانِ الجليل خاصةً) وسافرَ في سفينةٍ ولكن مفتاحِ بيتهِ بقيَ يدهِ ولم يسقط كما سقطَ دفترُ أشعارهِ في البحر لأنه كانَ مؤمنًا بعودتهِ خلالَ أيام.. أضافَ أنه كانَ يمرُّ يوميا بمحاذاةِ بيت الشاعر ولا يعرفُ أن هذا البيت الذي يئنُّ من الحزن والوحدة في الحيِّ القديمِ في مدينةِ حيفا كانَ ملكًا للشاعر الفلسطيني الذي ماتَ بعيداً عن حيفا وهو يحلمُ بالعودة إلىٰ مدينتهِ الفاضلة.

الروائيُّ الفذُّ هو الذي يجعلك تعيش الحدث بكاملِ ما فيهِ شجون وما فيكَ من رفضٍ له أو تماهٍ معهُ. فتتسلَّلُ إلىٰ الرواية لتعيش ولو لحظاتٍ فيها.. يقول سلمان: هناك كائنٌ حيٌّ من لحم ودم ترك بيته في لحظة ما.. أو طُرد منه بقوة السلاح ولكنه لا يزال يعيش في مكانٍ ما من هذا العالم.. يحنُ لوطنهِ ويتوَّجعُ بصمت وهو يحتفظ بمفاتيح بيتهِ ويحلم بالرجوعِ في كلِّ لحظة.. القضية إذن ما زالت مفتوحة علىٰ كلِّ ما في هذه الحياةِ الخلبيَّةِ القصيرةِ من ألم..

أسمعُ محللاً بعد يومين يقولُ إن الفلسطينيين هربوا لأن الجيوش العربية طلبت منهم ذلك.. وآخر يقول بل بفعل القتل واغتصاب النساء.. كنتُ أودُّ التقاء أحد مسنِّي قرية عيلوط يوما ما ليحدثني عن مجزرة منسية.. لأن لا أحد من الشيوخِ في قريتي يريدُ أن يتذكرَّ شيئا من تلك الحقبة المسربلة بالدم.. لا يهمُّ كثيراً الآن

كيف طُردَ شعبٌ من أرضهِ.. عندما يحدِّقُ الضحيَّةُ في عينَيْ من كانَ سببًا في خرابِ حياته ومملكته تتناسلُ أوجاعٌ وعذاباتٌ وأسئلةٌ كثيرة.. كانت هذه الأمسية فرصةً للتحديق.. وفسحةً للكتابةِ في ظلِّ الدمعِ.. أفكِّرُ الآنَ.. كيفَ استطاعَ جدي أن يحيا ثلاثَ عشرةَ سنة بطلقين ناريين في القلب بعد معركة يعبد الشهيرة عام 1935 تلكَ المعركة التي استشهد فيها الشيخ القسَّام.. متنقلاً بينَ سجنِ نابلس وسجنِ عكا ولكن قلبه انفجرَ من الحزن بعد النكبة بشهورٍ قليلة.

****

تلويحةٌ لحارس الحلم

(في رثاءِ الكاتب والروائي الفلسطينيِّ سلمان ناطور)

في أمسيات ثقافية كثيرة وفي جامعات حيفا وتل أبيب وغيرها كان الراحل سلمان ناطور يروي الوجع الفلسطيني بلغتين (عربية وعبرية) لا غبار عليهما وبهدوء وثقة أمام جمهورين عربي ويهودي.. كان يروي أدق التفاصيل وأصغر الجزئيات عن تلك الحقبة الحالكة في تاريخ فلسطين.. أتذكر أنني رأيت دموعا حبيسة في عيون بعض النساء الأربعينيات في القاعة وأتذكر قيام أحد الكهول بمقاطعته قائلا: عزيزي سلمان نعم كانت حالة حرب لننسىٰ الآن ما جرىٰ ونفتح صفحة جديدة.. أتذكر أنه رد عليه بما يشبه هذا الكلام.. نحن نروي حكايتنا.. نكتب وجعنا الذي لن يُنسىٰ بعد التقاط أجزائه من أفواه الشيوخ وذكرياتهم.. ربما بعد عشرين سنة لن نجد أحدا عايشَ تلك الفترة لنستقي منهُ الذكريات كما وجدت أنا ذلك الشيخ من بلدة عيلوط.. الحكاية لن تشكِّل حاجزاً أمام الحلمِ بالسلام.. في كل حرب هناك فظائع وجرائم إبادة وانتهاكات وحالات اغتصاب جماعي.

كان سلمان يعرف أن الجزيئات الصغيرة توجع جدا.. خاصة حين يرويها الضحية وهو يحدِّقُ بعيني من كان سبب عذابه.. كأن يقف ياباني (مثلا) أمام جمهور أميركي في جامعة أميركية ليقول لهم: اسمحوا لي يا سادة.. مع احترامي لكم ولحضارتكم سأروي لكم بعض التفاصيل الصغيرة جدا عن تلك الأيام التي أعقبت رمي القنبلة الذرية علىٰ هيروشيما.

أنحني لرحيل هذا الإنسان الفذ.. الروائي والكاتب الفلسطيني سلمان ناطور. سيُذكر بأنهُ أحد رموز الأدب الفلسطيني وأحد حرَّاس الذاكرة الفلسطينية الكبار. مثقَّف لبق. متواضع. ذكي وحسَّاس يعرف ماذا يريد من اللغة وكيفَ يجيبُ علىٰ الأسئلة الصعبة بالعبارات السهلة الممتنعة. كانَ لي شرفُ لقائهِ منتصف الربيع الفائت في ندوة ثقافية عقدت في حيفا.. ربما لم يتسع اللقاء لجلسةٍ مطلِّةٍ علىٰ المدينةِ باخضرارها وبحرها أو لاحتساءِ فنجانينِ من القهوة ولكنه اتسَّع لكثيرٍ من المحبة والاعجاب والصداقة الحقيقية.. أهديته آخرَ دواويني الصادرة وحيَّيتهُ علىٰ صراحته وشجاعته النادرتين في الكتابة والحياة.. قلتُ لهُ: لولاكَ لما كانَ هناكَ من يدوِّنُ لنا النكبة بلغةٍ ساحرة وبسردٍ أخَّاذ.. وداعا أبا إياس وداعـًا يا حارسَ الحلم.

****

هواجس على طريقِ القصيدة

طلبَ مني أحدُ الأصدقاء الشعراء ذات حديث عن الشعرِ والحداثة أن أقرأ كتاب الناقدِ الأمريكي أرشيبالد ماكليش وأن أطلع علىٰ خصوصية نظريته حول الشعر والحداثة.. بعدما قلتُ له أنني قرأت كتبا كثيرة في هذا المجال ومنها كتاب اللغة العليا لجون كوين ولكن تطبيق النظريات علىٰ النصِّ أثناء الكتابة عملٌ صعبٌ وغالبا ما يحرفك عن معنىٰ الإبداعِ وطريقهِ الصحيحة. كانَ صديقي يطلبُ مني بعبارات أخرىٰ أن أفهم جوهر النظرية الحديثة في الكتابة الشعرية لا أن أقرأ ماكليش من دون أن أعي تلك التغيرات الكبيرة التي تغلغلت في القصيدة الحديثة.

كلام ذلك الصديق جعلني أعتقد أن التمسك مثلا بالبلاغة والجزالة شيءٌ في طريقه للانحسار.. لديَّ أصدقاء وشعراء ونقَّادٌ كثر.. هناك دائما حوارات ونقاشات بيننا تنتهي إلىٰ أن الشعر السائد اليوم هو ما يحمل روح الشعر العصري.. الشعر المشغوف بالنثر وتجلَّياتهِ وغوصه المدهش علىٰ أعماقِ النفسِ البشريَّة ورصد انكاساراتها وخيباتها وأوجاعها وتمزُّقاتها الروحية في عالمٍ أقلُّ ما يقُالُ فيهِ أنه ماديٌّ ولا شعري. انتهىٰ ذلك الزمن الذهبي الذي كانت فيه اللغة الشعرية تقتاتُ علىٰ فتاتِ الغنائية.. علينا أن نعي أن السيَّاب

ودرويش وسعدي يوسف والبياتي ونزار قباني وغيرهم كتبوا تجاربهم وتركوا أصواتهم العظيمة التي تشظَّت فينا ولكن علينا نحن أيضا كجيل شاب أن نبحث عن فضاءات أخرىٰ.. هموم شعريَّة جديدة.. تجارب شعريَّة شابَّة من أنحاء العالم.. هناك أصوات تدعو للانبهار في تجارب الشعر الأمريكي المعاصر.. أو الشعر البريطاني أو حتىٰ الياباني.

خميرةُ الشِعرِ تغيَّرت.. أسلوب الكتابة.. طرُق التعبير.. شعراءُ الفيسبوك قلبوا الموازين لا لأنهم أحدثوا ثورة قربَّت القصيدة من ذائقة العامة بل لأنهم تغلبَّوا علىٰ شعراء قصيدتي العمود والتفعيلة وانتصروا عليهم ذلك الانتصار الساحق المدوِّي بعبارة (عصركم انتهىٰ).. سيقولُ قائلٌ هذا ليس معياراً أو مقياساً لجودةِ النصِّ أو رداءته وأن العلاقات السطحية الكاذبة المبنية علىٰ النفاق والرياء والمجاملات في أساسها هي التي تحكم هذا التفاعل الفيسبوكي الافتراضي.. هذا صحيح ولكن مفهوم الشعر تغيَّر وهناك أزمة تلقٍّ حقيقيَّة مع الجمهور.

صادفني أحدُ الأكاديميين الكبار في حيفا ذات صباحٍ ربيعيٍّ وشكرني علىٰ عدَّةِ دواوين بعثتها اليهِ مستطرداً أخشىٰ يا صديقي علىٰ هذا الحلمِ أو الوهمِ الجميل الشِعرِ.. أصبح عدد الشعراء في الأمسياتِ الشعريَّةِ أكثر من عددِ الحضورِ.. أظنُّ أن الشعرَ في العالمِ

في طريقهِ الىٰ انحسارٍ غريبٍ ما لم يتجدَّد أو ينقلب علىٰ نفسهِ وعلىٰ أساليبهِ.. كيفَ تستطيع التعبير عن قلقٍ حديث وأنت تعيشُ في مدينةٍ حديثة بقصيدة كلاسيكية.. بعباراتها وبأخيلتها وبتأويلاتها؟ ما نحتاجهُ هو التعبير بطاقة اللغة وليس بشعريَّة الكلامِ العادي أو الأوَّل علىٰ حد تعبير أدونيس.. ليسَ لأنَّ الفكرة النمطية عن القصيدة العموديَّة تربطها دائما بطبيعةِ الخيامِ والإبل.. بل لأشياء أخرىٰ في صميم الحياة منها مثلاً وصفُ فتاةٍ عشرينيَّةٍ موشومةٍ بوشمٍ طائرٍ غريبٍ تركبُ درَّاجةً ناريَّة وتعبرُ حذوكَ في أحدِ شوارعِ المدنِ المكتظَّةِ.. كيفَ تصفها؟! بقصيدةٍ عموديَّةٍ جزلةِ الألفاظِ فخمةِ التراكيبِ أم بما يشبهُ أشعار تشارلز بوكوفسكي المحمومة؟

قلتُ ذاتَ مرَّة ما معناهُ أن القصيدة المستقبليَّة ستكون عصية أو لا تكون.. هذا النثر المرتبك أو المنظوم المبثوث علىٰ صفحات مواقع التواصل لا يعبِّر عمَّا وصل إليه جوهر الشعرُ العربي.. الفضاء الشعري المفتوح مستقبلاً هو لقصيدة تمزجُ كل أشكال الشعر ببوتقة واحدة.. أو أنه لا يهمُّها هذا الصراع الأبدي علىٰ الشكل ما دامت تقيم ذلك التوازن الخفي بين الشعريِّ واللاشعريِّ.. بينَ المرئيِّ والمخفيِّ من اللغةِ والأشياء.. تأخذ من قصيدة النثر عفويتها وعمقها وتركيزها ومن التفعيلة موسيقىٰ مارشها العسكري وإيقاعها الراقص ولغتها المنتقاة بعناية. كنتُ أتأرجحُ بينَ الصوابِ والخطأ ولا أعرفُ

إن كانَ هذا الرأي ما زالَ ينطبقُ علىٰ قناعاتي حولَ الشعريَّة الآن.. عندما أقرأ اليوم بعض ما يُنشر علىٰ مواقع الشعر والتواصل الاجتماعي يصدمني مقدارُ النظم النمطيِّ الخفيِّ في النصوص.. حتىٰ في النثر الذي يسمونه اعتباطا شعراً هناك لدائن نظم منفِّرة تضرب الذائقة.. لم أكره شيئـًا في الكتابةِ كما كرهتُ النظم.. كلمة نظم الشعر بحد ذاتها كلمة منفِّرة وغير مرغوب بها عندي.. وكثيرا ما كان أحد الأصدقاء يغيظني وهو يقول لي بما يشبه المزاح اللدود..(بعدَك تنظم شِعر؟). برأيي حاولَ الشاعرُ الفذُّ محمود درويش مقاربة سماوات الشعر الصافي الذي يطمحُ اليه كل شاعر عربي حقيقي ولكن بنظري المتواضع أن أغلب معجبي هذا الشاعر يقصِّرون تقصيرا كبيرا عن فهم عبقريَّته الشعريَّة أو لا يفهمون معنىٰ شِعرِهِ العميق.. ليس لخلل ما في أذنهم الموسيقية التي تعجز عن تفكيك قاموسه الموسيقي العجيب ولكن لأسباب أخرىٰ.. منها الكثافة التعبيرية والمجازية وتفجير طاقة اللغة.

أحيانا أظن أن أفضل قصيدة كتبتها هي (كأني سواي) وما كتبته بعدَها من شعر كانَ تنويعـًا عليها.. مع أني كتبت دواوين كثيرة بعد هذه القصيدة المحبَّبة والقريبة من النفس.. ربما اندماجها بروح الروايات اللاتينية الكثيرة التي قرأتها في فترة كتابتي لقصيدتي في غضون حوالي ثلاثة أشهر من صيف عام 2008 هو ما يعزِّز

كلامي.. ولكني في الحقيقة أجهل سببَ شغفي بها. أحيانا أقولُ العلاقات الانسانية هي ملحُ الشعرِ وخميرتهُ النائمة في رماد النار.. من يدري.. من الممكن أن في قصيدتي تلك بعض طيوف العلاقات الإنسانية.. أو رغبة قويَّة بهجر العزلة الروحيَّة التي يحتاجها كلُّ كاتبٍ للإبداع والتأمُّل.

****

كانَ صديقاً للفراشاتِ

(عن أميرِ القصيدةِ التونسيةِ أولاد أحمد)

لم يكن شاعرُ تونس الكبير الصغيَّر أولاد أحمد ذلك الشاعر العادي بل كانَ الصوتَ الإنسانيَّ الساكن في قلوبِ مريديهِ سكونَ الموجةِ في مَحارةِ الأبد.. لم يكن قانعًا بما توفِّرهُ لهُ حياةٌ نقصت ورواداً كثيرةً بل بما يمنحهُ له حبُّ الناسِ من أسبابٍ جميلةٍ لمواصلة السيرِ في دربِ القصيدةِ المرصوفِ بالجمرِ والعذابات المضيئة.. منذ معرفتي الافتراضية بهِ والتي قاربت أربع سنوات ونيِّف كانَ دائبَ الحركةِ والبحث عن التغييرِ.. كان يؤمنُ بتفردهِ شاعراً وإنسانًا يحلمُ بالثورةِ التي تحقِّقُ العدالة في ظلِّ حياةٍ ظالمة وفي الشِعرِ الحديثِ المتوثِّبِ إلىٰ الحريَّةِ.

هل كانَ الشاعر أولاد أحمد رمبويًا (نسبة للشاعرِ الفرنسي أرتور رمبو) بالمعنىٰ الحقيقي للكلمة.. أعتقد نعم.. فالذي يتتبَّع مسيرة نضالهِ ووقوفهِ المبكِّر مع بسطاءِ شعبهِ وفلَّاحيهِ في وجهِ السلطاتِ القامعةِ بالحديدِ والنارِ لكلِّ تحرُّكٍ شعبيٍّ يدركُ كم كانَ قريبًا من النبضِ الجماهيري الذي آمن بأنَّ الشِعرَ ليسَ سوىٰ صدىً

لهذهِ الرغباتِ التي تتحرَّكُ في صدور الفقراء والكادحين من أبناءِ شعبهِ. ولا ننسىٰ أنه تنبأ بالثورةِ التونسيَّةِ قبل اندلاعها بسنوات عديدة.

ولكن الأمرَ الذي أصابني بالخيبةِ والمرارةِ بعدَ رحيلِ هذا الشاعر الاستثنائي شعراً وحياةً ونضالاً هو مقدارُ هذهِ السذاجةِ الفجَّةِ التي يتصفُ بها أحيانا بعضُ كتَّابنا فتجعلهم أضحوكةً أمامَ غيرهم خاصَّةً عندَ رحيلِ شاعرٍ أو كاتبٍ كانَ ملءَ الأسماعِ والأبصارِ والأفئدةِ.. وإلا فما معنىٰ أن ينقضَّ روائيٌّ تونسيٌّ علىٰ رهبةِ رحيلِ شاعرٍ بحجمِ محمد الصغيَّر أولاد أحمد متهمـًا إياه بسرقةِ إحدىٰ قصائد شاعرٍ تونسي آخر وإعادةِ صياغتها في إحدىٰ أجملِ قصائدهِ.. أقصدُ قصيدة أولاد أحمد الشهيرة (نحبُّ البلادَ كما لا يحبُّ البلادَ أحد)؟ في رأيي المتواضع أن القصيدةَ التي يدِّعي ذلك الكاتب الروائيُّ أن أولاد أحمد قامَ بانتحالها ركيكة ومفكَّكة ومضطربة الإيقاع.. حتىٰ أنها تفتقرُ اليه.. وإلىٰ ماءِ الشِعرِ وبريقهِ أيضـًا.. وتنقصها مقوِّماتُ كثيرة.. صياغيَّة وأسلوبية لتصلَ إلىٰ مستوىٰ الشِعرِ الجيِّد.. ما جعلني أشكُّ بأنَّها لذلك الشاعر التونسي الراحل عام 2000 لأنَّ نفسَهُ الشعريَّ في قصائده الأخرىٰ يبدو متماسكـًا أكثرَ مع إضفاء فنيَّة عالية المستوىٰ علىٰ نصوصهِ الشعريَّة الناضجة التي ضمَّها ديوانهُ الوحيد.

ولكن لمَ هذه الضجةُ الآن.. ولمَ الاصطيادُ في الماءِ العكر.. ما دامَ أولاد أحمد كتبَ قصيدته عام 1987 أي قبل ما يقربُ من ثلاثينَ عاماً؟ هل لأننا شعبٌ لم يتحرَّر بعدُ من نزعةِ النبش ولعنةِ التضليل؟ أولاد أحمد وفق قراءتي لمنجزه الشعري شاعرٌ كبيرٌ ولا يحتاجُ لأفكارٍ من أحد كي يكتبَ قصائدهُ ولكن لا حقَّ لأحد أيضاً أن يمنع أيَّ شاعرٍ من التأثرِ بفكرةٍ ما وصياغتها بطريقةٍ مغايرةٍ.. معبِّرةٍ وقريبةٍ أكثر.. أولاد أحمد لم يفعل شيئاً يستحقُ من أجلهِ هذه التهمةَ الباطلةَ.. هو فقط التقطَ وردةً مهملةً مرميَّةً على الأرضِ وجعلَ منها حمامةً حمراء.. أو تناولَ قطعةَ صفيحٍ ليبدعَ منها فراشةً أو وردةً.. ما جرى في نظري هو إعادةُ خلق غنيَّة لذاك النص المهلهل الفقير.. أو كتابةٌ مبهرةٌ على كتابةٍ رديئةٍ.. أو خلقُ أيقونةِ شِعرٍ أزليَّة من مجرَّد حجرٍ مطروحٍ على قارعةِ اللغةِ والنسيان.

يبقى أولاد أحمد شاعرَ الوجعِ التونسيِّ وحادي القافلة.. يبقى شاعرَ النبضِ الشعبيِّ ومحرِّكَ ماءَ البحيراتِ الراكدة. والفارسَ الذي أهدى تونسَ خضرةَ قلبهِ وقصائدهِ.

ماتَ أولاد أحمد في عنفوانِ القصيدةِ وهو يقاتلُ الغبارَ والمرض.. اللعنة على هكذا مرض.. كيفَ تجرأَ على الاقترابِ من قامةِ هذا الفارسِ المهيبِ ولم يحترق بهالةِ الكبرياءِ والغضب؟

قبلَ رحيلهِ بيوم واحدٍ فقط هنأته بعيد ميلاده الحادي والستين.. لم يرَ التهنئة.. أو رآها متأخراً قبلَ الرحيلِ بساعات قليلة.

رحلَ أولاد أحمد في أوجِ الربيعِ.. كما وُلدَ في أوجهِ وتقافزَ مع فراشاتهِ كما يقول:

بكَّرتُ للدّنيا صبيحةَ يومِ سَبْتْ.
كان الفرنجةُ يرحلونَ
ملوِّحينَ بشارةٍ منْقُوصةٍ من نصْرِها...
وأنا أنُطُّ مع الفراشةِ في حقولِ الأقحوان
بعْدي، بعامٍ،
إستقلّتْ تونسُ.. الخضراءُ: من جهةِ الشمالْ
هي أمُّ من؟
وأنا أخُوها في الرضاعةِ والمنامةِ والحداثةِ
والتّلكّؤِ.. والسّؤال؟

في حواراتنا الأخيرة كان يطمئنني ويقول لي أنا بخير.. لا بأس..في البيت أرتاحُ وأعالجُ علاجا خفيفـًا.. مع أنني كنت أراه يذوي شيئـًا فشيئـًا ولكن بغيرِ انحناء.

الشاعر الذي أحبَّ فلسطين ودعاني لتونس ولم أذهب لعدم جاهزيتي فقالَ لي عندما تكون جاهزاً كلِّمني.. سأمدُّكَ بقصائد لي

لنشرها في فلسطين الحبيبة.. وسأنشر قصائدك في تونس.. (يا شاعري الحبيب هل أستحقُّ أنا كلَّ هذا الحبِّ منكَ؟)

الشاعر الذي تتسعُّ كلُّ القصائدِ لاسمهِ الآن.. تبكي عليهِ فلسطينُ كلها ويبكي الشِعرُ وقلبي.

ولكنني لن أقولَ وداعـًا ولكن أقولُ إلىٰ الملتقىٰ.

****

فتنةُ العزلة

أصرَّ بعضُ أصدقائي الشعراء علىٰ مشاركتي في الأمسية الشعرية التي عُقدتْ مساءَ الأحد الفائت في مدينة طمرة الواقعة في شمال شرق مدينةِ حيفا في الجليل، ولأنهُ آلمني أن أخذلهم هذهِ المرَّة فقد لبَّيت طلبهم بكل محبة، لأنَّ الذين خذلتهم وأنا أتتبَّعُ غناءَ السيريناتِ الغامض كثرٌ ولأنني فعلا نادمٌ علىٰ عدمِ تلبيةِ دعواتٍ كثيرة ونداءات مكرَّرة من مؤسسات ثقافية ومراكز إعلامية وتجمُّعات ثقافية وغيرها، وأصبحَ التهرُّبُ من المشاركةِ ديدنـًا وعادةً، ولكنني أقرُّ بأنَّ هذا هو طبعي ولم أستطع أن أغيِّرهُ، ميلٌ للعزلةِ وغوصٌ علىٰ جوانيَّات النفس، فالرهبة التي تنتابني في أغلب المرات وأنا علىٰ المنصَّة، والمصحوبةُ بارتباكٍ غيرِ مفسَّرٍ تجعلُ كلَّ صعودٍ إلىٰ المنصَّة كأنهُ صعودي الأوَّلُ أو وقوفي المتوتِّرُ أمامِ حشدِ التلاميذِ في أيامِ الدراسة الابتدائيَّة لا أعرفُ كيفَ أبدأ أو كيفَ أختمُ، سأقولُ هذه هيَ عادتي المحبَّبةُ.. فالكائنُ الشعريُّ الذي يسكنني لا يحبُّ تلميعاتِ الإعلامِ الباهتةَ، تجربتي الشعريَّة نمت في ظلِّ ملكوتِ العزلة.. طبعـًا كانت لي مشاركات غير قليلة هنا وهناك في عكا وشفاعمرو وحيفا، ولكن كصوت شعريٍّ استطعتُ أن أحافظ علىٰ

بريقي الخام حتىٰ وأنا أتخطَّىٰ الثلاثين وأراهنُ علىٰ تجلِّياتي المفتوحةِ علىٰ فتنةِ العزلة.

كثيراً ما كانَ زملائي الشعراء والكتَّاب يطلقون عليَّ لقب (حسب الشيخ جعفر الفلسطيني).. أستاذ فن التدوير في الشِعر العربي الحديث وصاحبُ (نخلة الله) و (الطائر الخشبي) و(زيارات السيِّدة السومرية)، وأحد أهم الشعراء العرب في السبعينيات، مبدعٌ استثنائيٌّ اكتوتْ روحهُ بنارِ العزلة واختارَ البقاءَ (رغمَ أهميَّتِهِ) في الظلِّ، هذا الشاعر أخذ القصيدة العربية إلىٰ مدارات قصيَّة علىٰ مستوىٰ التدوير والتجديد في المجاز واللغة والنفس الشعري وفتح آفاق لا نهائية لها، خصوصاً في مرحلتها المأزومة بعد موت بدر شاكر السيَّاب، ما حدا بالكثير من الشعراء العرب الكبار للتأثرِّ بهِ حتىٰ من غير أن يعترفوا بذلك. وأذكرُ أنَّ أحد أصدقائي قالَ لي مرَّةً مناكفاً إذا كتبتَ ديواناً فسمِّهِ (نخلةٌ في صحراء) تناصاً مع ديوان حسب الشيخ جعفرK لأنك تشبهُ تلكَ النخلةَ مجازاً.

هناكَ تبريرٌ نفسيٌّ خفيٌّ لقلَّة مشاركاتي ينبعُ من موقف قديم لي حيال حركة الشِعرِ المحلِّي في فلسطين الداخل، موقفٌ يدعوني إلىٰ أن أكونَ غيرَ منتمٍ إلا لنفسي وبعيداً عن أجواءِ الشلليِّة والمداهنة والنفاق، فلو وضعنا تسعين بالمئة ممَّا يُكتب ويُنتج في هذه البقعة الجغرافية الضيِّقة (ويُسمَّىٰ ظلماً وبهتاناً شِعراً) علىٰ المحك

الحقيقي للشِعر فسوفَ نجدُ بأنهُ ليسَ شعراً بتاتـًا، هو مجرَّد محاولات لصياغةِ أناشيدَ عاديَّة ليسَ أكثر، فما يجري علىٰ ساحةِ شِعرنا الفلسطيني المحلي صوّرهُ مرةً صديقي الكاتب المتميِّز سهيل كيوان ب(مجزرة شعريَّة حقيقيَّة) وقد أصابَ جوهرَ الحقيقة، كما أنني لا أريدُ أن أذهبَ إلىٰ أمسيَّةٍ وألقي شِعراً لا يفهمهُ أحدٌ بسببِ استعاراتهِ البعيدةِ وإشاراتهِ العميقةِ لأنَّ الجمهور تعوَّدَ علىٰ نوعٍ معيَّن من الشِعرِ ينحو إلىٰ البساطة، مع أنَّ للأمسيات أهميةً كبيرةً برأيي الشخصي تتمثَّلُ في اقترابي من قرائي الحقيقيين وملامسةِ أذواقهم.

الكتابةُ في الظلِّ هي طريقةٌ مدهشةٌ للإنصات إلىٰ رفرفاتِ عصفورةِ القلب، وهي صرخةٌ مكتومةٌ ضيقةٌ كجرح امرأة ومزمومةٌ جيدا كفمِ قمرٍ صغير متوهجٍ كجمرةٍ في ريح الصيف.. هيَ حجرٌ ضوئيٌّ يمحو غبارَ الضجيجِ تماما وماءٌ فوضويٌّ يجرف ركام القصائد المبعثرة في طريقِ قلبي.. هي دفيئةُ كائن غير مدجَّن.. مرتبك ولا يعرف ما يريدُ بالضبط من القصائدِ والأشياء.. دفيئةٌ مقدَّسةٌ لقصائد مسربلة بتشظيات الروح ومنجمٌ سريٌّ للتحوُّلات، والشِعرُ الصافي أشبهُ بتوهُّجات نورانيَّة تعملُ علىٰ سلبِ شيء من الروحِ بعدَ كلِّ ديوان كما تسلبُ اللسعةُ حياةَ النحلة.

أحاولُ دائما أن أتعلَّم من أخطائي، ففي احدىٰ الأمسيَّات الشعرية التي أقيمت في مدينة الناصرة قبلَ سنوات لاحظتُ أن الشلليَّة هي التي تحكمُ المشهد الثقافي وإذا كنتُ لا تنتمي إلىٰ هذه الجهةِ أو تلك فسيكونُ مصيركَ التجاهل والإنكار والإقصاءِ عن دائرةِ الضوءِ المباركة.

الشعر هو مكابدةٌ وجوديةٌ وعذابات لا تنتهي إلا بانتهاءِ الحياة.. تشوُّش، ارتباك، توتُّر دائم بلا سبب، شغفٌ حقيقيٌّ إلىٰ زرقةٍ لا تُنال، قلقٌ أبيضُ الموج، لعنات متتالية، انهياراتٌ جماليةٌ تولدُ معك فتجعلكَ لا تركِّز في شيء.. تؤثرُ عليك في كلِّ مناحي الحياةِ.. في طعامكَ وشرابكِ ونومكَ وذهابكَ صباحًا إلىٰ العملِ وتصعلككَ اللذيذِ في المدن الغريبةِ وحتىٰ في كلامكِ مع امرأة عابرة أو قيادتكَ لسيارتكَ، قانونٌ يحكمُ حياتكَ ويجعلكَ أكثرَ عرضةً للرياحِ الغامضةِ التي تلفحُ قلبكَ، وأكثرَ حساسيَّةً للسعاتِ الجمالِ والأضواءِ المخبوءةِ في شموسِ الجسد.

القصائد أشبهُ بامرأةٍ تنتظرُ حبيبَها والشاعرُ هو عوليس آخر، قدرهُ أن يفقد كلَّ شيءٍ ليحظىٰ بهذا التاجِ غير المرئيِّ الذي ضفرتهُ لهُ أصابعُ تلكَ المرأة العصيَّةِ.

لا يستطيع مربٍّ أو سائقُ حافلة أو بائعُ خضراوات أو رجلُ سياسةٍ (مثلا) أن يقرِّر بعدَ بلوغهِ السبعين وتحتَ وطأةِ الضجرِ

واليأسِ والفراغِ بعدَ إحالتهِ إلىٰ التقاعد أن يصبحَ بينَ عشيَّةٍ وضحاها شاعراً، من غير أن يقرأ المتنبي وأبا تمام وجرير والمعريِّ وأحمد شوقي والسيَّاب ودرويش وأمل دنقل والبياتي وغيرهم من حالمي البشريَّة الكبار وصانعي موروث الشعرِ العربي القديمِ والحديث ومن غير أن يسرقَ الدفقة الشعريَّة والشعوريَّة في الشِعر الأجنبي، أنا شخصيًّا لا أستطيع أن أتصوَّر شاعراً أيـًا كانَ لم يقرأ شكسبير أو لوركا أو بابلو نيرودا أو ريلكة.. لا أستطيع أن أؤمنَ بهِ.. علىٰ أيةِ قراءاتٍ يستندُ هذا؟ وما هيَ حدائقُ قصيدتهِ الخلفيَّة؟ كما لن تجعلَ كلُّ مدائحِ نقَّادِ الدنيا من (الشعراءِ) الرديئينَ شعراءً عظامـًا.

حتىٰ ولو لم أنل نصيبي من الاهتمام النقدي والإعلامي أو لم أرسِّخ وجودي في الذاكرة الجمعيَّة للشعر الفلسطيني الحديث ولو كنقطةِ ضوءٍ واحدة. فلستُ سوىٰ متمِّمٍ مسيرةِ من جاءَ قبلي وأعوِّلُ علىٰ الجيل الذي سيأتي بعدي لعلَّهُ يكتبُ تلكَ القصيدةَ التي لها ما بعدها في حركةِ الشِعر العربي.

****

أجنحةُ الشاعر ومَقصُّ الرقابة

من أجملِ التوصيفاتِ التي تتسمُّ بها عمليَّةُ الإبداع أنها ممارسة حرَّة.. إلىٰ أقصىٰ حدود الحرية المطلقة لفن من الفنون.. وهي شرط أساسي في عملية الخلقِ والابداع.. فمن دونها لا نستطيع أن نطلق علىٰ النص أو العمل الفني صفة مبتكر.. فثمَّة قيودٌ ثقيلة تعيق طيرانه في فضاءات الجدَّة والأصالة والانعتاق. وتحدُّ من جموحهِ واتِّساع الفضاء.

واذا نظرنا إلىٰ علاقة المثقف المبدع بالسلطة أو المؤسسة الحاكمة فإننا نجد شيئـًا من الالتباس الغامض أو شبه حلقة ناقصة في فهم سيكولوجية هذا الإنسان المختلف.. علاقة ملتبسة غامضة كثيراً ما تؤججُّ الصراع والمواجهة بين الطرفين.. بين فكر سائد وفكر متغيِّر.

قالَ لي مرَّةً شاعرٌ صديقٌ أن الكتابة في المواقع الأدبية الالكترونية تتسمُ بطابع عبثيٍّ ما وتختلفُ شيئـًا ما عن الكتابة الأكثر أهميةً والتوثيقية التي نحتفي بها وننشرها فيما بعد في كتبٍ كما هي من دون أن نبدِّل عبارةً هنا أو جملةً هناكَ إلا تلك السطور التي من الممكن أن تلتبسُ في مفهوم السلطة فيساقُ كاتبها بسببها إلىٰ دهاليزِ

السياسةِ والسجون المظلمة.. وتابعَ بأنه يكتبُ بحريةٍ وبحماس أكثر علىٰ صفحتهِ في موقع التواصل الاجتماعي الفيسبوك ولكنه عندما أرادَ أن يصدر ديوانهُ الجديد أسقط منهُ كل ما يتعلَّق بمواقفهِ السياسية خوفـًا من تأويل خاطئ لها من قبل السلطة التي غالبـًا ما تحضرُ في النصِّ حسب قول الشاعر الفلسطيني الكبير محمود درويش.

كلنا يعرف المصير التراجيدي للكاتب العباسي عبد الله بن المقفع الذي ترجم كتاب كليلة ودمنة.. ذلك الكتاب الذي ألفَّه الفيلسوف الهندي بيدبا علىٰ ألسنة الحيوانات ولكنه في مضمونهِ حوىٰ نقداً لاذعـًا للسلطة السياسية.. وقرأنا عن كتَّابٍ وشعراءٍ عالميين عانوا من الرقابة علىٰ كتاباتهم أمثال الشاعر التركي الكبير ناظم حكمت والشعراء العراقيين عبد الوهاب البياتي وبدر شاكر السياب وسعدي يوسف والشاعرين الفلسطينيين محمود درويش وسميح القاسم والشاعر الاسباني لوركا والشاعر المصري محمد عفيفي مطر الذي عانىٰ من الرقابة وظلم المؤسسة الحاكمة معا.. والكثير غيرهم.. فمن الصعب الاحاطة بمن عانوا من نير وسطوة الرقابة علىٰ ما يكتبون.. فالنظامُ يدرك بما للكلمة الصادرة عن كاتب أو شاعر لهُ مركزهُ وقوَّتهُ من خطورة وسرعة انتشار لذلك نجدهُ يحاصر قرائحَ الشعراء ويقيِّدُ أفكارهم التي تتوثَّبُ للحريَّة لأنهم محرِّكُ الشعوب وضميرها اليقظ.. أتذكرُ شاعراً كان كلمَّا كتبَ شيئـًا

جديداً أو قامَ بنشاط ثقافي معيَّن يداهمُ بيته نظامُ دولتهِ بحثًا عن ما سيقضُّ مضجعهُ في أشعارهِ.. وكانَ يدعوهُ في غرفةِ التحقيقِ إلىٰ الكتابة عن المشاكل الوجودية والكونية أو يكتب عن المرأة والحُب.. عن كلِّ شيءٍ في الحياةِ سوىٰ عن مشاكلِ بلدهِ السياسية والتمييز الذي يعاني شعبهُ منه.

الشعراء النبوئيون أو الاستفزازيون هم من يشكِّلون حالة قلقٍ مريرٍ لأيِّ نظامٍ سالبٍ لحريَّة شعبهِ أو يشكو من وخزة الألم والندم تجاه تقصيرهِ في قضايا كثيرة.. ولكن هذه الزمرة من الشعراء لم نرها تحيا بسعادة وتتناسل إلا في ظلال ديموقراطيات دول الغرب بينما انقرضت ولم يعلم بوجودها أحد في دول ذات أنظمة قمع واستبداد وظلم.. والشعراء والروائيون والفنانون الذين قتلتهم كتاباتهم في القرن العشرين وحده لا يكادون يحصون ومنهم من أبادته الشيوعية ومنهم من قضت عليهِ الفاشية. ونستطيع أن نرىٰ أسراب الطيور المهاجرة من الشعراء من أوطانهم إلىٰ المنافي في دول أمريكا وأوروبا.. كل ذلك بفعل مقص الرقيب الذي يتربَّصُ بأوراقهم وأجنحتهم معا.

في نظري لن تتطور أي كتابة وتصل إلىٰ ذرىٰ انسانية سامقة ما لم تحظىٰ بفسح الحرية والجمال والبحث عن جوهر الحياة المطلق.

قلبُهُ طائرٌ للحنين

في رثاء الشاعر الأردني / الفلسطيني جهاد هديب

في الشهور الأخيرةِ وخلال زياراتي المتكرِّرة لاحدىٰ مكتبات حيفا علقت عيناي بديوان ورديِّ اللون صغير الحجم.. اسمه (قبلَ أن يبردَ الياسمين) للشاعر الأردني الفلسطيني الراحل جهاد هديب.. طبعـًا كأنَّ في الأمر مصادفة غريبة في مكتبة تحوي مئات الآلاف من الكتب والدوريات في مختلف العلوم الإنسانية والآداب.. أتناول الديوان الصغير لأقرأ عدَّة قصائد هامسة ورقيقة كأنَّها حيكت بجناحِ فراشةٍ ثمَّ أمضي بعد ذلك إلىٰ قراءات مختلفة بعد أن يفتح لي هذا الديوان الصغير بحجم ورقةِ زنبق مصراعَيْ مكتبة عملاقة.. منذ عدَّة شهور وأنا أنزل الدرج المؤدي إلىٰ قسم الآداب في المكتبة الكبرىٰ يتحرَّشُ بي ديوان شاعرٍ لم أقرأ له كثيراً ولكن لا أخفي إعجابي بمقالات ونصوص أدبية له كانت مبعثرة في عدد من الجرائد المحلية والعربية.

أعجبني نثر جهاد جداً بيد أني لم أعثر علىٰ ما يروي شغفي منه فلم أجد له سوىٰ مقالات قليلة ومحدودة جداً علىٰ الشبكة

العنكبوتية.. خلال اليومين الأخيرين فاضتْ مواقع التواصل الاجتماعي برثائيات ورسائل محبة للشاعر الراحل الذي كان صديقي افتراضيا ولكن لم يتح لنا التواصل لمرضهِ الذي أبعدهُ في الفترة الأخيرة عن محبيهِ وأخلصِ أصدقائهِ.. أكاد أقول أنه لم يتح لشاعر عربي آخر بعد محمود درويش أن يُرثىٰ بكلِ هذه المراثي والنصوص التي تطفح مرارة وحزنـًا وألمـًا ووجداً وإن من علىٰ صفحات الفيسبوك لموتهِ التراجيدي وهو في نضارة الشبابِ وفورةِ الإبداع لما تمتَّعَ به من صدقِ حسٍّ إنسانيٍّ في الكتابة والحياة.. منذ يومين وأنا أفكِّر لماذا لم يجمع الشاعر الراحل مقالاته الأدبية التي نشرها في الصحافة العربية خلال ما يقرب من ربع قرن.. وهي في نظري إرثٌ أدبيٌّ عظيم لا يجب أن يُغفل ويبقىٰ في أرشيف الصحف التي عمل بها الشاعر؟

لا أعرف لماذا ذكَّرني موت جهاد هديب بموت شاعر آخر غنَّىٰ أجمل القصائد الرعويَّة ليسَ في الشِعر الأردني خاصَّةً بل في تاريخ الأدب العربي الحديث كلِّهِ وهو مواطنه حبيب الزيودي الذي رحل هو الآخر قبل ما يقرب السنوات الثلاث وفي منتصف شهر الخريف وأواخر أربعينياتِ عمرهِ القصير.. لا بدَّ أن موت الشاعر خسارة فادحة لمعانٍ ولرموزٍ كثيرة.. أو هيَ بالأحرىٰ ضربة قاصمة لحلمٍ بريءٍ بالجمالِ والحريَّةِ.. هكذا كلَّما رحلَ شاعرٌ عنا نقصتْ السماءُ

نجمةً وقلَّ منسوب مياهِ المحبَّةِ في الأرض.. كما أنَّ لحظةَ رحيلِ شاعرٍ أو عاشقٍ تحتزنُ في طيَّاتها عذابات عصور وأحزان شعوبٍ بأكملها.. وداعـًا أيها الطائرُ المغنِّي الذي تركَ في خلايا الهواء وفي حنايا القلوب الكثيرَ من أقواسهِ القزحيَّة الصادحة إلىٰ ما لا انتهاء.. وداعـًا.

****

عبد الوهاب البياتي.. أثرٌ شعريٌّ لا يزول

منذُ رحيلِ الشاعرِ العراقيِّ المبدع عبد الوهاب البياتي في مطلع شهر آب في عام 1999 وأشباهُ النقَّاد لا يكادون يدعون شهراً واحداً يمرُّ من غير إثارة غبار نظريَّاتهم في تجربة هي في نظري من أهمِّ تجارب الشعر العربي الحديث وأغناها.

لم أتعصَّب لقصائد البياتي قدرَ تعصُّبي لقصائد صديقهِ الشعريِّ اللدود بدر شاكر السياب ولكني أعترف أن هناك ما يشدُّني إلىٰ نفَسهِ الشعريِّ الصافي والهادئ كخرير نهرٍ في غابة، فرغمَ المعاركِ الأدبية الكثيرة التي خاضها صاحبُ (قمر شيراز) و(قصائد حب علىٰ بوابات العالم السبع) و(نصوص شرقية) مع أندادٍ كثرٍ بوزن محمد مهدي الجواهري ونزار قباني وبدر شاكر السياب وغيرهم إلا أنه يحتفظُ ببريقهِ الخاص كواحدٍ من أهمِّ الشعراء العرب الذين أرسوا دعائم الشعرِ الحُر وحرسوا نارهُ الأبديَّة المقدَّسة، وأعترفُ أنني كتبتُ أحد دواويني وهو ديوان (عذابات وضاح آخر) في عامي 2002 و2003 تحت تأثير ديوان البياتي الأخير(نصوص شرقية) وكنتُ قبلَ كتابة هذا الديوان أعاني حُبسةً شعريةً غريبةً.

لن أتحدَّث عن تجاهل النقد الجاد لتجربته الشعريَّة بعد رحيلهِ المفاجئ في منفاهُ الاختياريِّ في العاصمة السورية دمشق، ولكن نبرةَ النقد الصبياني التي راح البعض يتكلَّم بها عن البياتي وهو الشاعر الرائد أصبحت تثير قلقي وحميَّتي معا للدفاع عنهُ، بعد عدة مقالات متناثرة قرأتها علىٰ مواقع التواصل الاجتماعي وفيها الكثيرُ من التجنِّي علىٰ الشاعر ومن تقليلٍ لقيمتهِ وغمطٍ لحقِّهِ، والغريبُ في الأمر أنَّ من يهاجم البياتي اليوم طالما كانَ بوقَ مدحٍ لهُ في حياتهِ، عندما كانَ ملء السمع والبصر ومالئ الدنيا وشاغل الناس وصديقاً مقرَّباً من شعراء وكتَّاب عالميين كغارسيا ماركيز ورفائيل ألبرتي وناظم حكمت.

ولكن هل يسأل سائلٌ: لماذا عندما كان البياتي حيَّاً كان المثقفون العراقيون والعرب يتمسَّحون به؟ هل لأنهم كانوا يخافون سطوته الأدبية؟

البياتيُّ رغم كل شيء شاعرٌ صنعَ مجدَهُ بنفسهِ، قلتُ كلامي هذا لمن حاولَ أن يُسقط عنه صفةَ شاعر، وزدتُ أيضاً أنَّ قلةَ الاهتمام النقدي بمنجزه بعد رحيلهِ وصمةُ عارٍ علىٰ جبين النقد العربي، وأن أهميةَ البياتي تكمن في اختلافهِ عن مجايليهِ من الشعراء الرواد وفي مقدمتهم السياب ونازك.. برأيي المتواضع أن البياتي قيمة شعرية جمالية كبيرة ودواوينه المنشورة في السبعينيات والثمانينيات تؤكد

ذلك وتنحو إلىٰ كتابة قصيدة متطوِّرة وجديدة ومتأثرة نوعا ما بالشعرية العالمية.. البياتي يبقىٰ شاعرا عربيا كبيراً.. ما عدا ذلك فهو قشور، وأتذكَّرُ قولَ أحد النقاد المنصفين بأن بعض أشعار البياتي تتفوَّقُ جماليـًا علىٰ الكثير من أشعار نزار قباني ولكن شعبيةَ الأخير هي التي كانت طاغيةً علىٰ الساحة الشعريَّة العربيَّة في ذلك الوقت.

درستُ حياةَ البياتي واكتشفت أن هواةَ النقد الذين أرادوا هدمَ بنيانهِ الشعري بمعاول رثَّة بالية لم يقرأوا تجربته بموضوعية وإنصاف، حتىٰ أنَّ منهم من يتبجَّح بأن البياتي كانَ مجرَّد زير نساء أو شاعرٍ فقير الموهبةِ، وذهبَ بعضهم الىٰ أبعد من ذلك حين اتَّهم البياتي بأنه لم يتقن لغةً أجنبيةً، فهو لم يتعلَّم الروسية ولا الاسبانية رغم مكوثهِ في روسيا وإسبانيا زمنـًا ليسَ قصيراً، وأن لغتهُ الانجليزية كانت لغة سياحية بالكاد يديرُ بها محادثةً سطحيةً، متناسين أنه ليس من واجبات الشاعر أن يتقن لغة أجنبية ويدور بها علىٰ الملأ ليقول لهم أنا أجيد التكلَّمَ بهذه اللغة أو تلك، وكلنا يعرف أن شاعرا فذَّاً كمحمد الماغوط لم يكن يعرف لغةً غير العربية وهذا لا يضيرهُ كشاعرٍ بشيء.

تجاذبتْ البياتي تياراتٌ وجوديةٌ وصوفيةٌ وسريالية وغيرها، وهو في نظرِ دارسيهِ شاعرٌ إشكاليٌّ ومقلٌّ قياسـًا مع غيره، ونثرهُ قليلٌ أيضـًا فهو ليس من الشعراء الناثرين، له كتاب (تجربتي الشعرية) وعدة

مساهمات نثرية أخرىٰ، كتابته النثرية في مجملها تميلُ إلىٰ البساطة ولكنهُ مختلف وذو ثقافة واسعة.. صحيحٌ أنهُ كان صاحبَ قدرة كبيرة علىٰ كتابة قصائد ممتازة بالرغم من وجود أخرىٰ أقل منها جمالاً وروعةً في منجزهِ، لكنه أثبت بجدارة ريادته وتجديده في المضمون الشعري وفي استعمال الأقنعة الشعرية، والبحور العذبة والأقرب إلىٰ الذوق الموسيقي العربي، ولو انطلق هؤلاء (الشعراء) الواهمون من النقطةِ ذاتها التي توقف عندها البياتي ساعة رحيلهِ في مطلع آب عام 1999 لكان أجدىٰ لأنفسهم وللشعر العربي من تشكيلِ هذه (المحاكمات النقدية) الوهمية التافهة بعدَ فواتِ أوانها ولكنهم ارتدُّوا الىٰ الوراء وعكفوا علىٰ التقليد الأعمىٰ.. يكفي البياتي شرفـًا أنه لم يكن مقلداً مثلهم يوما ما، وأنَّ فراشةَ روحهِ الشعريَّة تركتْ أثراً لا يزول.

****

سطوٌ أدبي

هل يتذرَّعُ البعضُ بقولِ الجاحظ أن المعاني مطروحةٌ علىٰ قارعةِ الطريقِ وهم يسطون علىٰ نصوص غيرهم؟ ربَّما.. مع عدمِ إشارة الجاحظ إلىٰ الألفاظ في مجملِ قولتِهِ تلك، ما معنىٰ انتشار ظاهرة لصوص القصائد المتربِّصين لما يخطُّ هذا الشاعر أو تلك الكاتبة علىٰ صفحتهِ الشخصيَّةِ في فضائهِ اللامحدود علىٰ مواقع التواصل الاجتماعي؟ هل هذه غيرةٌ أدبيةٌ باتتْ تكشفها لنا الشبكة العنكبوتية في وقت أصبحَ العالمُ فيهِ غرفةً صغيرةً تطلُّ من خلالها علىٰ ما تريد؟

موضوع السرقةِ الأدبيةِ باتَ يقلقُ الكثيرَ من المبدعين في الآونة الأخيرة، خاصَّة روَّاد مواقع الشبكة العنكبوتية وعلىٰ رأسها مواقع التواصل الاجتماعي وكثيراً ما يحيلنا إلىٰ قضايا ومسائل أثارها نقَّاد كثيرون حول مسألةِ سرقةِ كاتب مرموق أو شاعرٍ مشهور لأفكار أو حتىٰ لنصوص بأكملها من شاعر أو كاتبٍ آخر.. نتذكَّر كتاب (أدونيس منتحلاً) للشاعر والمترجم العراقي البارز كاظم جهاد حيثُ يوردُ شهاداتٍ كثيرة تشير الىٰ انتحال أدونيس لأفكارغيرهِ من شعراء ومتصوفين ونتذكر سرقة روائي كبير لأفكار وحبكة روائي آخر وأيضا قصائد كثيرة منحولة بالحرف لشعراء عرب مشهورين.

ما يوجعُ أكثر في هذا الموضوع الشائك.. أكثر حتىٰ من الإتهامِ الصريح بسرقةِ فكرة شعرية.. أن يتصلُ بك أحد الأصدقاء ليصفعكَ بادِّعاء أنك بنيتَ قصيدتك من خيوطِ قصيدتهِ التي نشرها البارحة فتبهتُ من كلامهِ وتردُّ عليهِ بأنك لم تقرأ ما كتبهُ هو وحينَ تقرأ ما نشرهُ تجد أن لا شيءَ يربطُ بينَ النصَّينِ.. لا أفكار ولا تناص ولا مدلولات ولا حتىٰ خيوط واهية تجمعُ بينَ القصيدتين، كلُّ ما في الأمر أن مفردةً واحدةً تكرَّرتْ في النَّصين.

شخصيـًا وحسب علمي لم أجد نصوصـًا لي منشورة بتذييل أسماء آخرين مع كثرة نشري علىٰ الشبكة العنكبوتية وعلىٰ مواقع التواصل الاجتماعي.. ولكن يحدث أن يفاجئني أحدهم أو احداهنَّ بقوله بأنه تأثَّرَ بأجواء قصيدة لي وتعلَّم منها أو استعارَ مناخاتها وذلك لا يضايقني أبداً كشاعر، أو أن هناك تقاربـًا فنيًّا علىٰ مستوىٰ المخيَّلة والألفاظ بين ما كتبه أحدهم أو ما نشرته احداهنَّ.. حتىٰ من غير أن أطلِّع علىٰ نُشر.. هل هي مسألة وقع الحافر علىٰ الحافرِ؟ عادة ما تتعرَّضُ نصوص الشعراء المشهورين أو الذين يتمتعون بقاعدة قرَّاء واسعة للسرقة الأدبية.. إما عن طريق سرقة الأفكار وإعادة صياغة النصوص مع إخفاء بصمة الشاعر الحقيقي أو سرقةِ النصوص كاملةَ كما هيَ ومهرها باسم غير اسم الكاتب الحقيقي، وبكل إصرار وصلف وثقة بالنفس.

في ذكرى رحيلهِ الثامنة:

محمود درويش قيثارةُ الوجع الإنساني

في ذكرىٰ رحيلهِ الثامنةِ أعترفُ أن محمود درويش كانَ بوصلةَ قلبي الشعريَّة ولا يزال، لم يُتحْ لي أن أقرأهُ في مرحلة مبكِّرة لحرماننا منهُ في المنهاجِ الدراسي، أتذكرُ الآن ذلك اليوم الذي رجعتُ فيه من الناصرة متأبطًا الجزء الأوَّل من ديوانهِ الذي أصدرتهُ دار العودة في أوائل التسعينيات وأتذكر اليوم الآخر الذي منحتني فيه حيفا الجزء الثاني بفارق عامٍ أو أكثر، يقولُ البعض أنني تلاشيتُ في قصيدتهِ وأقولُ أنا ربما هو تفاعلٌ كيميائيٌّ غريبٌ وسريٌّ ما جعلني أصادقُ هذه اللغة المختلفة الثرَّة ذات الوهج الإشراقي والموسيقىٰ المتدفِّقة العذبة، كانت تفعيلتهُ هي الإيقاع الأصفىٰ والأنقىٰ والأجمل في سمفونيَّة الشعرِ العربيِّ كلِّهِ، وكانت قادرةً علىٰ جذب روحي كما جذبَ غناءُ السيريناتِ في الأساطيرِ الإغريقيَّة عوليسَ التائه، لم يكن درويشُ سقفًا لأحلامنا الشعريَّة المتعثِّرة ولا لتجاربنا الفجَّة كما زعمت وجهات نظر نقديةٌ عديدةٌ بل كانَ سماءً زرقاء مفتوحةً علىٰ رفرفاتنا الهشَّة ورؤانا الضوئيَّة، وسهلاً أخضرَ تركضُ فيهِ أنهارنا العارية، بالرغم من قراءتي لتجارب شعريَّة لا حصر لها ما زلتُ

مفتونـًا بلغتهِ الصافيَّة وبطريقتهِ السحريَّةِ في صوغ عبارتهِ الآسرة المنحوتة بإتقانٍ بالغٍ والمنتفضةِ كفراشةٍ تتأهَّبُ للذوبان في معركةِ الضوء.

الإختلافُ علىٰ شاعر بحجم درويش لم يكن إلاَّ ليلِّمعَ أسطورتهِ الشخصيَّة كشاعرٍ مثيرٍ للجدل وكصاحب مدرسة شعريَّة لها أصداءٌ عميقةٌ في تجارب شعراء لا يحصون، ولها أثرٌ لا يزالُ يتشظَّىٰ في أصواتهم.

أتخيَّلُ جيلَ السبعينيَّات كلَّهُ وهو ينظرُ بغيرةٍ إلىٰ هذا الأمير الجليلي الذي شاءتْ الأقدار أن يتربَّع علىٰ هرمِ الشعرِ العربي علىٰ حدِّ تعبير الشاعر السوري نزار قبَّاني، في وجود قامات شعريَّة عالية حينذاك.

إستطاعت قصيدة درويش أن تصنعَ من حديدٍ تافهٍ قمرا علىٰ حد كلامهِ في الجدارية، واستطاعت أيضـًا أن تعيدَ لنا الثقة بالشعر الجميل المكتوب بعناية والمضمَّخِ بعبير البرتقالِ وعطرِ الحبقِ الجليلي.

أدينُ لصديقي القديم الذي فتحَ عينيَّ علىٰ عوالمِ درويش الساحرة عندما قالَ لي ذات مساءٍ: ألم تقرأ لشاعر يُدعىٰ محمود درويش؟ دع شوقي ومطران والشعر القديمَ جانبـًا، سأعطيكَ أحد دواوينهِ الأخيرة وأظنهُ كانَ ديوان (أرىٰ ما أريد)، أريدُ رأيكَ بعدَ

القراءةِ، هذا شاعرٌ فيهِ من السيَّاب ونزار قباني ولوركا ونيرودا والمتنبي.

بالرغمِ من وجود قصائد عربيَّة مدهشة كقصيدة (المومس العمياء) للسيَّاب أو قصيدة (الوقت) للشاعر السوري أدونيس ومطوَّلات الشاعرين العراقيين حسب الشيخ جعفر وسعدي يوسف وكلُّها تصلحُ كنماذج عالية المستوىٰ والجودة في مدوَّنةِ شعرنا الحديث إلا أنَّ الجدارية في نظري تتفوَّقُ فنِّيـًا وشعريَّـًا علىٰ ما سواها من حيث الأسلوب الأنيق والدلالات العميقة والصور المبتكرة.

(هذا هُوَ اسمُكَ /
قالتِ امرأةٌ ،
وغابتْ في مَمَرٍّ بياضها .
هذا هُوَ اسمُكَ ، فاحفظِ اسْمَكَ جَيِّداً !
لا تختلفْ مَعَهُ علىٰ حَرْفٍ
ولا تَعْبَأْ برايات القبائل ،
كُنْ صديقـًا لاسمك الأُفُقِيِّ
جَرِّبْهُ مع الأحياء والموتىٰ
ودَرِّبْهُ علىٰ النُطْق الصحيح برفقة الغرباء
واكتُبْهُ علىٰ إحدىٰ صُخُور الكهفِ)

سيمرُّ وقتٌ طويل وقصائدُ كثيرةٌ ونظريَّاتٌ نقديَّةٌ لا تسمن ولا تغني من جوع حتىٰ نحظىٰ بشاعرٍ من طرازٍ فريد كدرويش، ذلكَ الذي جعلَ من روحهِ قيثارةً سماويَّةً لوجعنا الإنساني.

****

رسائلُ حُبٍّ في عُلبةِ صفيح

الصُدفةُ وحدها هي التي قادتني إلىٰ الكتابةِ عن الشاعرِ العبريِّ يهودا عميحاي وأنا أتصفَّحُ الزاوية الأدبية في صحيفة (هآرتس) فعثرتُ علىٰ دراسة هامَّةٍ عن الشاعر للباحثة الدكتورة نيلي جولد المتخصِّصة في آداب اللغة العبرية وأدب عميحاي، وأستاذة اللغة العبريَّة وآدابها في جامعة بنسلفانيا، كانت دراستها تُلقي الضوءَ علىٰ فترةٍ مبكّرة من حياة الشاعر بينَ الأعوام 1947 و1948، حينما كانَ عميحاي في أوج شبابهِ وفتوَّتهِ، تورد الباحثة قصةَ حبٍّ أسطوريَّة ربطتْ الشاعر بفتاةٍ تحملُ اسمَ (روت) لكنها سرعان ما تتركهُ وتهاجر إلىٰ الولايات المتحدِّة الأمريكية للدراسةِ وهو في ذروةِ تعلّقهِ وهيامهِ بها، ليستمرَّ بعدها ولمدةٍ تقاربُ العام في بعثِ رسائلَ تشتعلُ بحبٍّ حقيقي ظلَّتْ حتىٰ وفاةِ الشاعر في سبتمبر عام 2000 مجهولةً تماماً وفي عُهدةِ حبيبةِ أمسهِ (روت) التي كانت تحتفظُ بها في عُلبةِ صفيح مُحكمةِ الإغلاقِ خوفاً من تسرُّبِ ما يُتلفُ حبرَها، بخلاف أرشيفهِ الأدبيِّ الذي اشترتهُ جامعةُ ييل الأمريكيَّة لدراسةِ تجربةِ هذا الشاعر الاستثنائيِّ والمثيرِ للجدل ليسَ في الشعر العبريِّ فحسب بل في الشعر العالميِّ أيضاً.

يستذكرُ عميحاي حبَّهُ المنسيَّ علىٰ طريقةِ الفلاش باك هامساً في أذنِ الباحثةِ نيلي جولد وهو يشيرُ إلىٰ امرأةٍ تجلسُ علىٰ مقربةٍ منهُ في إحدىٰ قاعات جامعة نيويورك: أتذكرينَ تلكَ المرأةَ التي هربت إلىٰ أمريكا وذكرتُها في احدىٰ أجملِ قصائدي الغاضبة؟ ها هيَ تجلسُ هناك في الصفِّ الأمامي.

لم أتخصَّص بترجمةِ الشِعرِ العبريِّ الحديث خصوصاً شِعر عميحاي ولكن الرسائلَ التي وصلتني من طلاب دراسات عُليا من بعض جامعات الدول العربية منها جمهورية مصر العربية، تستفسرُ ما اذا كنتُ قد ترجمتُ قصائد غير تلك التي ترجمتُها قبل سنواتٍ مضتْ للشاعر عميحاي أثارت تساؤلاتٍ كثيرةً حولَ قلةِ اهتمامنا نحنُ العرب بالأدب العبريِّ وانكفائنا علىٰ ذاتنا في حين أنهم في الجهةِ المقابلة يترجمون كثيراً عن الآداب العالمية كلِّها وعن الأدب العربيِّ بشكلٍ خاص وطالما التقيت بمترجمين وأكاديميين يهود مهتمين بدراسة وترجمة أعمال جبران والسيَّاب ومحمود درويش وغائب طعمة فرمان وزكريا تامر وأنيس منصور والبياتي وأدونيس وعلاء الاسواني وغيرهم.

كلُّ ما في الأمر أنهُ في عام 1999 وتحديداً في شهر أيار من ذلك العام كنتُ أعاني فراغاً ما.. فترجمتُ عدداً من القصائد لشعراء عبريِّين عاشوا في النصفِ الأول من القرن العشرين وتركتُ القصائد

القليلةَ المترجمة لعدم قناعتي بمستوىٰ ترجمتي الشعريِّ والجماليِّ إلىٰ بدايات عام 2007، في هذا العام ونتيجة دافع لكشفِ بعض جماليَّات هذه القصيدة التي يجهلها القارئ العربي قمتُ بإعادةِ صياغةِ هذه القصائد المترجمة القديمة وترجمتُ بعضَ القصائد الأخرىٰ وهذه المرة ليهودا عميحاي وألكسندر بن، وكانَ ثمَّةَ مشروعٌ يدغدغُ البال بإنجاز ترجمة أنطولوجيا للشعر العبري الحديث بانتقائي الشخصيِّ لقصائد معيَّنة وقريبة من قلبي، وقمتُ بالتواصل مع بعض الشعراء الذين التقيت بهم في مهرجان المغار الدولي للشعر في ربيع عام 2010 وحدَّثتهم عن فكرتي الوليدة، منهم من تحمَّسَ جدا وبعضهم أبدىٰ استعدادَهُ لبعث موافقاتٍ خطِّيةٍ لانتقاء قصائدهم وترجمتها.. تذكرتُ راشد حسين حينها وترجماته الجميلة لأشعار بيالك مع التزامهِ بالبحور الخليلية والأوزان فيها.. ولكن راشد شاعر كبير وذكي وعلىٰ مقدار عالٍ من الحساسيَّة الشعرية المرهفة لذلك اختارَ ترجمة بيالك علىٰ نمط الشعر العمودي.

كانَ شغفي بإخراج أنطولوجيا شعرية عبرية مجرَّد حلمٍ صيفيٍّ سرعان ما تكسَّرَ علىٰ صخرةِ الواقع الأدبي البائس والمثير للشفقة.. لأنَّ الكثير من المؤسسات الثقافية التي توجَّهتُ إليها لدعم مشروعي أو بالأحرىٰ حلمي المجهض لم تزدني إلا يأسًا وقنوطًا من حالةِ

الشعرِ وأنَّ لا أحدَ يهتمُ بقراءتهِ مهما بلغ جمالهُ وصفاؤهُ، متذرِّعةً بكسادِ سوقهِ في العالمِ كلِّهِ.

لم يُقيَّض لي أن أنجزَ ما راودني حينها، كنتُ أودُّ فتحَ نافذةٍ علىٰ عالمٍ شعريٍّ مجهولٍ إلىٰ درجةٍ ما، وينطوي علىٰ اختلافٍ وخصوصيَّةٍ وعمقٍ، ولكن لم يتسنَّ لي ذلكَ.

قصيدتان ليهودا عميحاي من ترجمتي

الجسدُ هو سببُ الحُب

الجسدُ هو سببُ الحُب

فيما بعد هو القلعةُ التي تحرسهُ

بعدَ ذلكَ هو سجنُ الحُب

لكن عندما يموتُ الجسد

يخرجُ الحبُّ حرَّاً من داخلهِ

وبفيضٍ كبير

مثلَ آلةِ حظوظٍ انكسرتْ

وبلحظةٍ واحدةٍ

تسكبُ من داخلها وبرنينٍ هادرٍ

كلَّ نقودِ عصورِ الحظوظ

***

نافذة مضاءة / الظلام عندي

حديقةٌ عامةٌ أصبحت وحيدةً

أنتَ لستَ بحاجةٍ للرجوعِ إلىٰ الحديقة

فقط عليك لمسُ بوابةِ الحديقةِ دونَ الدخول

فقط عليك لمس السياج من دون أن تنظرَ إلىٰ داخلهِ

مثلما يلمسون رزمةً ملفوفةً من الرسائل

من دون إزالة الخيط.. من دون فتحِ الرسائل

من دون قراءتها

مثلما يلمسون بقبلةِ شفاهٍ أو بقبلةِ يدٍ

كتابَ توراةٍ مدوَّرٍ.. مغلقٍ علىٰ أزمنتهِ وعجائبهِ

أنت لست بحاجةٍ إلىٰ بسطهِ ولا إلىٰ القراءةِ فيه

لكنك بحاجةٍ فقط إلىٰ الحُبِّ بكل قلبكَ وروحكَ

نافذةٌ مضاءةٌ تقتطعُ نوراً من الظلام

هكذا جسدكِ أراني جزءاً من عالمِ لا نهائيٍّ

للآخرين.. للآخر.. للأخرىٰ..

الظلامُ عندي

****

جميل الدويهي.. شاعرُ اللحظةِ المفخَّخةِ بالجمال

كرَّستُ شتاءَ العام الماضي بأكملهِ للشعرِ العامي اللبناني، أعدتُ قراءة دواوين سعيد عقل وطلال حيدر وموسىٰ زغيب وزغلول الدامور وطليع حمدان وغيرهم، كانت قصائدهم الرقيقة تشذِّب ذائقتي وتخلِّصها من الزوائد والشوائب، في الليلِ كنتُ أنام علىٰ أصداءِ أمسياتهم الزجليَّة المنبعثة من موقع يوتيوب تحملُ أصالة وعبق تاريخ بعيد، مغسول بصوت فيروز وندىٰ الصباحاتِ العذبة البحريَّةِ البكر.

فيما بعد انفتحتُ علىٰ تجربةِ الشاعر اللبناني الكبير جميل الدويهي المغترب في أستراليا ورائد القصيدة العاميَّة المدوَّرة بنكهتها اللبنانية الرقيقة والتي تذكِّرني دائماً بقصائد غزل كتبها شعراء مثل الأخطل الصغير وإلياس أبي شبكة لحبيباتهم، فأدخلُ في حالةٍ وجدانيَّةٍ كمن يرنو إلىٰ قمرٍ شفيفٍ في ليلةٍ حزيرانيَّةٍ أو يقرأُ رسائلَ عشقٍ سريَّة لنفسهِ، ويشبِّهُ القصيدةَ براقصةٍ تتأهَّبُ للرقص.

تجربة الصديق الشاعر جميل الدويهي بالرغم من زخمها وعمقها وأهميَّتها إلىٰ أنها بقيت بعيدةً عن حلقات ودوائر النقد العربي الرسمي، ربما يرجعُ سببُ ذلكَ إلىٰ كون صاحبها يعيشُ في

مهجرهِ في القارة الأسترالية بعيداً عن مركزية الخطاب الإبداعي العربي، ومقرُّها الشرق، لهذا السبب لم يُقرأ كما يجب، ولم يُطرح منجزَهُ الكتابي المتفرِّد والمتنوِّع والخصب طاولةِ البحث والدراسةِ والاستقصاء، وهذا برأيي ظلمٌ كبير لأدب المنافي والمهاجر.. ظلمٌ يؤدِّي حتماً إلىٰ الإهمالِ والنسيان.

في قصيدةِ الدكتور الشاعر جميل الدويهي تجدُ كلَّ عناصر الطبيعة اللبنانية الناعمة ومعاني حبِّ الحياة والمرأة والجمال، بدءاً من عطر التفَّاحِ وخصرِ الحبيبة وفستان الأرجوان والحبِ الأكبر من البحرِ إلىٰ جدائلِ الحبيبةِ التي تشبهُ الموسيقىٰ وكحلِ عينيها الشبيهِ بخيلِ العرب ومرجوحة عصافير بالحَور العتيق وغيرها من الموتيفات الشعريَّة التي يجيد الشاعر توظيفها واستعمالها بكلِّ مهارة وحذق شعري وفنِّي، كما في هذه المقطوعة التي تفيض عذوبةً ورقَّةً وانسيابيَّةً (عْـيـــونِـــك بنصّ الليل زارونـــي

حِـكْـيـــو مَعي، وتْقلّقو عْيـــوني

اعطِيني شي نتفِة كـــحْـــل للدفـــتَر

مـــن وقت مـــا رِحْتي الشِّعر أصفَر

وقالـــو القَوافـــي مـــا بْيَعْرْفوني)

هنا شاعرٌ يسير علىٰ نهجِ سعيد عقل في كتابةِ القصيدتين، العاميَّة والفصحىٰ، بسحرٍ نازفٍ وعاطفةٍ رقراقة تغرفُ من ماضي الأيَّام

وهجَها السرياليَّ وطاقتَها المبدعة المفتوحة علىٰ التجلِّياتِ والأناشيد المؤرَّقة.

من جهةٍ ثانيةٍ لمستُ نغمةً شجيَّةً في قصائدهِ النثريَّة التي لا تقلُّ جمالاً وقيمةً عن قصائده العاميَّة، فغناؤهُ الأعزل يذكِّرني دائماً بسونيتات عشَّاقِ القرون الوسطىٰ وهم يجوبون الأرضَ بحثًا عن لحظةِ وصلٍ قصيرةٍ أو ينتظرون عاشقاتٍ لا يأتين تحتَ شجَرِ الحنين.

الشاعر جميل الدويهي ذلك المعانقُ الأبديُّ لأشعارِ العذريِّين ولهفتهم التي تتوَّلدُ دائما من رمادِ العنقاءِ، فصوتهُ ترجيعُ حُداءِ الحبِّ النظيف المتعفِّف البريء الصافي.

(وقلتُ : أحبُّكِ.

سوف أظلُّ أحبُّكِ مثل الطفلِ، ففي عمري المتقدِّم لا أحتاجُ إلىٰ نارٍ تشعلني بعد هطول الثلجِ. تعالي نمشي في ظلِّ الصمتِ المفروض علينا، لا تلزمنا لغةٌ كي نقرأ حرفًا أو حرفينِ، وكي نتعانقَ في شكلٍ رمزيٍّ، لا يفهمه إنسانٌ. أعلنتُ الحرب عليكِ، فإنَّ الحبَّ هو الفصلُ الأحلىٰ في مذبحةٍ لا ينجو منها أحدٌ. إنَّي لا أعرف ذاتي إلاَّ في الرقص علىٰ الجمرِ،

وفي تهديم العصرِ،

ولستُ أحاول

أن أعطيكِ سماء الفجرِ،

ولا مـاء الينبوعِ، ولا أعـطي لـربـيـع الأرضِ صفـاتٍ منكِ، خرجتُ علىٰ النمط الشعريِّ السائدِ، ألغيتُ المألـوفَ، لأنَّكِ أنتِ المـطرُ).

هكذا كانَ الشعرُ عند الأستاذ الشاعر جميل الدويهي حاسَّةً خارقةً تحسنُ اقتناصَ اللحظةِ الشعوريَّة الهاربة وحالةً موزَّعةً علىٰ حقولِ الرؤىٰ والجمال الصرف.

****

حلمُ نوبل للأدب.. هل يتحقَّقُ عربيّاً مرَّةً أخرى؟

في غمرةِ هذا الجدل المستمِّر حول إمكانية فوز أحد الشاعرين الكبيرين أدونيس أو سعدي يوسف بجائزة نوبل للأدب تساءلتُ ما إذا قدَّمت القصيدةُ العربيَّةُ الحديثة منجزاً جماليّاً تراكميّاً يعالجُ معضلات ومشاكلَ الإنسان الحديث وتصدُّعات هويَّتِهِ بشكل مغاير ومختلف وعميق، أو طرحت ما يجيبُ علىٰ الكثير من الأسئلة المؤرِّقة علىٰ مستويات فكريَّة وإنسانيَّة وابداعيَّة لا حصرَ لها، خارج الحساسيَّة اللغوية المشدودةِ إلىٰ محاكاة المنجز الأدبي الراهن باعتبارهِ أداة محاكاة مقدَّسة، وخارج التأثر بالشعر العالمي في نصِّهِ الأصلي ونصِّهِ المترجم، هل حقَّق الشعرُ العربيُّ الحديثُ شيئاً يمكن اعتبارهُ معادلاً موضوعياً للإلياذة أو للأوديسة مثلاً أو لآثار شكسبير أو فرانز كافكا أو مارسيل بروست أو غابرييل غارسيا ماركيز وعمالقة آخرين؟

كيفَ ينظرُ القارئ الأجنبي إلىٰ هذهِ القصيدة العربيَّة التي أشكُّ أنها تخاطبهُ أو تخاطب وعيَهُ أو قلقه أو بحثهُ عن الخلاص الأبدي من مأزقهِ الوجودي؟ آلاف النصوص الشعريَّة تبدو لي متشابهةً ولستُ أرىٰ فتوحات عميقةً وكشوفاتٍ لامعةً كتلك التي يتحدَّث عنها ناقد فرنسي وهو يحلِّل أدب شارل بودلير، يبدو لي الشعرُ

العربي من جهة مغايرة حبيسَ بيئتهِ وتاريخهِ ونظرتهِ النمطيَّه للأشياء، فكيفَ نريدُ وضعهُ علىٰ الخريطة الكونيَّة بين ليلةٍ وضحاها؟ ربمَّا أكون مخطئـًا في قولي، وبالطبع هناك استثناءات جميلة ومؤثِّرة وفاعلة، لكنها لا تتعدَّىٰ أصابعَ اليدِ الواحدة.

كنتُ وما زلتُ أعتبرُ سعدي يوسف رمزاً شعريَّـًا كبيراً وأيقونةً شعريةً عربيةً عاليةً ستضيء إلىٰ الأبد ما عتمَ من مناطق جمال القصيدةِ العربيَّة وأساليبها البكر، بغضِّ النظر إن كانَ أستاذاً لأجيالٍ شعريةٍ لاحقةٍ أو لم يكن كذلك، ولكن بصمتهُ واضحةٌ في الكثير من تجارب شعراء قصيدة التفعيلة وقصيدة النثر، وأدونيس كذلك علىٰ غموضهِ وإبهامهِ الشعريِّ غير المبرَّر في كثير من قصائدهِ، وهما علىٰ اختلافهما شعريَّا يجتمعانِ في فضاءاتِ متشابكة وحساسيَّات تركيبيَّة جديدة ومبتكرة، ولكن سؤالي هو هل اسم الشاعر سعدي يوسف راسخٌ في الذاكرة الشعريَّة العالمية الآن رسوخ اسم أدونيس عبر ترجماته وطروحاته المختلفة والمتجدِّدة ومشاركاتهِ الجريئة في فتح آفاق ورؤىٰ جديدة للقصيدة الإنسانية المعاصرة؟ بمعنىٰ آخر هل حاول سعدي أن يغرِّب قصيدته قليلا كما فعل الشاعر السوري أدونيس؟

قيمةُ سعدي يوسف الشعرية بنظري تكمن في حفاظهِ علىٰ بلاغة وإشراق وأصالة القصيدة العربية وفي كونهِ أحد أهمِّ تلاميذ السيَّاب

النجباء، حيثُ أنَّ نظرىٰ عجلىٰ علىٰ تراث سعدي الشعريِّ تكشفُ تأثَّرهَ الواضحَ بأستاذهِ السيَّاب ويتجلَّىٰ هذا التأثُّر بوضوح في دواوين سعدي الأولىٰ المنشورة في الخمسينيَّات ومطالع الستينيَّات، أما أدونيس فهو يختلف عنه بمحاولاته الكثيرة في كسر السائد الشعري العربي والابتعاد عن كلِّ ما هو نمطي أو مكرَّر، ويرىٰ بعض النقاد أن أدونيس توقفَّ عن التجديدِ بعد ديوانهِ الرائعِ (أغاني مهيار الدمشقي) واكتفىٰ بالتنويع الذهني أو الغنائي علىٰ هذا الديوان الفريد، بخلاف سعدي الذي بلغتْ تجربتهُ الشعريَّة أوجها في السبعينيَّات والثمانينيَّات، عبر تجريبيَّة فذَّة وتفرُّد واختلاف.

في حالة شاعرينا كنتُ أتمنىٰ أن يتم التغاضي عن الهنات والمزالق السياسية التي عادةً ما يقعُ فيها المبدع الحقيقي وأن يتمَّ التركيز علىٰ منجزهِ الإبداعي أوَّلا ويكون تكريمهُ عربيًّا قبلَ تكريمهِ من قبل أي مؤسَّسة عالمية.

****

فاروق شوشة.. آخرُ الرومانسيِّين

هل هي مجرَّد مصادفةٍ عابرةٍ أن يرحل الشاعر المصري الكبير فاروق شوشة في الرابع عشر من أكتوبر وهو ذكرىٰ رحيل أمير الشعراء أحمد شوقي الذي رحلَ في اليوم نفسهِ من عام 1932؟ شوشة الشاعر الأنيق والمهذَّب والعذب، العاشقُ الرومانسيُّ الرقيق العارف بأسرارِ قصيدتهِ الليِّنةِ كأنفاسِ الحبق، والميَّالة إلىٰ لونٍ خاص يجمعُ الخضرة الزاهية إلىٰ الزرقةِ السماويَّة، إذ امتلكَ شوشة صوتـًا متفرِّداً عبَّرَ عن الوجد الإنساني الأعمق لقصيدةِ التفعيلة في مرحلة متأخرة عن البدايات التي اجترحها شعراء من العراق وسوريا وباقي الأقطار العربيَّة، لكنهُ بقيَ وفيًّا حتىٰ لحظاتهِ الأخيرةِ لبحور الخليل الفراهيدي ولايقاعاتِ روحهِ وتجليَّاتها الصوفيَّة الصادقة، وهو إلىٰ جانب كونهِ شاعراً علىٰ جانب وافرٍ من الجمال إذاعيٌّ ومقدِّمٌ لأحد أهمِّ البرامجِ الأدبية ذائعة الصيت، والتي حبَّبتْ أجيالاً متعاقبةً باللغة العربيَّة وتاريخها وآدابها، أعني برنامج (لغتنا الجميلة) الذي اقترنَ اسمهُ لعقود طويلة باسمِ الشاعر.

شكَّلَ فاروق شوشة بالإضافة إلىٰ أمل دنقل وأحمد عبد المعطي حجازي وصلاح عبد الصبور ومحمد عفيفي مطر حالةً إبداعيَّةً فريدةً كانتْ برأيي جسرَ العبور من الزمن الكلاسيكي في الشعريَّة

المصريَّةِ إلىٰ ضفَّةِ الحداثة في الستينيَّات والسبعينيَّات، وكانَ حسب قراءتي لبعض منجزهِ أكبر من أن تضمَّهُ مدرسة شعريَّة أو أن ينصاعَ لقوانين ضيِّقة أو لتعاليمِ نظريَّة بحذافيرها، كانَ مفتوحاً علىٰ فضاءِ الجماليَّات، وقراءته كانت تحيلُ دائما إلىٰ صورةِ المثقَّف الرومانسي، والشاعر الممسوس بهاجسهِ الموسيقي والمتفلِّت من قيودِ النثريَّة والذهنيَّة التي سيطرت بشكل أو بآخر علىٰ نسبة كبيرة من طبقة شعراء جيلهِ.

نقَّىٰ شوشة لغتهُ الشعريَّة من الشوائب وأضفىٰ عليها مسحةً إشراقيَّةً مغسولةً بنور صباحاتِ الخريف تذكرِّنا بقصائد شوقي علىٰ اختلاف أساليب الكتابة الشعريَّة بينه وبينَ أمير الشعراء، قصيدتهُ علىٰ طولها تعيدُ إلىٰ أذهاننا صورة القصائد المشرقة الشبيهة بالأنهار الرقراقة الصافية صفاء ماء المطرِ الأوَّل والينابيع الجبليَّة الصغيرة، ونبرتهُ خاليةٌ من ذرات الغبار الصغيرة ومن كلِّ ما يعلقُ بها من كدَر الغيومِ المكفهرِّة.

ومن أقرب قصائدهِ إلىٰ قلبي هذه التي يقولُ فيها:

(الرمادُ أمامكَ..
والبحرُ خلفكَ..
فاتركْ – لمن خلعوك– الخلافةَ
هذا زمانٌ لدهماء هذا الزمانِ

يعيثون فيه فساداً
ويرجون منه امتداداً
ويحيون...
يرتكبون صنوف الخطايا
وفي طيشهم يوغلون
فلا يستدير إليهم أحد!
الرمادُ يسود..
تقدم...
وكن واحداً لا نصيب له
في الرهان)

في مثلِ تجليَّاتِ هذا الرفض نعثرُ علىٰ العفويَّة، السلاسة، الأنفاس الشعريَّة المكتوبة بماء القلبِ ودمعهِ الذي يلمعُ في الظلام، مع أنَّ شاعرنا الراحل اهتمَّ في طورهِ الأدبي الأخير بالكتابة النقديَّة الانطباعية في صحيفة الأهرام المصريَّة وكنتُ أحد متابعي تلك المقالات المميَّزة والقادرة علىٰ مصالحة أيَّ كائنٍ شعريٍّ بالفطرة مع النثر وعوالمهِ الثرَّة ودفقاتهِ العالية والمتوتِّرة ذات المخزونِ الجماليِّ الهائل، وداعـًا فاروق شوشة، يا آخرَ الرومانسيِّين.

نقطةُ ضوءٍ واحدةٌ من التماعات بدر

(تداعيات في الذكرىٰ الثانية والخمسين لرحيل الشاعر بدر شاكر السيَّاب)

في ربيع عام 1997 همس شاعرٌ يكبرني بعشرين عاماً في أذني: عليكَ بالسيَّاب.. لا أظن أنه سيجيء شاعرٌ مثلهُ حتىٰ نهايات القرن الواحد والعشرين، فيما بعد ابتلعت الوظائف الحكومية هذا الشاعر الصديق وربما اعتزلَ الشعرَ الىٰ غير رجعةٍ وبقيتُ أنا علىٰ شغفي الأزليِّ بهذا الطائرِ الشعريِّ النادر والمشتعلِ حساسيَّةً ورهافةً.

كان عليَّ أن أكتب شيئاً عن السيَّاب في ذكراه الثانية والخمسين رغمَ مشاغل الحياةِ التي تبعدني أحيانا عن الكتابة ونادراً ما كانَ يشغلني عن بدر شاغلٌ، لكني ولحسن الحظِّ أعدتُ قراءةَ دواوينهِ وقراءة الدراسات الهامة التي كتبت عنهُ مؤخراً وأتاحها محرِّك البحث جوجل لي.. بدءاً بمقالات الناقد العراقي الدكتور عبد الواحد لؤلؤة عن السيابِ وتأثرِهِ بالشاعر الانجليزي المثير للجدل ت س اليوت وايديث ستويل وانتهاء بعدد الآداب المخصَّص عن السيَّابِ في فبراير 1965 وفيهِ مقالٌ مهم للشاعر اللبناني خليل حاوي

وعثرتُ فيما بعد علىٰ كتاب (بدر شاكر السيَّاب في أيامهِ الأخيرة) للشاعر العراقي عبد اللطيف أطيمش منشوراً كملفٍ في أحدِ المنتديات علىٰ الشبكة العنكبوتية وهو من الكتب التي تلقي ضوءاً ضافياً علىٰ حياة هذا الشاعر الفذ في أيامهِ الأخيرة في الكويت، عندما كانَ يتعالجُ من مرضهِ في المستشفىٰ الأميري.

كانَ عليَّ أن أقولَ شيئاً عن الذي حملَ الشعلة المقدَّسة واحترقَ بأُوارها، عن الصوتِ المتشظِّي في كلِّ ترجيعات أوركسترا حركة الشعر العربي منذ أواسطِ الخمسينيَّات الىٰ الآن، عن معاناتهِ ومرضهِ وفقرهِ، عن عبقريَّتهِ وأسطورتهِ الخالدة، فكَّرتُ أن أسلِّط الضوء علىٰ طريقةِ توظيفهِ المفردة الشعريَّة في السطر الشعريِّ الموزون بفنيَّة وذكاء ومهارةٍ خارقة، عن اختيارهِ للكلمةِ المناسبة لضبط إيقاعِ القصيدةِ، وكمن أراد أن يقتصَّ لهُ من حياةٍ ظالمةٍ أو زمانٍ حجود استمعتُ اليهِ أكثرَ عبر يوتيوب وقرأتُ قصائده بكثيرٍ من التأنِّي والتأنُّق، وتعزَّيتُ بكمِّ الدراساتِ والأبحاث الأدبيَّةِ الهائلِ الذي استفردَ بهِ بدر دونَ سواهُ من روَّاد حركةِ الشعر الحر.

لا يعنيني إن كان بدر هو الرائد الأوَّل لقصيدة الشعر الحرِّ أو لم يكن فالهوَّةُ واسعةٌ بين قصيدتهِ بتنوِّعها المذهل واختلافها الواضح وتجارب ومحاولات نازك الملائكة الشعريَّة البسيطة جدَّاً والتي تميل الىٰ الموَّشح العادي.

قصيدةُ السيَّاب بالنسبةِ لي ورغم عشرات القراءات تبدو وكأنها طازجةٌ وجديدةٌ في كل آن، شعريَّةُ السيَّاب هي شعريةٌ متجدِّدةٌ برأيي رغم اختلاف وجهات نظر النقدِ الذي جاء فيما بعد ليفكِّكَ تحوُّلات قصيدة التفعيلة، وأنا قارئٌ للتجارب الشعرية الثرَّة والمختلفة التي تلتْ تجربة السيَّاب وكانت تنويعـًا طبيعيًّـًا عليها وأغلبها لشعراء قصيدةِ التفعيلة، ولا أريد الخوض في غمارِ قصيدةِ النثر لضيق المجال، هناك إدِّعاءٌ يقول بأنَّ الحداثة الشعريَّة العربيَّة قد تجاوزت السيَّاب، طبعـًا أنا أحترم هذا الرأي جدا وأشدِّد علىٰ خصوصيَّة قصيدة بدر التي تبدو لي حتىٰ هذهِ اللحظة غيرَ متجاوزة، ولنبتعد عن قصائدهِ ذائعة الصيت ولنأخذ قصيدة (حفار القبور) علىٰ سبيل المثال، سنرىٰ مقدرة السيَّاب في تلوين الجوِّ الشعريِّ العام فيها بالإضافة الىٰ جمال التصاوير وفتنة اللغة الشعريَّة ونبرةِ القصيدة التي تدخل النفس بلا استئذان، نستطيع أن نقول أن بعض الشعراء حاولوا أن يطوِّروا في قصيدةِ التفعيلةِ أكثر من السيَّاب ولكننا لكي نثبتَ ذلك بحاجةٍ لدراسات كثيرةٍ تبرزُ براءةَ الجملةِ الشعريَّةِ الأولىٰ والذكاءَ الشعريَّ اللمَّاحَ في قصيدة السيَّاب وعلاقتها بدهشة الشعر الطفوليَّة وبمنابع الشعر الحقيقي الصافي، السيَّاب كان واضحـًا في عبارتهِ الشعريَّة لكنهُ كانَ عميقـًا في الوقتِ ذاتهِ، كم كنتُ أتمنَّىٰ لو امتدَّ بهِ العمرُ عشرينَ عامـًا أخرىٰ أو ثلاثين.. لو عاش حتىٰ الثمانينيَّات أو

التسعينيَّات، كنتُ أريد أن أرىٰ كيفَ سيطوِّرُ قصيدتهُ العذبة التي اجترحها هو.

كانَ بدر بابـًا للحداثة الأولىٰ دخل منهُ شعراء لا يحصون شكلَّوا كورس الحداثة الثانية، كانَ رافداً عذبـًا لمن جاء بعدهُ، وهو بجملتهِ العصيَّةِ العميقةِ وبطريقتهِ الاستثنائيَّة في المسكِ بخيوط قصيدتهِ الصعبةِ كان متجاوزاً أصوات جيلهِ مثل خليل حاوي وأدونيس وعبد الصبور وحجازي غيرهم... وهنا يقولُ قائلٌ: هل جيل ما بعد السيَّاب أهم منه شعريَّـًا؟ الإجابة هي لا فأنا لا أعتقد أن شعراء النصف الثاني من القرن العشرين قد تجاوزوهُ شعريَّـًا، مع أنه أستاذهم وتلميذ أحمد شوقي وأبي تمام وت س اليوت وشلي وستويل، فشعراء الحداثةِ الثانية حاولوا أن يطوِّروا وأن يذهبوا الىٰ فضاءات أبعد وأعلىٰ ولكن قصيدةَ بدر لا تزال تشعُّ حتىٰ الآن.. مع احترامي لعشرات التجارب المتميِّزة وللأصوات الأخرىٰ فإنَّ أهميةَ السيَّاب لا تزالُ محيِّرة ولا يزالُ الاهتمام بهِ يزداد رغم مضيِّ أكثر من نصف قرنٍ علىٰ رحيله، ولا تزال تجربتهُ موضوع جدل وبحاجةٍ للكلام الكثير وللدرس والاستقصاء.. أظنُّ أن أعظم موهبة شعرية في الأدب العربي الحديث امتلكها السياب.. أتكلم عن موهبة وليس عن ثقافة.. وطبعا أتحدث بالنسبة لجيله وسنهِ وأعتبرُ هذا رأيـًا شخصيَّـًا قد أخطئُ وقد أصيبُ فيه.

وأنا أعيدُ قراءةَ منجز بدر الخالد وسيرتهُ الذاتيَّة كنتُ أختبرُ القلبَ بالغصص والعذاباتِ فعندما حملَ الشاعر الكويتي علي السبتي جثمان الشاعر العراقي الكبير بدر شاكر السيَّاب في يومٍ ماطر من أواخر ديسمبر عام 1964 وانطلقَ بهِ لتسليمهِ إلىٰ أهلهِ في العراق ليتمَّ دفنهُ في مقبرة مدينة الزبير، اعترضتهُ السلطاتُ العراقية يومها وأبت عليهِ أن يعيدَ جسدَ الشاعرِ إلىٰ الأرضِ التي أحب.. عندها أخذ السبتي بالصراخِ: يا ناس يا عالم هذا شاعركم خذوه.. وعندما سمحوا لهُ بالدخول وسلَّم جثمانَ الشاعر لذويهِ كانت السلطاتُ العراقيَّة قد طردتْ أهل بدر من البيت الذي استجأرتهُ لهم مصلحةُ الموانئ في البصرة، حيثُ كانوا مع عفش البيتِ تحت المطر الذي كانَ يهطلُ بغزارةٍ يومها، تذكَّرتُ جملةً قالها بدر ذات يوم ومعناها أنهُ عاشَ طوالَ حياتهِ القصيرة وهو يحلمُ بالأمانِ وبالبيتِ الذي يؤويهِ، محنةُ السيَّاب إذن لم تكن مع المرضِ والفقرِ وسوءِ الطالعِ فحسب، كانت مع اللصوص والخونة والسفلة والأوغاد والقائمة طويلة جدا.. الغصَّةُ وحدها هي التي كانت تمنعني أحيانـًا من أن أقرأ وجعَ الحقيقة، أو اكتبهُ بأصابعَ مرتعشة.

****

أحمد حسين.. شاعرُ حيفا المعذَّبُ بجمالها

بترجُّل شاعر ملاحم الحبِّ ومطوَّلاتهِ المتمرِّد الفلسطينيِّ البهي أحمد حسين يفقدُ الشعر الفلسطيني والعربي صوتـًا شعريَّـًا استثنائيًّا بالغ العذوبة ومن أصفىٰ الأصوات في الشعريَّة العربيَّة الحديثة، حالم كبير يتناقصُ برحيلهِ منسوبُ الفتنة في كل غواية، ويتغيَّر طعمُ الأشياءِ الجميلة المعجونة بالحنين والتلفُّتِ إلىٰ الوراء.

كانَ أحمد صديقي وكنتُ دائم التواصلِ معه وكنتُ أجد فيه عبقريَّة شعريَّة ونقدية لمَّاحة ومتفتِّحة، كان يتابعُ قدرَ ما يُتاحُ له ما ينشرُ من شِعر في الصحف والمجلَّات الأدبية المحليَّة والعربيَّة ويُبدي رأيه في هذا الشاعر أو ذاك باختصار وكان رأيه النقدي دائمـًا يعنيني ويصوِّبني نحو الطريقِ الصحيحة، وعندما أهديته ديوان (يوتوبيا أنثىٰ) الصادر في ربيع عام 2005 أبدىٰ إعجابه بهِ وكان نادرا ما يُعجب بكتابات شعريَّة محليَّة ومعروف عنهُ أنه لا يجاملُ أحداً علىٰ حساب القصيدة.

في فترةٍ معيَّنة كانَ مسكونـًا بهاجس حواري روحي مع صنوه الشعريِّ محمود درويش تجلَّىٰ ذلكَ في الكثير من كتاباته الشعريَّة

والنثريَّة، مع أن أحمد لم يكرِّس حياته للشعر ولم يترهبن له لكنه كان ندَّاً قويَّـاً لشعراء عرب مبدعين ومكرَّسين عاشوا كشعراء نجوم.

صحيح أن القارئ العربي لم يسمع باسم أحمد حسين وهو شاعر فلسطيني من قرية مصمص القريبة من مدينة أم الفحم في منطقة المثلَّث الشمالي، وشقيق الشاعر المقاوم راشد حسين، ولكن إذا وضعنا اسمَ محمود درويش جانبـاً ونحن نقيِّم الشعر الفلسطيني الحديث فإن تجربة أحمد حسين بنظري تعدُّ من أهمِّ تجارب الشعر الفلسطيني، إن لم تكن (بعد تجربة درويش) الأهمَّ والأقوىٰ جماليَّـاً وشعريَّـاً علىٰ الإطلاق، ويعدُّ صوته من أصفىٰ وأجمل الأصوات في تاريخ فلسطين الأدبي كلِّه، شاعرٌ آثرَ العزلة والظلَّ علىٰ منصَّات الضوء، آثر الابتعاد عن جو شعري غارق في الركاكة والضحالة والبؤس الثقافي والانشائيَّة.

ظلَّ منجز أحمد حسين الأدبي شبهَ غائب أو بالأصَّح بعيداً عن متناول يد القارئ العربي خارج فلسطين، فمن النادر أن تجد قصيدةً أو مادةً أدبية له أو عنه علىٰ شبكة الانترنت، ليس فقط لا تجد لهُ أو عنه مادة وافية ضافية علىٰ محرِّك البحث غوغل، بل لا تكاد تلمسُ حضوره في الذاكرة الجمعيَّة للشعر العربي الحديث، علىٰ قلَّةِ دواوينه نجد بصمتهُ وتأثيرهُ علىٰ أجيال متعاقبة من الشعراء الفلسطينيين، شاعرٌ بجمال وصفاء شاعريَّةٍ مذهل، عذبٌ حتىٰ حدودِ

الينابيعِ البريَّة، باذخٌ حتىٰ حدائق السماء، شكَّل ديوانه الأثير (قراءات في ساحة الإعدام) الصادر عام 2004 ذروة تعبيريَّة ونقطة مفصليَّة لا علىٰ مستوىٰ الشعر الفلسطيني فحسب بل والعربي الذي بقي أحمد حسين بإرادته وعن قناعة تامَّة خارج أسوار مدنه الفاضلة، وخارج تنظيراته النقديَّة، ديوانه هذا كأنما كُتب بضوء أزرق لجمال وروعة تراكيبه اللفظيَّة وكثافة اللغة الشعريَّة الفريدة. قصيدته وحدها هي التي تشهدُ له، قصيدتهُ التي عانقت في ديوانيهِ الرائعين (بالحزن أفرحُ من جديد) و(قراءات في ساحة الإعدام) القلق الوجودي والهمَّ الإنسانيَّ ومزجت الملحمي بالواقعي والغنائيَّ بالأسطوريِّ والتفعيلةَ والشعر العموديَّ بأجمل نماذج شعر التفعيلة وأعلاها وأصفاها، طالما قلتُ بأنهُ سيمرُّ وقتٌ طويل قبل أن تنجب فلسطين شاعراً حقيقيًّا بقامة وبقيمة أحمد حسين الذي جدَّد في أشعارهِ بصورة أعمق وأكثر حداثةً وفنيَّةً من شقيقهِ راشد ولكن شهرة الأخير كانت في كثير من الأحيان تغطِّي عليه.

المطالع الشعريَّة العالية التي عُرف بها هي ما كانَ يُميِّز ذراهُ المجازيَّة والتعبيريَّة كما في هذا المطلع المذهل لمطوَّلته العامرة (بالحزنِ أفرحُ من جديد) وهي قصيدة تحمل دلالات كثيرة علىٰ قوَّةِ الصياغة اللفظيَّة وجمال المجازات والصور الفنيَّة.

سَأَمُرُّ مِنْ بَعْضِ النِّساءِ إِلَيْكِ، لكِنْ لَنْ أُفَتِّشَ عَنْكِ في امْرَأَةٍ سِواكْ.

أَعْطَيْتِني جَسَدًا، خُذيهِ إذَنْ!
سَئِمْتُ مِنَ الوُقوفِ عَلىٰ غِيابِكِ تَضْحَكينَ وَتَحْزَنينَ وَلا أراكْ.
وَتُبَدِّلينَ ثِيابَ نَوْمِكِ في السَّريرِ وَلا أَراكْ.
وَتُحاوِلينَ العِشْقَ مِنْ غَيْرِ الرُّجوعِ إلىٰ تَفاصيلِ الجَسَدْ.
هَلْ أَنْتِ عاشِقَةٌ أمِ امْرَأَةٌ تُحِبُّ بِدونِ نَهْدَيْها يُدَوِّنُها السَّريرْ
جَسَدًا بِلا مَعْنىٰ،
مُحاوَرَةً عَلىٰ صَيْفِ المِلاءَةِ بَيْنَ جَهْرِ السّاقِ بِالأُنْثىٰ وَغَمْغَمَةِ
الحَريرْ.
هَلْ أَنْتِ عاشِقَةٌ أَمِ امْرَأَةٌ!
تَعِبْتُ مِنَ التَّجَوُّلِ في شَوارِعِكِ الأَنيقَةِ كَالزُّجاجْ.
جَسَدي يُلاحِقُني،
أَفِرُّ إلىٰ القَصيدَةِ مِنْهُ، أَتْرُكُهُ لِتَقْتُلَهُ النِّساءُ المُسْرِعاتُ إلىٰ المَساءْ،
يَحْمِلْنَ تَحْتَ ثِيابِهِنَّ اللَّوْزَ وَالرُّمّانَ
وَالزَّهْرَ الَّذي نَثَرَتْ عَلَيْهِ «عَناتُ» نَشْوَتَها لِمائِدَةِ الحَبيبْ.
كُلٌّ وَلَيْلَتَها، وَلكِنَّ النِّساءَ هِيَ النِّساءْ.

وداعًا شاعري الأجمل، عاشق حيفا وكرملها، ومغنيها الأعذب والمعذَّب بجمالها، طالما حيَّرتني عذوبةُ قصائدك، طالما أذهلتني

بروق مجازاتك، أحتاجُ إلىٰ عدَّة أعمارٍ كي أصلَ إلىٰ عمقِ لغتك الشعريَّة.

عليكَ يبكي الجمالُ نفسه.

****

أن تقبضَ على الشمسِ بقلبكَ

(في وداع الشاعر الفلسطينيّ الكبير سميحِ القاسم)

الكتابة عن شاعرٍ بحجمِ سميح القاسم صعبة.. بل صعبة جداً.. كيفُ أستطيعُ أن أصفَ علاقتي بشاعرٍ يستندُ إلىٰ أسطورة وتغرفُ عيناهُ من قمر شاردٍ؟!

لم أصادفُ إنسانـًا يتمتَّعُ برصيدٍ معرفيٍّ ثقافي كسميح.. مرَّة يسألني عن تناص معيَّن وردَ في إحدىٰ قصائدي يعانقُ جملة شعرية لشاعر فرنسي أسمهُ لوتريامون.. يقولُ لي هل قرأتهُ؟ أجيبهُ أنني قرأت نصف ديوان أناشيد مالدورور.. وتأثرت جدا بأجواء هذا الشاعر السريالي.. فيطلبُ مني أن أقرأه بعمق وأن أحاولُ أن أربط بينه وبين السريالية والرمزية باعتبارهما مدرستين فنيَّتين وشعريتين ظهرتا في القرن التاسع عشر في فرنسا.. وأن أعي الظروف التي أحاطت بهما..

لم يمنع تحمُّس سميح للجواهري من الإعجاب بشعراء كثيرين لقصيدةِ النثر العميقة والمركبَّة وقد حدَّثني مرَّة أنه كانَ في أمسية شعرية في لندن برفقة نزار قباني.. فلفت انتباهَه شاب لبناني يكتب

قصيدة النثر ويحملُ دفتراً صغيراً فيهِ بعضُ القصائد التي أعجبته جدا لدرجة أنه طلب من الشاعر الناشئ أن يصعد علىٰ المنصة ويلقي شِعرهُ إلىٰ جانب الشعراء الكبار في ظلِّ تململ نزار.. سميح لم يقل لي اسم هذا الشاعر الشاب ولكنني بعد شهور اتصلتُ به وذكرتُ له اسمـًا لشاعرٍ لبنانيٍ شاب أنذاك.. عرفتهُ بطريق الصدفة وكثرة المتابعات الشعرية علىٰ الشبكة العنكبوتية.. سميح لم يكن متأكداً حينَ قالَ لي ربما هو..

كانَ يحب أمل دنقل كثيراً رغم هناته العروضية في الكثير من قصائده الموزونة ويقول أن شعلته انطفأت في أوجِ توهجِّها.. وكان يعتبرُ محمود حسن اسماعيل آخر الشعراء المصريين الكبار بعد أحمد شوقي.. ويكنُّ احترامـًا خاصًا لأحمد عبد المعطي حجازي ومحمد عفيفي مطر.. ولأنه كانَ التلميذَ الوفيَّ لبدر شاكر لسيَّاب الذي رثاه بمرثيَّة أبوية عندما رحل في 1964 فإنه سارَ علىٰ نهجهِ التجديدي ولم يجدِّد إلاَّ علىٰ أساس الموروث الشعري العربي.. فلم يتخلَّ حتىٰ أواخر أيامهِ عن القصيدة العموديَّة المكتوبة بنفس حداثي جميل.. وكثيرا ما كان يفتخرُ بمديحِ الناقدة الفلسطينية العريقة سلمىٰ خضراء الجيوسي له بأنه بتجربته الشعرية المفتوحة علىٰ تحوِّلات كثيرة وتجريبٍ متنوِّع يشكِّلُ أبهىٰ صورة لتجليَّات الحداثة الشعرية العربية علىٰ الإطلاق.

أكثرُ ما كان يُميِّزُ الشاعر سميح القاسم في أمسيَّاتهِ الشعرية حضورُ روح الدعابةِ والنكتةِ والثقافة العامَّة إلىٰ جانبِ الشعر الرصين ذي المعاني الإنسانية العميقة والروحِ الوطنيَّةِ في إلقائه الهادر كأنه علىٰ قمةِ الأولمب.. كان قادراً علىٰ جذبِ انتباهِ الجمهورِ للشعرِ وإثارةِ كوامنِ فرحهِ وحزنهِ وتأمله وتتبعِّهِ لآثار الجمال بقصائد طازجة وطالعة من خميرةِ الحياةِ كالزنبقِ الحارِّ. بلغةٍ أخرىٰ كانت مهمتهُ إصلاح الخراب الذي يجتاح العالم بالشعر.. أو بناء ما ينهارُ من روح الحياةِ بالورد.

قصيدة سميح القاسم هذه لا تفارق بالي منذ رحيلهِ.. لا لحرارتها وجمالها وعفويتها وشعريتها فحسب بل لأنها أوَّل قصيدةٍ أحفظها لهُ وأنا ربما دونَ العاشرة من عمري أتلمَّسُ بعينيَّ وقلبي طريق الشِعر.. كان التلفزيون السوري يذيعها بحماسة في بداية الانتفاضة الفلسطينية الأولىٰ.

خلو الشهيد مكفنا بثيابه ....خلوه في السفح الخبير بما به
لاتدفنوه.. وفي شفاه جراحه ...تدوي وصية حبه وعذابه
هل تسمعون؟دعوه نسرا داميا .... بين الصخور يغيب عن أحبابه
خلوه تحت الشمس تحضن وجهه ... ريح مطيبة بأرض شبابه
لاتغمضوا عينيه إن أشعة ... حمراء مازالت علىٰ أهدابه

وعلىٰ الصخور الصفر رجع ندائه .... يا آبها بالموت لست بآبه
خذني الي بيتي، أُرح خدي علىٰ ... عتباته.. وأبوس مقبض بابه
خذني إلىٰ كرم أموت ملوعا ... ما لم أكحِّل ناظري بترابه

سميح القاسم كانَ صديقي..أقولها الآن بصدق.. شاعر عالمي كبير متمرِّس ومجرِّب فذ يصادق إنسانا بسيطًا مهتمًا بالشعرِ من عامة الشعب ويقاسمه القهوة وسجائر البرلمنت الفاخرة ويتحدَّث معه بعفوية تامة في أول لقاء عفوي بينهما.. كانَ معي كاتب صديق في نحو الستين من العمر يجامله سميح بعفوية ومرح: راجع شباب.. نضحك ثلاثتنا لدماثة روحه.. كنت أنشر حينذاك في جريدة نصراوية وكنتُ أحملُ العدد الأخيرَ منها وفيهِ قصيدة منشورة لي.. يطلب مني أن يقرأها وبعد ذلك يقول لي: نمر قصيدة جميلة جدا ولكن انتبه هنا في هذا البيت خلل عروضي طفيف.. الأفضل أن تحذف حرف الواو لكي تتسلسل موسيقا الشطر الشعري.. كنت أظنُّ نفسي الخليل بن أحمد حينها.. ولكنه علَّمني برفق كيف ألتقط اللحظة الموسيقية وأوظِّفها في القصيدة.. منذ اتصالي الأول به كانت هناك لغة روحية مشتركة بيننا.. اليوم قدَّمت واجب العزاء لذوي الراحل العزيز وبكيت في الطريق الىٰ الرامة الشمَّاء التي تستندُ علىٰ سفوح جبل حيدر كالعنقاء.. بكيتُ لسببين.. أولاً لأنني عانقت روح الشاعر

المرفرفة في فضاء قريته الرامة.. وثانياُ لأنني لم أستطع أن أودِّعه حيًّا وهو يذوي كمجرَّة من الحدائق والنجوم حينَ قالَ لي في آخر حديث هاتفي بيننا: نمر خلينا نشوفك.

ذكرَ لي مرَّةً أنه ذكرنا نحنُ شعراء فلسطين الشبَّان في قصيدةِ جميلة فيها سخرية لاذعة من الموت بعنوان "المستشفىٰ" يواجهُ بها مرضَه وقالَ بأن كتابتنا تكفكفُ دموعه.

سنقول يومـًا ما بافتخار أننا عشنا في زمن سميح القاسم الشعريِّ.. كما يتحدَّثُ الإسبان عن لوركا والتشيليون عن بابلو نيرودا والفرنسيون عن بودلير وملارمه سنتحدث عن شاعرنا الحبيب سميح القاسم الذي كانَ بالإضافة إلىٰ كونهِ شاعراً عظيما إنسانـًا عظيمـًا أيضـًا يمتلكُ حسًّـًا إنسانيـًا يبلغُ أقصىٰ درجات النبل والكمال والتواضع.. سميح يشرِّفُ وطنـًا ويشرِّفُ أمَّةً بأكملها.

سميح القاسم كانَ السرحة التي آوت عصافير أرواحنا وما تزال.. والغيمةَ الناصعة التي ظلَّلتنا بحبٍّ وحنوٍّ. فيما قلبه يقبضُ علىٰ شمس الشعر الفلسطيني برهافة فراشة.. لروحهِ المجد والخلود.

****

بدر شاكر السيَّاب.. أسطورةُ شاعر

قبل نصف قرنٍ وبالتحديد في الرابعِ والعشرين من ديسمبر مات الشاعر العراقي الكبير بدر شاكر السيَّاب في المشفىٰ الأميري في الكويت وشُيِّع في يومٍ ماطرٍ ليوارىٰ الثرىٰ في مقبرة الحسن البصري في مدينة الزبير بجنوب العراق في جنازةٍ كادتْ أن تخلو من المشيِّعين.. مات فقيراً معدماً إلا من جذوةِ الشعرِ الذهبية ونارهِ المقدَّسة الخالدة.

ما الذي سيبقىٰ من شاعر المطر بعد كلِّ المياه التي جرت تحت جسر الشعر العربي والانقلابات الشعرية والتطورات الدرامية التي حصلت بعده علىٰ مستوىٰ القصيدة العربية؟ مجازياً يبقىٰ كل شيء.. رائحةُ المطر الخريفي.. عطرُ آب.. اللغة الحالمة الرومانسية.. الألوان الجميلة الخلبيَّة.. برزخُ الأحلام.. لسعةُ الاغتراب الجميلة.. الواقعية الشعرية الجديدة.. كلُّ شيء تقريباً.. ولكن هذا السؤال ربما سيظلُّ مفتوحاً علىٰ مصراعيه رغم مئات الدراسات التي حسب ظني لم يحظَ بمثلها أي شاعر سواه والتي كُتبتْ عن تأثير هذا الشاعر المبدع الفذ الذي عرفَ كيفَ يغرسُ وردة القلقِ والجمال في رمادِ قلوبِ حوَّارييه الكثيرين.. في تجارب شعراء

الحداثة العرب الذينَ خرجوا من معطفهِ وشكَّل لهم بدر أباً شعرياً استثنائياً.

رحلَ بعدما طوَّف مع جلجامشَ في مغامراتهِ وشبعَ من الحياة بعدما عاشَ طويلاً وصاحبَ عوليسَ في ضياعهِ علىٰ حدٍّ تعبيره.. ليسألَ في النهايةِ : ألا يكفي هذا؟

السيَّاب بكوكبه الشعريِّ المتوهج لا يزالُ يشعُّ بقوَّة حتىٰ بعدَ نصف قرنٍ من الزمن علىٰ رحيلهِ ولا زالت شظاياه تلمعُ في ليلِ الشعرِ العربي وعلىٰ أصابعِ أتباعهِ وستلمعُ إلىٰ الأبد.

أتذكرُّ خريفَ عام 1996 حينَ بدأتُ أتعرَّف علىٰ تجربتهِ بعمق كيفَ كانَ يأخذني بحركة سحريَّةٍ ناعمة إلىٰ عوالمهِ الموسومة بالضبابِ الضوئي ولغته الرومانسية الثائرة المليئة بالصور البديعة والملتقطة بحساسية عالية لأوج اللحظة الشعورية.. حينها لم أكن قد تخلَّصتُ بعدُ من تأثير كثيرين علىٰ رأسهم أمير الشعراء أحمد شوقي وأرستقراطية صوتهِ الشعري.. في هذه السنة قرأت بدراً أكثر من مرَّة وفرحتُ بمنجزه الشعري المختلف في ديوانهِ الصادر في جزئين عن دار العودة وسرعان ما اكتشفُ أنني أنتمي إلىٰ لغةِ بدرِ الحالمة وقصائده المنفعلة وحميمية الخطاب الشعري الذاتي.. الانفلاتُ السيابي من طوقِ التفعيلة الخليلية كان يعجبني فهو بالنسبة لي شكَّلَ بوابةَ لحديقة الحداثة الشعرية ولاستيعاب شعريَّات عربية لاحقة.

كانَ بدر يكافحُ الموتَ بالقصيدة أو كمن يبعدهُ بها عن جسدهِ النحيلِ ليكتبَ حتىٰ انطفاءِ النفَس.. وأعتقد أن أجمل وصف أسطوري للسيَّاب هو ما قالهُ أنسي الحاج عنهُ بأنه (جاهلي بدوي فولكلوري خرافي انكلوسكسوني علىٰ واقعي هجاء ورثّاء مدّاح بكّاء، يسيل به الشعر سيل قريحة فارطة، ويسيل معه الشعر حتىٰ الموت).

يقول يوسف الخال في تقديمه لكتاب عيسىٰ بُلّاطـــة، بدر شاكر السياب، حياته وشعره:"... السياب، في حياته وموته، مأساة قلما عرفها الشعر في كل تاريخه. وكم كان يذكرني بأيوب.." فيما يقول بدرعن مهمة الشاعر "لو أردتُ أن أتمثّل الشاعر الحديث، لما وجدتُ أقرب الىٰ صورته من الصورة التي انطبعت في ذهني للقديس يوحنا، وقد افترست عينيه رؤياه وهو يبصر الخطايا السبع تطبق علىٰ العالم كأنها اخطبوط هائل".

لا أعرف لماذا ربط بدر في قصيدته الجميلة (ليلىٰ) الحبَّ بالأخوَّة والأمومة غير البيولوجيتين؟ هل لأنه كانَ يبحث عن تلك التي تحبه بعطف الأخت وحنان الأم التي حُرمَ منها صغيراً وهو ابنُ السادسة..؟ كانَ بطبعه الطفولي يحسُّ أن هناك عاطفةً ما تنقصُ قلوب اللواتي تعلَّقَ بهنَّ عبثـًا وقد كنَّ كثيرات.. تكشفُ لنا الدراسات الكثيرة والمهمة عن السياب وشِعرهِ كم كان يحترم العلم ويوليهِ

أهميَّةً في الكثير من قصائدهِ.. وكانَ يعني جيِّداً ما يقولُ.. وقد لمستُ ذلكَ في الكثير من أشعارهِ وأخصُّ أنشودة المطر والمومس العمياء.. تماماً كما يعني أي شاعر مغاير.. استفزازي ما يريد قولهُ حتىٰ ولو لم يفصح..

أستعيرُ عدةَ أبياتٍ من قصيدتهِ التي كتبها قبل نصف قرنٍ والتي أصمتُ أمام روعتها.. واشعرُ كأنَّ حقيقةً علميةً أخرىٰ متواريةٌ فيها..

ليلىٰ هواي الذي راح الزمان به
و كاد يفلت من كفيَّ بالداءِ
حنانها كحنان الأم دثَّرني
فأذهبَ الداء عن قلبي و أعضائي
أختي التي عرضها عرضي و عفَّتها
تاجٌ أتيهُ بهِ بين الأخلاءِ

السيَّاب قالَ كلمتهُ ومضىٰ تاركاً الكثير من عواصف النقدِ خلفهُ ولكنهُ في نظري أحد أهمِّ الشعراء الذينَ صنعوا أسطورتهم الذاتية بكل حذق ومهارة وذكاء فطري.

حالةُ النشر في فلسطين

طالما ألحت عليَّ فكرة الكتابة عن صعوبة نجاح وانتشار الكاتب الفلسطيني المقيم داخل الخط الأخضر، لا لأنها ترسم تلك الإشكالية بين النصّ والمتلقي فقط، بل لأنها من جانب آخر، تعزِّز العزلة التي تُضرب حول أصوات عديدة لها فرادتها وتميّزها وجماليتها في الكتابة الفلسطينية الجديدة. من هذه الفجوة نستطيع أن نحدّد المسافة الفاصلة بيننا وبين الفضاء الإبداعي العربي بكثير من الحسرة وخيبة الأمل، لا بل أن نقوم بمقارنات موجعة.

يسعىٰ الكاتب الفلسطيني دائمًا إلىٰ البحث عن دار نشر عربية، تكفل له انتشاراً وشهرةً خارج نطاق المطابع الضيّق والمحدود الإمكانات، الذي تنقصه الخبرة والطرق الذكية والحديثة. فهو، أي الكاتب، قد جرَّب علىٰ جلده في الماضي ما معنىٰ أن يقوم بوظيفة دار النشر أيضـًا من طباعة وتسويق وتوزيع وترويج. فلا شكّ في أن مسألة اللجوء إلىٰ دار نشر كبيرة، ذات مكانة مهمّة، وتمتلك آليةً لتوزيع الكتاب الورقي وتسويقه، لها دور فعَّال في نجاح الكثير من أصحاب التجارب الإبداعية الحقيقية، بالإضافة إلىٰ قيمة العمل ومستواه، إلا فيما ندر.

وهذا ما حدا بي إلىٰ نشر دواويني الثلاثة الأخيرة في القاهرة، وبالتحديد لدىٰ دار النسيم للنشر والتوزيع. بعدما عانيت من غياب وسائل التوزيع والتسويق. إذ في ما يخصّ دواويني المطبوعة في فلسطين، فقد قمت بتوزيعها بنفسي علىٰ مؤسسات ثقافية وعلىٰ بعض المكتبات الجامعية المحلية والعالمية، وعلىٰ أصدقائي المقربّين الذين يبادلونني مثل هذه الهدايا. ولاحظت عبر طوافي علىٰ مكتبات كثيرة، مدىٰ تنكّر أصحاب المكتبات التجارية للكتاب المحلي. كما لو أنّه سيجلب لهم سوء الطالع.

في حيفا هناك مكتبة "كل شيء" وهي دار نشر عربية، من سنوات السبعينيات، تهتمّ بالكتابات الإبداعية والثقافية. وكثيرًا ما تعاونت مع دور نشر عربية مهمّة مثل المؤسسة العربية للدراسات والنشر في بيروت وعمّان، ومنشورات ضفاف والدار العربية ناشرون في لبنان في مجال إصدار الكتب. لكننا لا نكاد نجد دار نشر أخرىٰ شبيهة بها في الجليل، في شمال فلسطين. بينما نجد الكثير من المطابع التي تتوزّع علىٰ عرض البلادِ وطولها. ومنها من يقوم بطبع عدد قليل جداً من النسخ لا يتجاوز المائة نسخة ليقينه أنه لن يفلح في بيع هذا الكتاب.

أصبح الكاتب يتولّىٰ مهمة تسويق كتابهِ، وإقامة أمسيات التوقيع علىٰ حسابه الخاص، وتوزيعه علىٰ المؤسسات الثقافية والمكتبات

العامّة والقرطاسية، وأحيانًا الجامعية وكلّ ذلك علىٰ حساب وقته وجهده.

وهذا ما جعل شاعرًا كبيرًا يطبع أيضًا كلّما نوىٰ السفر خارج بلده، عدّة نسخ لأحد دواوينه، لا تتجاوز العشرين نسخةً، ليهديها لأصدقائه الذين يودُّ لقاءهم في البلد المضيف، بعدما نفدت نسخ طبعات ديوانه الكثيرة من السوق. وروىٰ لي كاتب معروف أيضًا أنه يتعامل مع دار نشر خاصّة تطبع له عددًا محدودًا جدًا من كتبه الشعرية والنثرية، لا يتجاوز في أحسن الأحوال مئتي نسخة، بينما يقوم هو باستلامها من المطبعة وتوزيعها علىٰ أصدقائه القليلين، ونادرًا ما تحظىٰ بأمسية توقيع أو بندوة بحث أو بـ "أصبوحة" شعرية أو بالتفاتة عابرة في صحيفة أو موقع إلكتروني.

يذكّرني هذا الشيء بالذي كان يجري في فرنسا في النصف الثاني من القرن العشرين، وفي دول الاتحاد السوفييتي السابق، وبعد انهياره تحديدًا، حينما كان الكاتب أو الشاعر يطبع علىٰ نفقته عددًا محدودًا جداً من كتابه، لأسباب كثيرة منها الفاقة وكساد سوق القراءة، وانكسار روح الأمل وسطوة المادة وتوّغلها في الإنسان.

حرائقُ أدونيس

لا يزال صاحبُ (أغاني مهيار الدمشقي) يثير الجدل الثقافي والفكري أينما حلَّ.. سؤاء في مهرجانات وندوات فكرية أو معارض دولية للكتاب.. فمنذ مطلع ستينيات القرن الماضي وهو بصورة أو بأخرىٰ يدير دفَّة الحداثة الشعريَّة ويتشظَّىٰ صوته الصافي في عشراء الأصوات النادرة التي حلَّقت بالشعر العربي الحديث في فضاءات أرحب وأنقىٰ وأجمل.

اذا استثنينا محاولات سلمىٰ الخضراء الجيوسي الأولىٰ في تناول موضوع الحداثة فأدونيس أحدُ أهم الشعراء العرب الذينَ رسموا خارطة الشعر العربي الحديث وحرسوا شمسهُ من الانحدار. والكثير من الدراسات فيما يتعلَّق بالتنظير للشعر وللحداثة العربية استندت بشكلٍ كُلِّي وواضح علىٰ كتاباتهِ النقدية وطروحاته الفكرية.. فهو رغم ما يؤخذ عليه من أفكار ومواقف تكاد أن تكون مغالية في بعض الأحيان بنظرتهِ للموروث الفكري العربي المعاصر أو للمنجز العربي الكلاسيكي.. مدرسةٌ شعريةٌ حداثيةٌ مهمَّةٌ. نرىٰ أن أدونيس مولعٌ بالحداثة الغربية وبأفكار سوزان برنار التي تأثَّرَ كثيراً بمفاهيمها حولَ قصيدة النثر ونظريَّة الحداثة الشعرية في الغرب

عموماً وفي فرنسا تحديداً. بالإضافة إلىٰ عشقهِ اللا محدود لنثر العرب الصوفي المتمثِّل بتجربة النفرِّي والحلاج وابن عربي.

شخصياً أعتبرُ الشاعر أدونيس شخصيةً فكريةً إشكاليةً ومختلفةً فهو من الشعراء العرب الذينَ كانَ لهم فضل تغيير مجرىٰ نهر الشعر العربي بعد ريادة بدر شاكر السياب وزملائهِ من الشعراء العرب المعاصرين مثل عبد الوهاب البياتي ونازك الملائكة وصلاح عبد الصبور وأحمد عبد المعطي حجازي ونزار قباني..

حاولَ أونيس برفقة اللبناني يوسف الخال أن يسيرَ باتجاه مخالف لحداثة السياب رغمَ تأثرهِ بتجربة بدر في بداياتهِ بعض الشيء من حيث تنويع البحور الشعرية وطرق موضوعات جديدة في القصيدة ولكنه ذهب أبعدَ مما ذهبَ بدر حينَ حاولَ أن يضيءَ عوالمَ مظلمة ويكتشف مناطق جديدة تستند علىٰ حسٍّ فلسفيٍ وملامسةٍ للعابر واليومي أكثر.. كل هذا الىٰ جانب إغراقٍ في الأسطورة والموروث الثقافي العربي.. واستعمالٍ لإشارات ورموز وأقنعة دينية وتاريخية عربية وعالمية.

نستطيع أن نفهم طروحات أدونيس عندما يقول في لقائه الأخير علىٰ هامش المعرض الدولي للكتاب في القاهرة أن الحداثة العربية لا زالت غائبة وهي ليست أمامنا بل وراءنا وأن الأطروحات الفكرية في القرن الثاني الهجري مثلاً أهمُّ من أطروحاتنا في زمننا الراهن

وأنضج. وقالَ ما معناه أن العرب لم يقدموا فكرا جديداً ولا أدبًا يضاهي آداب الشعوب الأخرىٰ طوالَ ما يقارب الألف عام أي بعد القرن الثالث الهجري. وأنه لم يظهر شاعرٌ عربي حاولَ أن يصف العلاقة بينه وبين المدينة بشفافية وحميميَّة وأحدث قطيعةً مع ما قبله علىٰ نحو ما فعلَ الشاعر العباسي أبو نواس.. ثمَّ يأتي علىٰ ذكر الشاعر أبو تمام حبيب بن أوس الطائي فيقول أنه لم يظهر في الشعر العربي شاعرٌ غوَّاصٌ علىٰ المعاني الجديدة أعادَ العلاقة مع شعريَّة الأشياء وصاحب كشوفات وفتوحات شعرية مثلهُ وهذه في نظري من مبالغات أدونيس بالرغم من احترامي لعبقرية أبو تمام الشعرية.. ويعرِّج أخيراً علىٰ المعري ليقول أنه لم ينبغ شاعر عربي مثله حتىٰ يومنا ليفلسف الشعر ويعالج قضايا وجودية دينية وفلسفية ومسائل غيبية كبرىٰ ويشكِّك في مسلَّمات ثابتة.. بعد ذلك ينفي أن يكون للعرب تاريخا مدوَّنًا كما للشعوب الأخرىٰ وأن ابن خلدون كانَ خاتمةَ المؤرخين العرب الكبار.. ولكن لا نستطيع أن نتخيَّله ينزلقُ في النهاية ليصرِّح بأن ما نراه من إرهاب جديدٍ اليوم ليسَ إلا تنويعًا علىٰ إرهابٍ قديم وأن الاسلام يجبُّ ما بعدَه ضمنًا كما يجبُّ ما قبلَهُ وأن المهاجرين الأوائل مارسوا سطوةً ما علىٰ الأنصار او البلاد التي فتحوها.. وقالَ أنه لا يوجد في الإسلام ما ينص علىٰ أنه دولةٌ بل رسالةٌ فقط.. ربما يوافقه البعض عندما يقول أنه خلال التاريخ

الإسلامي كلِّه لم يهدأ غبارُ حروب العرب ضدّ بعضهم ولكن بالنسبة لكلِّ التأويلات التي تتطرق بجرأة واضحة للإسلام وللنص القرآني الذي يفسِّرهُ أدونيس كيفَ شاءَ هواه أريدُ هنا أن أسأل من أين يأتي بهذا الكلام وهل هناك حقائق علمية واضحة تثبت كلامه الأخير؟ ثمَّ ألا يعرف أن كلامه هذا مرجعية مقدَّسة عند البعض..؟

حاولتُ أن أنشر التساؤل الأخير في صفحتي علىٰ فيسبوك فاحتدمَ جدل ضارٍ بينَ فريقين الأول يؤيِّد أدونيس ويعتبره رمزاً عربيـًا فكريا كبيراً والثاني يعتبرهُ مجرَّد داعٍ إلىٰ التخلي عن أمجاد وأحلام عربية بخطابٍ يدين بشكلٍ أو بآخر الدين.. لم أستطع في غضون دقائق معدودة أن أوفِّف بين الفريقين وعندما رأيت أن النقاش سينحدر إلىٰ دركٍ من الشتائم والسبابِ والعبثية واللا موضوعية قمتُ بحذفِ المنشور.. لأنني أدركت هذه الحساسية في الموضوع في مجتمع يفتقر إلىٰ قبول الرأي المعاكس برحابة صدر.

في النهاية مهما نختلف حول أدونيس وقضاياه الفكرية وآرائه فإننا لا نستطيع أن ننكرَ فضله في حمل راية التجديد بعد السياب في ظلِّ تراجع رفاقهِ أو انشغالهم بالمنافي ومسائلَ أخرىٰ.. ولن نغفل خطىٰ بروميثيوس الشعر الحديث التي كلما مرَّت بغابةٍ آمنةٍ تتركُ الكثير من الحرائق الفاتنة في فضائها المعرفي أو دحرجت بعض الصخور العظيمة في بحيرةِ الشعر العربي الراكدة.

****

عبد اللّه رضوان.. الشغفُ الأبيضُ بالقصيدة

الكتابةُ عن شاعرٍ راحلٍ تستدعي في الكثير من الأحيان الإمساك بلحظة بيضاء تختزلُ ذاكرةً شعريَّةً ما.. وإذ يصعب علينا الإلمام بجوانب هذه الحياة المنفلتة انفلاتَ الماءِ من بين أصابعنا بسرعة الضوء الهارب من مجرَّة نهرع بكل ما لدينا من نوسطالجيا وحنين ومطر دافئ إلىٰ إعادة قراءةٍ ولو علىٰ عجلٍ لموروث الراحل.. هذا ما جرىٰ معي حين أتاني نبأ رحيل الشاعر والناقد الأردني الكبير عبد الله رضوان الذي قرأت مؤخراً عدَّةَ قصائدَ له متناثرةً في الشبكة العنكبوتية فوجدتُ في تجربة صاحب (كتاب المراثي) نفساً شعرياً أصيلاً ولغة وثَّابةً إلىٰ النور والحرية.ولمستُ أنه كان بصورة أو بأخرىٰ يحاولُ في كلِّ مرحلة شعريَّة جديدةٍ أن ينقلبَ علىٰ ذاتهِ الشعرية القديمة فهو ينتمي شعرياً إلىٰ جيل السبعينات. الذي حافظ علىٰ رونق قصيدةٍ ذات جرس عربيٍّ محضٍ يشي بكثير من الفرح الغامض والجمال السريِّ من غير تفلتٍ محموم من نظامِ التفعيلة علىٰ حساب ذهنيةٍ نثريةٍ أو أسلوب تقريري مباشر.. ولقد سار من حيث الصياغة المتينة والتركيز علىٰ الصورة الشعرية وتواتر النفس الملحمي في ضوء الروَّاد في تطوير قصيدةِ التفعيلة التي أظنُّ أن الشعر الأردني الحديث رفدها بأجمل الأصوات وأصفاها وأغناها وما زال

يرفدها. هناك هواءٌ جبليٌّ نقيٌّ في غاية النقاء طالما تنفسناهُ في هذهِ القصيدة التي حلَّقتْ بصورة جليَّة في سماء مليئة بغيوم وردية وأقحوان صباحيٍّ وحبق لا يذبل وترجيع جبليٍّ لأغاني الرعاة.

ربما الحديث عن عبد الله رضوان الناثر والناقد الموضوعي والباحث والأديب يتطلَّبُ مقاماً وحيِّزاً آخرين نتركهما لذوي التخصُّص. فلن نستطيع في هذه الإطلالة العجلىٰ علىٰ عالم الشاعر أن نحيط بكلِّ شيء. وأن نسبر غور تجربة ابداعية مترامية تركت أكثر من عشرين ديواناً شعرياً وأكثر من عشرةَ كتب نقدية عالجت الكثير من تجارب عربية لافتة ومهمَّة بمهارةٍ وذوقٍ أدبي نادرين.

ما يلفت نظري في تجربة هذا الشاعر المتأنق هو جمالُ انتقاء كلماته بحسٍّ بارع وموسيقا تراكيبه الشعرية المتسلسلة في الأذن كأنها غناءُ نهرٍ أو رنينُ أجراسٍ في حديقةٍ أو جزيرةٍ استوائيةٍ بعيدةٍ.. لنفهم الحزنَ المتغلغلَ في نصه علينا أن ننصت بعمقٍ وجوديٍّ إلىٰ هذا المقطع الذي يقولُ فيه:

أخافُ من الخوف يأتي ..
يحدِّثني .. عن رجال مضوا ..
لن يعودوا ..
لأن مُسوخ القبيله..
أقاموا لهم في الطريق الحرائق.

أخاف من الخوف يأتي قويـًا
يخاطبني باسم أقصىٰ العُتاة
ليمتص نسغ الحياةِ
ونسغَ الشجاعة والعنفوان ..
يمارس قتل الأحاسيسِ
يمضي..
ليتركني واحةً من دخان.

لم يُتحْ لي الاطِّلاعُ علىٰ بعضِ منجز الشاعر الأردني المبدع عبد الله رضوان إلا في الشهر الأخير (بعد محنة مرضه تحديداً) بالرغم من أنه صديقي فسيبوكيـًا ما يقارب العام ونصف العام ولكن لم يحدث أننا تحدَّثنا مرَّةً فيما يخصُّ تجربتهُ الشعرية والنقدية وذلك لقصور مني.. وهو كشاعر مدهشٍ وكناقدٍ ذي مستوىٰ رفيع ورؤية ثاقبة لا يحتاج لأي شهادة من أحد وبلا شك أنه أحدُ هؤلاء الأفذاذ الذين نذروا حياتهم كلها للكتابة وللشعر وللثقافة بكل ما في قلوبهم من نزوع للمحبة وللجمال وللحرية.. نظرة خاطفة علىٰ آثاره الكثيرة تدلُّ علىٰ ما يشبه حمىٰ الكتابة الجميلة التي رافقته طيلة عمره.. وبما أنني أحزن لرحيل أي شاعر حقيقي أحسُّ الآن كأن شيئـًا ضروريا نقصَ من هذا الكون وبأن صرخة خفيَّة ترفرف في القلب.. وداعا عبد الله رضوان. الشاعر والناقد والصديق والانسان.

****

كأنهُ مخضَّبٌ بالنوارس

(عن الكاتب الكولومبي الساحر جابرييل غارسيا ماركيز)

لا أحتاجُ إلىٰ أكثر من ربيعٍ عاشقٍ هادئ والىٰ أكثر من روايةٍ جميلةٍ لماركيز.. منذ سنوات وأنا أردِّدُ هذا الكلامَ الخفيَّ بيني وبينَ نفسي.. أعترف أنني لم أقرأ كلَّ مؤلفات الروائي الكولومبي المدهش غابرييل غارسيا ماركيز.. ولكنني شغفتُ بعالمهِ ولغتهِ أيَّما شغف.. قرأت له خمسة أو ستة روايات من معجزهِ الفذ.. منها ملحمته مئة عام من العزلة وذاكرة غانياتي الحزينات وقصة موت معلن.. لكني لا أستطيع التعبير عن الجماليات السامية واللذَّات الروحية المتأتية عبر قراءتهِ.. الذي قرأ ماركيز بقلبهِ الحيِّ المتفتِّح كزهرةِ صبَّار في العاصفة لا يقوىٰ علىٰ نسيانهِ أبدا..هو أحدُ السحرة الرائعين القادرين علىٰ اخراجك من دوامةِ حياتكَ بخفَّةِ غيمةٍ وادخالكَ عوالمَ خيالية سحرية وخالية أيضا من الهمِّ والقلقِ الحقيقين.. أعترف بكل حب أن من امتصَّ بوعيهِ رذاذ ماركيز الضوئيَّ لا يقوىٰ علىٰ الحلمِ الآن.. ليسَ أمامه سوىٰ أن يصمت.. أو يتأمَّل الفراشات الصفراء التىٰ فاضت من سماءِ ماكوندو الذهبيةِ..

ماذا سأفعلُ من دونِ ماركيز؟ ماذا سأقرأ؟ ماذا سأقول؟ أما كانَ في العمرِ متسَّعٌ كي أتمَّ قراءته؟ أو أعيد قراءة مئة عام من العزلةِ من جديد في أوج هذا الربيع..؟ أرَّختُ لحياتي مرَّة بقراءةِ كتبِهِ.. السنة التي قرأتهُ فيها ليست كبقيَّة السنوات.. كانَ لها طعم خاص.. ملمس خاص.. عبير خاص.. دفق يشبهُ وسوسة الندىٰ الصيفي في زهرةِ عبَّادِ الشمس.

في الاسبانية هناك إثنان.. سرفانتس وماركيز.. هما بالنسبة لشعبيهما أكثر من كاتبين. خالطني مرَّة شعورٌ أن ماركيز خلطَ عوالمَ ألف ليلة وليلة وأساطيرَ أميركا اللاتينية بمهارة أدبية خارقة.. أو حاولَ بحذقٍ ماهرٍ أيضاً إتمامَ ما توَّقف عندهُ سرفانتس من سرد غرائبي يحلِّقُ بجناحي الواقعيَّة السحرية.

قرائتي لماركيز فيها نوعٌ خاصٌ من الرهبنةِ والانقطاع شبهُ التامِ عن المشاغل المحيطة.. قليلٌ من الكتَّاب من يفعلُ فعلهُ في ذهنيَّةِ قارئهِ المتلقِّي.. أو يضربُ سوراً من الحميميةِ بينهُ وبينَ عالمهِ المحيط.. لا أعرفُ.. هذا الكاتب خيمياؤهُ غريبةٌ.. تقولُ الفتاةُ البرازيليَّةُ لزميلها العربيِّ في محطَّةِ القطارِ.. كيفَ لو قرأتهُ بالإسبانية؟! لا تتقصَّدي تعذيبي.. يجيبها.. هل لو قرأتهُ بالإسبانيةِ كنتُ سأحصلُ علىٰ أكثر من هذا السحرِ في ترجمةِ صالح علماني؟!

لا أستطيعُ نسيانهُ.. فمنذُ أن حملني في ذاكرةِ غانياتهِ الحزينات وقبلها في مئةِ عامٍ من العزلةِ إلىٰ أعلىٰ قمةٍ للكثافة التعبيرية والإيحائيةِ.. منذ أنْ أبحرَ بي في بحر بلا ماء وأنا لا أستطيعُ الهبوطَ ثانيةً من الأولمب التصويري الخارق، لا أستطيعُ حتىٰ المحاولة أو التفكير في النزول الصعب والمرهق.

أنجزَ ماركيز ملحمته العظيمة مئة عام من العزلة في ثلاثةِ شهور بعدما اختزن بكلِّ عوالمها وتجلياتها وأحداثها وأظنها كانت مدة كافية بعدما عاش التجربة الروحية لروايتهِ الخالدة وتمثَّل شخوصها.. وأظنه كان يكتبُ بلا انقطاع واصلا الليل بالنهارِ ذلكَ النص الحقيقي العميق الشبيه بالوثيقة السرِّية.. النص المشتعل بأوار الشوقِ الىٰ البساطة والحريَّة وصراخِ كلمة لا في وجه الظلم والعبودية.

كلُّ نصٍّ عظيم هو الذي يأتي من حنايا الطفولةِ.. أو شغاف الحلم.. أو أقصىٰ الحنينِ إلىٰ الغيابِ الضروري لاستشعار الخسران.. كأنهُ مخضَّبٌ بزرقةِ النوارسِ البعيدة تماما كنص مئة عام من العزلة.. وماركيز الذي سحرَ بلغتهِ هو ذلك الطفل الأبدي المبقَّع بنور الحبر السماوي.. والذي يعيشُ في طفولتهِ مخضبًّا بالأوهام والأحلامِ والعبثِ الضعيفِ الهشِّ.. وبوجعِ مستقبلهِ الإنساني.

ماريو فارغاس يوسا وفردوسهُ الإيروسيُّ المفقود

يحتلُّ الروائيُ البيروفي المبدعُ والمثيرُ للجدلِ الحائزُ علىٰ نوبل الآداب لعام 2010 ماريو فارغاس يوسا مكانةً عاليةً ومهمَّةً علىٰ خريطة الأدبِ العالمي الحديثِ.. ويحتفظُ بلمعانٍ الأديبِ النجمِ المشاكسِ الاستفزازي والمسائل أبداً علىٰ مشهدِ الروايةِ في أميركا اللاتينيَّة خصوصـاً وفي العالمِ عمومـاً.

فهو في نظري الذي قد أختلفُ مع غيري فيهِ من أهمِّ خمسةِ روائيين عالميين أحياء وينضمُ إليهِ في هذهِ القائمة جابرييل غارسيا ماركيز الكولومبي وأورهان باموك التركي. وهو أحد أروع الكاتبين بالإسبانيةِ ذاتِ الجرسِ الجميل والإيقاعِ المتواتر علىٰ الإطلاق.. وبما أنَّ الشاعرَ التشيلي بابلو نيرودا أقربُ الشعراءِ العالميين إلىٰ قلبي فإنَّ ماريو فارغاس يوسا أقربُ روائي عالمي إلىٰ نفسي الباحثةِ في رواياتهِ عن استيهاماتِ الحبِّ في مدلولهِ الجسديِّ.. وعن الجمالِ الصارخِ في كلِّ تهويماتهِ وايحاءاتهِ ورموزهِ ويقاسمهُ أحيانـاً هذهِ المنزلة الساحرُ بطريقةِ سردهِ التخييلي الكاتب الكولومبي غارسيا ماركيز.

وبما أنَّ يوسا أستاذٌ في الأدبِ الإيروتيكي الذي أخذَ بالرواجِ في الفترةِ الأخيرةِ فقد اعتبرتهُ الأبَ الروحيَّ والمرشد للكثير من الأدباء والروائيينَ العرب الذينَ ركبوا هذهِ الموجة لحاجة في نفسِ يعقوب ومنهم المغربية فاطمة المرنيسي الباحثة في تاريخِ الجنسِ عند العربِ وصاحبة كتب شهيرة في هذا المجال.. والسورية سلوىٰ النعيمي صاحبة " برهان العسل" والسوداني رؤوف مسعد صاحبُ "بيضة النعامة" والمغربي محمد شكري صاحب رواية "الخبز الحافي" الجريئة والصادمة الضاجَّة بالألمِ البشريِّ والبؤسِ الإنساني.

يتبنَّىٰ يوسا في كتابتهِ فلسفةً تحتفي بالجسدِ الأنثويِّ وتقدَّسهُ بصفتهِ أحدَ أهمِّ الرموز التي تستندُ عليها فكرةُ السعادة الأبديَّة وبصفتهِ ملاذاً للإنسانِ المعاصرِ من أتعابِ المادَّةِ وهموم الحياة.. فماريو يوسا كاتبٌ ماجنٌ أبيقوريٌّ حتىٰ العظمِ وهذا ما جعلهُ ينقلبُ بعدَ ذلكَ علىٰ أستاذهِ الأديبِ الفرنسيِّ جان بول سارتر.. ونراهُ في بعضِ كتبهِ يذهبُ بعيداً في فلسفتهِ تلك وتعريتهِ لمكنوناتِ الجسدِ كما حصلَ في كتابيهِ الحافلين بفن الإيروسيَّةِ "مديحُ الخالة" و"دفاترُ دون ريغو بيرتو" حتىٰ يغوصَ إلىٰ قرارٍ لا يفصل بينهُ وبين الأدبِ البورنوغرافي الإباحي سوىٰ خيطٍ رفيع.

يوسا يختلفُ في أفكارهِ الماجنةِ عن الكثيرِ من الأدباءِ الذينَ تناولوا الإيروتيكيَّة في كتاباتهم. فهو يختلف عن هنري ميلر الكاتب

الأمريكي مثلاً فهنري ميلر رغم علوِّ مرتبتهِ في هذا المجال إلاَّ أنَّهُ يبقىٰ سطحيًّا وعاديـًا في أغلبِ رواياتهِ الإيروتيكيَّة ولا يحمِّلُ السردَ فلسفةً راقيةً أو يستندُ إلىٰ تناصٍ ثقافي تاريخي كما يحصلُ مع يوسا في مديحِ الخالة التي نشرها عام 1988 في غمرةِ عملهِ السياسي وسعيهِ لانتخاباتِ الرئاسة في بلدهِ البيرو بلد الحالمين وعاشقي الكواكب والجبال وشخصٍ يعدُّ المواطنين بالقمر.

هنري ميلر يضربُ علىٰ وترِ الجسدِ وترِ الغريزةِ والشهوةِ الجسديَّةِ بينما يضربُ يوسا علىٰ وتَريْ الروحِ والجسدِ معـًا ولهذا السببِ يغوصُ إلىٰ أعماقنا اللا متناهيَّة ويقنعنا بما يقول.. لا سيِّما أنَّ لغتهُ ساحرة ولا ينقطعُ خيطُ التشويقِ في كلامهِ بالإضافةِ إلىٰ ثقافةٍ شاملةٍ مذهلةٍ تقتنصُ ما طابَ لها من التراثِ الجماليِّ الإنساني

فهو مثقَّف موسوعيٌّ يجمعُ إلىٰ الثقافاتِ القديمة ثقافةً حديثةً طالما حيَّرتني.. لهذا السبب نجدُ في رواياتهِ خلفيَّات لموروثٍ هندي أو صيني أو شرق أوسطي ونلمحُ أثر ألف ليلة وليلة واضحـًا في الكثير من شطحاتهِ الجنسيَّة .

يوسا كاتب ذكيٌّ بامتياز وواصفٌ ماهرٌ ذو ابتكارٍ عجيبٍ ومثيرٍ صاحبُ طريقةٍ ومدرسةٍ في علمِ الجسدِ.. وهو أيضـًا ساردٌ قلَّ نظيرهُ ينتقلُ من صورةٍ إلىٰ أخرىٰ ومن مشهدٍ إلىٰ آخرٍ ببراعةٍ أسلوبيَّةٍ نادرةٍ وخفيفةٍ علىٰ القارئ.. وأعترفُ أنني أقرأهُ بتروٍّ بالغٍ لكيْ أصلَ إلىٰ ما

تريدُ عبارتهُ المجنَّحةُ والشفَّافةُ أن تحملهُ لي من رعشاتِ كهرومغناطيسيَّة باذخةِ الطاقة.

وكم اعترفتُ لنفسي بأنَّ الكتابةَ عن عبقريٍّ بحجمِ يوسا صعبةٌ للغايةِ لتفردِّهِ في عالمِ الروايةِ وتنوُّعِ خيالاتهِ وأساليبهِ وأفكارهِ.. حتىٰ قرأتُ مقدِّمةً ضافيةً كتبها الشاعرُ والمثقَّفُ اللبنانيُّ الفذُّ اسكندر حبش لروايتهِ " دفاتر دون ريغو بيرتو" التي صدرتْ في بيروت قبلَ بضعةِ أعوام بترجمة السوري صالح علماني.. فوجدتُ فيها ارتواءً سخيًّا شافيـًا وعزاءً ما عن عجزي ووجدتُ أيضـًا ما كنتُ أبحثُ عنهُ من ضالةٍ مفقودة. علىٰ ضوءِ تحليلٍ نقديٍّ يحسنهُ اسكندر حبش.

لا أعتقدُ أنَّ شغفَ يوسا بسارتر الأبِّ الروحيِّ للوجوديَّة قد أضرَّ بهِ كثيراً فسرعانَ ما عرفَ الشابُ طريقةَ وكوَّنَ ذاته الأدبيَّة متفلِّتـًا من سطوةِ سارتر وفلسفتهِ الداعيةِ إلىٰ الإلتزامِ بالقضايا الكبرىٰ سياسيًّا واجتماعيًّا . فقامَ بإنشاءِ مدرسةً أدبيَّةً تسعىٰ إلىٰ تغييرِ الواقعِ عن طريقِ المتخيَّل والحلم.

عبرَ قراءةِ يوسا نجدُ تشابهـًا ملفتـًا بينَهُ وبينَ أدباءٍ باروكيينَ أو شهوانيين آخرين مثل الكاتب الفرنسي أناتول فرانس أو الروائي البريطاني غراهام غرين وغيرهم. يرجعُ هذا التشابهُ في نظري إلىٰ إعجابِ يوسا بهؤلاءِ الكتَّابِ وبهذا النوعِ من الكتابةِ الإيروسيَّة التي

أطلقَ عليها بعضُ النقَّاد مصطلح "الكتابة الوقحة" ولكننا الآن نطلقُ عليها مصطلح الكتابة "الاستفزازيَّة" أو الكتابة الجريئة المتحرِّرة.

طالما ردَّدَ ماريو يوسا في لقاءاتهِ وأبحاثهِ الأدبيَّة عبارة " الحقيقة عبر الكذب" ليعبِّر عن مناخِ رواياتهِ التي تأتي من مكانٍ ما هناك بعيدٍ ومتخيَّلٍ .. أشبهَ بفردوسٍ مفقود.. ولا أجدُ أصدقَ من هذهِ العبارةِ للتدليلِ علىٰ رواياتهِ.

****

أمل دنقل.. يا فرَحَ الشِعر المختلَسْ

في ذكرىٰ مرورِ ثمانيةَ عشر عاماً علىٰ رحيلِ الشاعر المصريِّ الكبير والمبدع بامتياز أمل دنقل نقفُ دقيقة صمتٍ وحزنٍ لشاعرٍ ملأَ الدنيا وشغلَ الناسَ وكانَ واجهةً رئيسيَّةً يعلِّقُ عليها الشعراءُ العربُ عذاباتهم الثوريَّةَ وهمومَ أرواحهم العالية وحزنهم النبيلَ كما لم يعلِّقوها علىٰ شاعرٍ عظيمٍ كالمتنبي..

نعيشُ في هذهِ اللحظةِ مأساة صاحبِ " مقتل القمر " و" العهد الآتي " ونستذكرُ شاعراً فذًّا ربمَّا لم يطاولهُ في زمانهِ سوىٰ السيَّاب الكبير الذي قضىٰ نحبهُ ونحبَ حبِّهِ قبلهُ بنحوِ تسعةَ عشرَ عاماً.

نحسُّ دفقَ الحبِّ هذا ونرىٰ إلىٰ اللمعانِ الورديِّ الذي تركهُ كبكاءِ الذهبِ خلفهُ أمل دنقل الشاعرُ المصريُّ الجارحُ والساخطُ والمترفِّعُ أبداً.. ذلكَ الطائرُ الغريبُ الملوَّنُ السحريُّ الخارجُ عن سربهِ... نرىٰ إلىٰ التصاقِ قلوبنا بلغتهِ وإلىٰ الحميميَّةِ التي تركها في أذهاننا الغضَّةِ كما يتركُ المسافرُ معطفهُ علىٰ شمَّاعةِ البيتِ.. الحميميَّةِ التي جسَّدها صوتُ الشاعرِ الغائبِ في ثيابِ الحضورِ فندهشُ من صدىٰ خلودهِ الذي لا يزالُ يحرِّكُ أطيافَ الذاكرة ويملأُ الوجدان.

قليلونَ همُ الشعراءُ العربُ الراحلونَ الذينَ يتركونَ بصماتهم بقوَّة وصلابةٍ علىٰ المشهدِ الشعريِّ ونستشعرُ غيابهم الاضطراريَّ بكلِّ هذا الشوقِ وهذهِ الخسارةِ التي تغزلُ أيامنا بمكر.

قصَّتي مع أمل بدأت في حدودِ عام ألفين في عهدِ الغضارةِ الشعريَّةِ قرأتهُ في ربيعٍ ممسوحٍ بأقواسِ قزحٍ وبشمسٍ نيسانيَّةٍ صديقة.. وكم أعجبتني إنسانيتهُ المتفرِّدةُ التي أثرَّت بي كثيراً حينذاك وشدَّتني صعلكتهُ الفريدةُ المنتميةُ إلىٰ رأسِ الشعراءِ الصعاليكِ عروة بن الورد.. كم أعجبني أمل حينها بانسيابيَّتِهِ ورقتِّهِ وصفاءِ عبارتهِ المنحوتةِ من صخرِ اللغةِ ومائها ولا أزالُ أتذكَّرُ ذلكَ المقطعَ من قصيدتهِ " فقرات من كتابِ الموتِ " الذي يقول فيه:

كلَّ صَباح..
أفتحُ الصنبورَ في إرهاقْ
مُغتسِلاً في مائِه الرقْراقْ
فيسقُطُ الماءُ علىٰ يدي.. دَمَا!
وعِندما..
أجلسُ للطّعام.. مُرغما:
أبصرُ في دوائِر الأطباقْ
جماجِمـًا..
جماجِمـًا..

مفغورةَ الأفواهِ والأَحداقْ!!

شغفتُ بأمل دنقل منذ نعومةِ أظفارِ قصائدي وقرأتهُ كلَّهُ ولكني لم أجد لهُ سيرةً حياتيَّةً لهُ تكشفُ لي خفايا هذا الكائن وأسرارهُ لأفهمَ شعريَّتهُ وخلفيَّتها وأغوصَ في النصِ الذي كنتُ أعتقدُ في البدايةِ أنَّ كاتبهُ أرستقراطيٌّ مصريٌّ مسكونٌ بالحزن والكبرياء.. خصوصاً عندما يستندُ في شعرهِ علىٰ التناصِ التاريخي بحكمةِ قدِّيس ويوغلُ في تعريةِ الواقعِ والمجتمع.. كلَّما توغَّلتُ في قراءتهِ تحرَّرتُ من فكرتي تلك.

بعدَ ذلكَ قرأت سفرَ الجنوبي لزوجتهِ الوفيَّةِ والكاتبة الرائعة عبلة الرويني وتوَّفرتُ علىٰ أحداث ومجريات وخيوطِ حياتهِ الغامضةِ الممزَّقة اللاذعةِ كقصيدتهِ تماماً والمدقعةِ في الثورةِ والهمِّ والبؤسِ والحرمان والفاقة.

كتبتُ لهُ قصيدة حبٍّ من بابِ التعاطفِ والمعانقةِ الروحيَّة أسميتها " البكاء بينَ يدَيْ أمل دنقل " تناصاً مع قصيدتهِ الخالدة " البكاءُ بينَ يدَيْ زرقاءِ اليمامة " وكانت تعبِّرُ عن حزني الصارخِ وتنبضُ بالكثيرِ من الوفاءِ لهُ يقولُ مطلعها :

عصفورةً محروقةَ الجناحْ
تحلمُ في الصباحْ

أن تحملَ البحارَ في منقارها.....
أتيتني يا سيِّدي في الحلمْ
أتيتني البارحةَ.. الليلةَ.. لا أدري.. وكان النومْ
جنيّةً سوداءْ
تبكي بعينيَّ بدمع القمحْ
حتىٰ يجيءَ الصبحْ.....
وتزهرُ الدموعُ في عينيكْ

ورحتُ في هذهِ الصرخةِ أبثُّه الحبَّ والإعجابَ ولكن بشيءٍ من المرارةِ والأسىٰ لحالهِ وكأني أرثي فيهِ العبقريَّة الغضَّة التي ما برحت حتىٰ غالتها أظفارُ المرضِ والموتِ والفجيعة..

وعندها خجلتُ من عضّةِ زنبقٍ علىٰ كفيّكْ
وعندها بكَيتْ
لأنَّ أفعىٰ الداءِ في جسمكَ لا تزالْ
راقدةً في مائه السلسالِ
والطيرَ السدوميَّ الذي
أفلتَ من صوتكَ قد حطَّ علىٰ الشبّاكْ
يُنذرنا.... يُنذرُ قومَ لوطَ بالهلاكْ
لأنَّ في السماءِ ألفَ عنكبوتٍ أسودَ الدماءْ

لأنَّ هيرودوسَ لا يزالُ مخموراً... وسالومي تغنّي.....
فيعومُ القصرُ في شهوتها الحمراءْ
ورأسُ يوحنّا علىٰ صينيّة الغناءْ.

لا يمكنُ أن تقرأ أمل دنقلَ من غيرِ أن تسكنكَ لحظةَ التجلِّياتِ الحقيقيَّة لانكسارِ هذا الكائنِ العربي وشموخهِ في آن معـًا .. فأمل رغمَ تسييسِ بعضِ أشعارهِ الضاربة في الجمالِ أوَّلاً وأخيراً ورغمَ الصرخةِ المدوِّيةِ التي أطلقها للرئيس السادات في ديوانهِ الجميل والرافض " أقوال جديدة عن حرب البسوس " وفي صدرِ قصيدتهِ الشهيرة والمطوَّلة العامرة التي حملت نفس عنوان الديوان والتي يفتتحها بعبارة " لا تصالح " تلكَ العبارة الخالدة خلود الأمل في الخلاصِ والتي أصبحت مثلاً للرفضِ الشعري حتىٰ أطلقوا علىٰ أمل لقبَ أميرِ شعراءِ الرفضِ .. رغم كلِّ هذا لم يكن أمل دنقل في قرارةِ نفسهِ أيدلوجيًّا محنَّكـًا "بالمعنىٰ الحرفي" أو مسيَّسـًا عاديـًا مقتنصَ فرصٍ وشعاراتٍ سياسيَّةٍ مجانيَّةٍ.. كانَ شاعراً وشاعراً فقط قرأ ووعىٰ الكثير من الفكر السياسي والأيدلوجي علىٰ المستويين العربي والعالمي وقادهُ التمزَّق الروحي إلىٰ نبضِ الشارعِ السياسيِّ وقلبِ الأزمةِ العربيَّةِ العاصفةِ لكي يقولَ ما قالَ ولو بشكلٍ فطريٍّ سليقيٍّ بحت وجماليٍّ خالص.. وأغرتهُ الانهزاميَّة العربيَّة التي كانت

سائدة عقبَ هزيمةِ حزيرانَ عامِ 1967 وعقبَ لجوءِ مصر إلىٰ مفاوضاتِ السلامِ لاستردادِ سيناءَ بعدَ الحربِ التي لم تثمر ولم تغنِ شيئًا عام 1973بأن ينطقَ رمزيًّا باسمِ المثقَّفِ العربيِّ المهمَّش والمقموع والمنكَّلِ بهِ في غياهبِ سجونِ الأنظمةِ الديكتاتوريَّة.

كانَ أمل صاحبَ موهبةٍ فريدةٍ وخصبةٍ لا تشوبها شائبة وهو في نظري أكبر شاعر مصري بعد أحمد شوقي. وهو رغمَ عثراتهِ العروضيَّة هنا وهناك شاعرٌ لهُ وزنهُ وقيمتهُ الاستثنائية وكم نظرتُ إليهِ بقداسةٍ علىٰ حلقات مسجَّلة علىٰ موقع اليوتيوب صُوِّرت قبلَ رحيلهِ بنحو عامٍ علىٰ أغلبِ الظنِّ. ولا أعتقدُ أنَّ شاعراً نالَ أهميَّةً مثلهُ في النصفِ الثاني من القرنِ المنصرمِ من روَّادِ قصيدةِ التفعيلةِ غيرَ الشاعر العراقي الكبير بدر شاكر السيَّاب فمن الصعبِ أن لا تجد رابطًا شعريًّا نفسيًّا لغويًّا إنسانيًّا بينَ أمل دنقل الشاعرِ المصري الحزين وبينَ بدر شاكرِ السيَّاب رائدِ الحداثةِ العربيَّة فكلاهما من طينةٍ واحدةٍ ويصدرانِ عن المشكاةِ نفسها فهما ينتميانِ إلىٰ الفقرِ والمعاناةِ الجسديَّةِ والروحيَّةِ ويكتبانِ بنفسِ طينِ الحياةِ المجبولِ من أعماقِ النفسِ البشريَّةِ بخيباتها وأفراحها المختلسة.. ويجمعهما مصيرٌ واحدٌ وموتٌ بأوجِ الشبابِ والشعرِ والحبِّ علىٰ فراشِ المرضِ. هما شاعرانِ كبيرانِ حقًّا لكلٍّ منهما مدرستهُ الشعريَّةُ التي أغنت الكثيرَ من التجاربِ الشعريَّةِ اللاحقة وحتىٰ هذهِ اللحظةِ رغمَ

كتابةِ مئات الشروح والتأويلات والأطروحات الجامعيَّةِ والكتبِ النقديَّةِ عنهما لا يزالانِ كالحصانينِ الطروادِيَّينِ العنيدينِ عصيَّينِ علىٰ الريحِ وعلىٰ نارِ النقدِ.

****

قربانُ الفراغِ وهبةُ الحريَّة

(عن الثورةِ والشعر والحداثة)

لم أجدْ أصدقَ من هذا التعبير المجازي لإطلاقهِ علىٰ الشعرِ في هذا الوقتِ الخالي إلاَّ من انكسارِ حلمِ الشعرِ وتقهقرِ شموسهِ الطقوسيَّةِ. لا أنمي ذلكَ لشيء أو سببٍ مُعيَّنٍ كتراجعِ الحماسِ لقراءةِ هذا الفنِ الذي ترعرعَ منذُ فجرِ التاريخِ وصمدَ في وجهِ كلِّ الأزماتِ العاتيةِ والرياحِ الزمنيَّةِ المجلجلة.

ربما يقولُ البعضُ أنَّ هيمنةَ الروايةِ علىٰ المشهدِ الأدبي العالمي قد يكونُ السببَ في هذا الانحدارِ لشمسِ المجاز والبرقِ اللغوي.. لا أعرفُ... فهل فعلاً أنَّ الحداثةَ التي ابتدأها الشاعر الفرنسي شارل بودلير في فرنسا وأرسىٰ دعائمها السرياليُّون والرمزيُّون من كتَّابٍ وشعراءَ ورسَّامينَ وصعاليكَ في كلِّ بقاعِ العالمِ قد أقصتْ الشعرَ عن الوعيِ الجماهيري والحسِّ الشعبيِّ العامِّ من خلالِ اشكالياتِ الغموضِ والإبهامِ في القصيدةِ المعاصرة.. حتىٰ أصبحَ فنَ النخبةَ وتسليتَها بامتياز.

أظنُّ أن الذينَ كانوا يتهمُّونَ الحداثة بمثلِ هذا الاتهامِ الخطيرِ قد تراجعوا فيما بعد أو تكشَّفت لهم الحقيقةُ بأَنَّ جمرةَ الشعرِ باقيةٌ في

كلِّ العصورِ وهيَ المحرِّكُ الأوَّلُ والأخيرُ لأهواءِ وأحاسيسِ الناسِ وهيَ الوقودُ لكلِّ تطلُّعٌ للحريَّةِ أو توثُّبٍ للإفلاتِ من نيرِ الظلمِ والقمعِ الجسديِ والنفسيِّ.. طاقةُ الشعرِ قادرةٌ علىٰ تحريرِ شعبٍ أعزلٍ كما حصلَ في تونسَ الخضراءَ إذ استطاعَت قصيدةُ الشاعر أبي القاسم الشابيِّ " إرادةُ الحياة " أن تحرِّرَ الشعبَ التونسيَّ من جلاديهِ بعد مرورِ عشراتِ السنينِ علىٰ كتابتها.

الحداثةُ خميرةٌ مهمَّةٌ.. بل ومهمَّةٌ جدَّاً في تكوينِ نفسِ الفنانِ أو الشاعرِ وشخصيَّاً لا أعتقدُ أنَّها كانت عائقا بينَ النصِّ والمتلقي أو بينَ اللوحةِ والناظرِ إليها وكما أنَّ للكلاسيكيَّة قيماً وشروطاً ودعائمَ ومبادئَ فللحداثةُ وما بعدَها أيضا ما للكلاسيكيَّة وأكثر. يستطيعُ أن يقولَ قائلٌ أنَّ أبا تمَّام والمتنبي مثلا كانا أكثرَ حداثةً من الكثيرِ من شعراءِ العصرِ الحديثِ ولكنها مسألةُ ذكاءٍ شعريٍّ فطريٍّ في نظري ولا مجال للمذاهبِ هنا. فكما نحتفي اليوم بنصوصٍ تمزجُ الشعرَ والنثرَ والسردَ والإيحاءَ والغنائيَّةَ والرمزيَّة في بوتقةٍ واحدةٍ نحتفي أيضاً بتراثنا الأدبي والجمالي ونؤمنُ أنَّ لكلِ عصرٍ أساليبهُ وطرائقُ تعبيرهِ ولا يجوزُ أن نخاطبَ واقعنا الراهنَ بمثلِ ما خاطبَ بهِ أجدادُنا راهنهم المعيشيَّ.. لا يجوزُ لنا أن نبحثَ في المحارِ نفسهِ الذي استخرجَ أباؤنا منه الجواهرَ اللغويَّةَ التي لا تُقدَّرُ بثمن. يجبُ علينا أن نعي وندركَ الفرقَ بينَ أمسِ القصيدةِ وحاضرها وأن نؤمنَ دائماً

وأبداً بأنَّ حياةً بلا برقِ الشعرِ حياةٌ زائفةٌ وليستْ حقيقيَّةً.. وأنَّ حياةَ شعبٍ بلا قصيدةٍ لا تستحقُّ التفاتةً سريعةً من تاريخٍ عابر.

تواجهنا اليومَ مشكلتان.. مشكلةٌ تتمثَّلُ بعدمِ هضمِ الموروثِ الجمالي والتراث الفكري الإنساني بصورةٍ تتيحُ لنا أن نبني نصًّا علىٰ أنقاضِ نصٍّ وعيناهُ وفكَّكنا ذرَّاتهِ واحدةً تلوَ واحدة.. وأخرىٰ تتمثَّلُ بفصلِ الغثِّ عن السمينِ في الزمنِ الرقمي. فملاييْنُ الصفحاتِ علىٰ جوجل تعرضُ الرديءَ بجانبِ الجيِّدِ ونحتاجُ إلىٰ ثقافةٍ مصقولةٍ وثاقبةٍ لنعاينَ النصَّ المنشورَ في هذا الموقعِ أو ذاك حيثُ لا محرِّرٌ أدبيٌّ متمكِّنٌ أو بصيرٌ بخفايا اللغةِ.

فالكثيرُ من الشعراءِ الدونكيشوتيين الذين يمتطون صهواتِ أقلامهم ويقارعونَ الوهمَ كفرسانِ العصورِ الوسطىٰ يحلمون بسريَّةِ نجاحِ شعريَّةِ نزار قباني أو محمود درويش المذهلة والمرتبطةِ قبلَ كلِّ شيءٍ بأوجاعِ الناسِ والشارعِ والمتلقِّي البسيط الذي يحسُّ أن أحلامَ القصيدةِ تدغدغُ طموحهُ وتدفعهُ لحملِ روحهِ علىٰ راحتهِ والإلقاءِ بها في مهاوي الردىٰ والثورةِ علىٰ البؤسِ السياسي والثقافي.

لقد كانَ الشعراء الكبارِ كنزار قباني ومحمود درويش والسيَّاب وأمل دنقل يزرعونَ ما تحصدُ الشعوبُ العربيَّةُ اليومَ من ثوراتٍ وربيعٍ ومجدٍ وحريَّةٍ وانتصار.

وهذا ينطبقُ أيضـًا علىٰ شعراءٍ عالميِّين مثلَ بابلو نيرودا وغارسيا لوركا في محاولةِ التأسيسِ لمشروعِ الحريَّةِ الإنسانيَّةِ القادمِ لا محالةَ رغم غيومِ الدمِ والرصاصِ والحديدِ والجنون.

وبما أنَّ الشعرَ برقُ الروحِ وحدائقُ الحريَّة المعلَّقةُ فلا بأسَ لو انتظرنا الغيثَ مئةَ عامٍ أو يزيد ما دُمنا متأكدِّينَ أنَّهُ سيأتي وما هذا الفراغُ الذي يسكنُ مساحاتِ الكلمةِ سوىٰ وعدٍ بيوتوبيا جميلةٍ وهبةٍ لحريَّةٍ منتظرةٍ وفردوسٍ حالمٍ بالخلاصِ الروحيِّ من أظفارِ المادَّة.. فلا بأسَ لو صرنا قربانـًا أخضرَ لربيعٍ قادم.

****

ممدوح عدوان ورؤيا الدماء

(1)

حيالَ كلِّ ما يجري في سوريا من ظلمٍ وتقليلٍ وانتهاكٍ لحقوقِ الإنسانِ الأساسيَّةِ لم أجد من عزاءٍ لنفسي سوىٰ الرجوعِ إلىٰ دواوين الشاعر والمثقَّف السوري الكبير الراحل ممدوح عدوان الذي أصبحتُ أسمِّيهِ الرائي الأعظم فقلَّما تخلو قصيدةٌ لهُ من أطيافِ الدمِّ التي تنهمرُ اليومَ علىٰ أرضِ سوريا الصامدةِ وتدقُّ النوافذَ والترابَ والبشرَ والحجرَ والفضاءَ. الدماءُ اليومَ في سوريا تدقُّ كلَّ شيءٍ ولم تعد تدقُّ النوافذّ وحدَها كما في شِعرِ ممدوح عدوان.في هذهِ المقطوعةِ وهيَ من قصيدةِ "رصاصات بيضاء للأيام السوداء " يصوِّرُ لنا في الأمسِ ما سيحدثُ في وطنِهِ بعدَ سنين.. أي الآن:

حين أتاني النبأُ الدامي في عَجَلهْ

لم أسألْ نفسي : مَن قَتَله ؟

فالأسئلة عن القاتل ماتتْ

منذ اختنق الأخوة تحت رداء من صمت في أيلولْ

وتعلّق عنقودُ نجومٍ بمشانق سوداء على النيلْ

منذ نضوب الماء من المُدُن العربيهْ

ورجال ، كالأشجار ، اقتُلعوا

وابتُلعوا في الرمل المتحرّكْ

غرقوا شبراً شبراً .. رجلاً رجلاً

ما مُدَّتْ لهمُ يدْ

لم يتحرك حولهمُ غير كلام كحبال يمتدْ

يتحول بعد الخنق رثاءً وأكاليلْ

وحصاراً من جوقات وطبولْ

وعلى مفترقات دروب الثورة

بين حقول الفلاحين

في الحارات المهجورة ، بين صفوف الشعب المعزولْ

يترصدنا القَتَلَهْ

ولذا لم أسأل نفسي يوماً :

من منهم سيكون القاتل ؟

بل كنت أقولْ :

من منا سيكون المقتولْ ؟

وبالرغمِ من أنني لم أقرأ ممدوح عدوان إلاَّ مرَّة واحدةً فقد وجدتُ الكثيرَ من المتعةِ وأنا أعيدُ قراءتهُ ثانيةً ذلكَ أنه شاعرٌ فذٌّ لا تستطيعُ أن تسبرَ غورَ شاعريَّتِهِ من قراءةٍ واحدةٍ فحسب. وهو في نظري صاحبُ واحدةٍ من أروع وأجمل الرواياتِ العربيَّةِ التي كُتبتْ في القرنِ العشرين وهيَ روايةُ " أعدائي".

كانَ ممدوحُ يؤسِّسُ في أحلامهِ الشعريَّة العابثةِ المعذَّبةِ لخلاصنا المنشود من خللِ الرمادِ والدخانِ ورؤيا الدماءِ التي برعَ في رسمها.

(2)

وقد لجأتُ إلىٰ موقعِ " أدب " علىٰ الشبكةِ العنكبوتيةِ لعدمِ توفُّري علىٰ جميعِ مؤلفاتهِ الشعريَّةِ.. وفي الحقيقةِ صُدمتُ ممَّا رأيتُ.. ممدوح يستعملُ كلمة دماء عدةً مرَّات في القصيدةِ الواحدة كأنَّ هذهِ الكلمة من موتيفاتهِ الشعريَّة المفضَّلة وبما أنني لا أرىٰ إلاَّ الجماليَّ في قصيدتهِ فقد انزعجتُ قليلا من ترديدهِ لمفردةِ الدمِّ وحدستُ بأنَّه كانَ يتنبَّأُ بما يجري الآن في سوريا من سحقٍ لجماجمِ البشر وسحلٍ لأجسادِ الصغارِ الغضَّةِ لا لشيءٍ سوىٰ مطالبتهم بحقِّ الحريَّةِ أو حقِّ تقريرِ مصيرهم في مزرعةٍ آل الأسد التي تعجزُ الكلمات عن وصفِ ظلمهم وحقدهم واستبدادهم حتىٰ أنني أخذتُ علىٰ قناةِ الجزيرةِ نقلها الصورَ المريعة والمروِّعةَ للمشاهدين ومنها

صورة الشهيد الطفل " حمزة الخطيب" ولكنني تراجعتُ بعدَ ذلكَ لعلَّ وعسىٰ يتحرَّكُ هذا العالمُ الأنانيُّ الصلفُ غيرُ المبالي أو يستيقظُ من جمودِ وبرودِ سباتهِ أو موتهِ الأخلاقي.

(3)

كانَ ممدوح مسكونـًا بألمٍ قوميٍّ عظيم ومغلَّفا بحزنٍ إنسانيٍّ رقيقٍ لهذا السبب كنتُ أجدُ في كتابتهِ سواءَ الشعريَّة أو الروائيةِ أو حتىٰ المسرحيَّةِ شوقـًا عارمـًا للحريَّةِ وكنتُ ألمسُ حساسيَّة بالغةً تجاهَ الوضعِ السائد الغارقِ في القهر والتعسُّفِ في بلدٍ يتطلَّعُ إلىٰ الحريَّةِ من وراءِ سدُفِ التنكيلِ والقتلِ والذلِّ والظلمِ وغياهبِ الدكتاتوريَّةِ.

ولهذا كانَ شاعراً ثوريـًا بكلِ ما تنطوي عليهِ الكلمة من أبعاد.. وكانت مسرحياتهُ وأعمالهُ الدرامية فضلاً عن شعرهِ تحملُ طابعـًا إصلاحيا وروحـًا كسيرةً تجرُّ الكثير من خيباتِ الأملِ في التغيير... لقد كانَ يعرِّي الواقعَ المدقعَ في الفقرِ والمحسوبيَّةِ والظلمِ بالسخريَّةِ المبطَّنةِ حينـًا والمعلنةِ أحيانـًا.. بلا خوفٍ أو وجلٍ وبشجاعةٍ نادرةٍ.

(4)

ما يجري اليومَ في سوريا يدعو إلىٰ الضحكِ قبلَ البكاء.. فهذهِ الروايات المتناقضة في وسائل الأعلامِ المختلفةِ تجعلكَ لا تفقهُ شيئًا فالفضائياتِ الإخبارية كالجزيرةِ والعربيَّةِ تنقلُ لكَ صوراً يقشعرُ لها البدنُ ويشيبُ لهولها الولدان بينما في التلفزيونِ السوري يصوِّرونَ الجحيمَ الذي نراهُ في جميعِ وسائل الإعلام وموقعِ يوتيوب علىٰ الإنترنت وكأنَّهُ مفبركٌ .. وكلُّ هذا الدمِ الذي يعصفُ بالبلادِ مصدرهُ حفنةٌ من المنشقِّين المتآمرين المسلَّحين الذينَ يرعبونَ الآمنين وكأنَّ سوريا فردوسٌ موعود وليست ولايةً استبداديةً يتحكَّمُ فيها طغمةٌ حاقدةٌ من آلِ الأسدِ.. يريدونها حربـًا طائفيَّةً لا تبقي ولا تذر.

وأكثرُ ما يدعو إلىٰ البكاءِ المرِّ تصريحات بعض أتباعِ النظامِ مثل بسام أبو عبد الله أو سفيرة النظام في فرنسا لمياء شكَّور. التي تصف النظام بالبطلِ وحامي حمىٰ العروبة والإسلامِ.

أليسَ من البؤسِ الفكري أو ربما من الجنونِ المطلق أنَّه ما زال هناك من يؤمن بالنظامِ الآيلِ إلىٰ رماد بعدَ كلِّ الفظائعِ التي يرتكبها عناكبُ الشبِّيحةِ السوداءُ باسمِ النظامِ البربريِّ الهمجيَّ الذي يطلقُ الرصاصَ علىٰ شعبهِ الأعزلِ لخروجهِ في مظاهرةٍ سلميَّةٍ للمطالبةِ بحقوقهِ.

(5)

لا عجب بأنَّ سوريا مهدُ الحضارةِ الإنسانيةِ فهيَ أمُّ الفينيقيينَ الأوائل الذين أناروا ظلمات القرونِ القديمة. وهيَ ملتقىٰ الحضاراتِ وصاحبةُ مركز تاريخي لا نستطيعُ إغفالهُ وموقع استراتيجي لكونها قلبَ العالمِ الإسلامي. لا يستطيع أيُّ عربيٍّ أو مسلمٍ أو إنسانٍ أيٍّ كانت قوميتهُ أو جنسهُ أو دينهُ السكوتَ عمَّا يجري فيها.. وأخشىٰ أن نتداركَها بعدَ فواتِ الأوان.. لا بُدَّ من إنقاذ سوريا أبو العلاءِ المعرِّي ومحمد الماغوط ونزيه أبو عفش وأدونيس ونزار قباني وشوقي بغدادي وعلي الجندي وحنَّا مينة وعبد السلام العجيلي ومحمد عمران وكلِّ الرائين الكبار لا بدَّ من إنقاذِ سوريا من براثنِ الوحشِ وبراثنِ الفتنةِ الأهليَّة.

****

محمد عفيفي مطر.. عبقريَّةُ التنوُّع

أوَّلُ معرفتي بالشاعر المصري الكبير محمد عفيفي مطر ترجعُ ربَّما إلىٰ أكثر من عشر سنواتٍ.. كانت صورتهُ في مجلَّةٍ أدبيَّةٍ أظنُّها " الشرق " خُصِّصت لتكريمِ شاعرٍ فلسطينيٍّ من عربِ الداخلِ.. فيما بعد سألتُ صديقـًا شاعراً عنهُ فعرفتُ حينها أن هذا الشاعر المصريَّ الأسمرَ الذي تنتمي ملامحهُ إلىٰ ملامحِ أجدادهِ الفراعنة أحد أهمِّ الرموز الشعريَّة في مصر والعالمِ العربيِّ بأسرهِ وأحدُ الذينَ شكَّلوا ظاهرةَ الشعرِ الستينيِّ وأغنوا تجاربها وجوانبها.

ولكنَّهُ مغيَّبٌ في طبيعةِ الحالِ لعدمِ إتقانهِ الغناءَ في جوقةِ ببغاواتِ وطواويسِ القصرِ.. حزنتُ حينها ولم أفهم كيفَ يكونُ أحمد عبد المعطي حجازي في مقامٍ ومحمَّد عفيفي مطر في مقامٍ آخرٍ وشتَّانَ شتَّانَ بينَ المقامين.

الحقُّ يقالُ بأنني لم أتوَّفر علىٰ تجربةِ الشاعرِ حتىٰ ذلك الحين ولم أقرأ له إلاَّ قصائدَ متفرقَّة هنا وهناك. قراءةً لم تلقِ الضوءَ الكامل علىٰ تجربتهِ الشعرية بَيْدَ أنني قرأت أعمالَ مجايليهِ أمل دنقل وصلاح عبد الصبور وأحمد عبد المعطي حجازي.

أتذكَّرُ الآن أنني عثرتُ في مطبعةِ صديقٍ حيفاويٍّ علىٰ ديوانهِ الفذِّ الجميل والذي شدَّني من أوَّل وهلةٍ "احتفالياتُ المومياءِ المتوَّحشة" ولكنني لم أقم باستعارتهِ لقراءتهِ.. قمتُ فقط بتصفُّحهِ تصفُّحـاً عابراً ولاحظتُ أنَّهُ يحملُ في طيَّاتهِ نفسَـاً متمرِّداً جديداً وتحوُّلاً خطيراً.. لا يشبهُ شعرَ أمل دنقل إلاَّ في جموحهِ وكبريائهِ وسخطهِ علىٰ بلاطِ السلطانِ الظالمِ.. هناكَ بعدٌ مميَّزٌ ينأىٰ بغنائيَّتهِ عن قصائدِ عبد الصبور وحجازي أيضـاً.. شعرٌ يحملُ النارَ المقدَّسة الطاهرةَ والخصوبة والتنوُّعَ العبقريَّ والموسيقا الوليدة التي تدغدغُ الأحاسيسَ قبلَ أن تصلها كإعصارٍ جامحٍ..

ندمتُ فيما بعد علىٰ عدمِ استعارتي هذا الديوان من الصديق ولكنني قرأتُ عنهُ كثيراً من خلالِ دراساتٍ عن الشاعرِ وتجربتهِ. ديوانُ "احتفالياتُ المومياء المتوَّحشة " كُتبَ داخلَ السجن في أوائل التسعينيَّات عندما عارضَ الشاعرُ وقوفَ بلادهِ بجانبَ القوَّات المتحالفة ضدَّ العراقِ... فزُّجَ بهِ في السجنِ وعُذِّبَ بأن عُلِّقَ من يدهِ في دهليزِ السجنِ فكانَ لا يرىٰ إلاَّ الظلامَ ويظنُّ من شدَّةِ ألمهِ أنَّ أولادهُ معهُ في السجنِ فكانَ ينادي عليهم بأسمائهم.. وتجربةُ السجن التسعينيَّةُ هذهِ طالما حملتهُ إلىٰ مشارف الجنون والهذيان.

يقولُ الشاعرُ واصفـاً ليلَهُ في سجنِ طرة في قصيدةٍ بعنوان" هذا الليل":

هذا الليل يبدأ

دهر من الظلمات أم هي ليلة جمعت سواد

الكحل والقطران من رهج الفواجع في الدهور !

عيناك تحت عصابة عقدت وساخت في

عظام الرأس عقدتها،

وأنت مجندل – يا آخر الأسرىٰ ...

ولست بمفتدىٰ ..

فبلادك انعصفت وسيق هواؤها وترابها سبياً –

وهذا الليل يبدأ،

تحت جفنيك البلاد تكومت كرتين من ملح الصديد

الليل يبدأ

والشموس شظية البرق الذي يهوي إلىٰ

عينيك من ملكوته العالي،

فتصرخ، لا تغاث بغير أن ينحل وجهك جيفة

تعلو روائحها فتعرف أن هذا الليل يبدأ،

لست تحصي من دقائقه سوىٰ عشر استغاثات

لفجر ضائع تعلو بهن الريح جلجلة

لدمع الله في الآفاق ..

هذا الليل يبدأ

فابتدئ موتا لحلمك وابتدع حلما لموتك

أيها الجسد الصبور

الخوف أقسىٰ ما تخاف.. ألم تقل؟ !

فابدأ مقام الكشف للرهبوت

وانخل من رمادك، وانكشف عنك،

اصطف الآفاق مما يبدع الرخ الجسور ..

27/3/1991 معتقل طرة

وهو ربَّما في نظري الشاعرَ الأبرز في عصرنا الحاضر الذي دفعَ من دمهِ وألمهِ ثمنَ

معارضتهِ واحتجاجهِ ورفضهِ. ولا أقيسُ بهِ إلاَّ الحلاَّجَ أو بشَّار بن برد في صدرِ الدولةِ العبَّاسيَّة.

يقولُ عنهُ الكاتبُ أحمد الفيتوري ما يلي: وانبثق محمد عفيفي مطر في الشعرية المصرية مفردا ، تميز بشعرية ضد السائد أيا كان السائد وأنه خارج السرب ، وامتزجت هذه الشعرية بعجين الثقافة العربية المصرية ، فكانت شعرية خصوصية حتىٰ التماهي في جوهر كل ما هو إنسان ، متخلقة وخالقة لغة الوجود الإنساني المتعين في الزمان باعتبار الزمان صيرورة الإنسان في عين مكان، وفي المكان حيث المكان من إبداع إنسان يخلق زمانه ويحقق وجوده. وامتزج الشاعر في الشعر فكانت حياته شعره، " سنابل " الجهد والمثابرة والبحث والدرس وفلسفة المعنىٰ، ولهذا كانت مجلة " سنابل " التي أصدرها في نهاية الستينات حيث لم يكن من السهل الكتابة فما بالك بإصدار مجلة في كفر الشيخ بلدة الشاعر، هذه المجلة التي قدمت المتميز والأصوات الجديدة والمعروفة حاليا في راهن الثقافة العربية ".

سمعتهُ بعدَ رحيلهِ يتكلَّمُ علىٰ فضائيَّةِ النيلِ الثقافيَّةِ بفيضٍ عظيمٍ من النوستالجيا عن الناسِ والحبِّ والشعرِ والأرضِ والموتِ والمرأةِ كلاماً أقلُّ ما يُقالُ فيهِ أنَّهُ فوقَ أجملِ شعرٍ في الدنيا.. كأنَّما يمتحُ كلامهُ من هوَّةٍ ومناخاتٍ صوفيَّةٍ لا توجدُ في عالمنا بل تسكنُ كيانَ الشاعرِ الطائرِ في مجرَّةٍ قاصيَّة. حتَّىٰ أنَّ بعض المثقَّفين العرب أطلقوا عليهِ لقب نفرِّي الشعر المصريِّ الحديث ولا نغفلُ ما قالهُ

الشاعر العراقيُّ الكبير عبد الوهاب البيَّاتي عن عفيفي مطر بأنَّهُ أحدُ أصفىٰ الأصوات الشعريَّةِ العربيَّةِ في النصفِ الثاني من القرنِ العشرين.. وأنَّهُ شاعرٌ استطاعَ أن يجدَ المعادلة الصحيحة التي توازنُ بينَ اللغةِ واللونِ والحسِّ الصوفيِّ والعشقِ القتَّالِ الذي تسلَّحُ بهِ الصوفيُّونَ أبداً.. شاعرٌ استطاعَ أن يصلَ أبعدَ ممَّا وصلَ سواه.

اليومَ بعدَ رحيلهِ يوم الأثنين الفائت الثامن والعشرين من يونيو عام ألفين وعشرة أخفضُ رأسي لشاعر فارسٍ أصيل عشقَ الأرضَ كما لم يعشقها شاعرٌ آخرَ وأُقدِّمُ زهرةً بيضاءَ مخمليَّةً لطيرٍ ملوَّنِ الريشِ طالما غرَّدَ خارجَ سربهِ وكانَ نسيجَ ذاتهِ أبداً.

****

كيفَ التقيتُ بالكاتب الفلسطيني ربعي المدهون؟

صباح الخميس الموافق 2010/ 5/ 20 أصعدُ جبلَ حيفا الأشمَّ الكرملَ. أتجوَّلُ.. أقرأُ كثيراً عن الأمسيات الثقافيَّةِ التي تقامُ علىٰ شرفِ زيارةِ الروائيِّ الفلسطينيِّ المغتربِ في لندن ربعي المدهون. أقرأُ عن روايتهِ الهامَّةِ " السيِّدة من تل أبيبْ "

في صفحاتِ جوجل وأنفذُ إلىٰ بعضِ المناقشاتِ التي يتناولُ بعضُ النقَّادِ العربِ الروايةَ بها. لا بدَّ أنَّها رواية ممتعةٌ وهامَّةٌ جداً

وسأضعها علىٰ أعلىٰ درجاتِ سلَّمِ قراءاتي الروائيَّةِ التي كنتُ مقصِّراً فيها هذا العام.ولا زالت بعض رواياتِ سراماغو البرتغالي وهمنغواي الأمريكيِّ تنتظرني تحتَ أشجار غودو.

السيدة من تل أبيب رواية رائعة تتناولُ موضوعـًا إشكاليًّـًا يمسُّ العلاقة التي تربطُ فلسطينيًّـًا بإسرائيليَّةٍ رغم كلِّ هذا الضباب التاريخي والقومي والواقعي الذي يلفُّ المشهدَ المعيشيَّ الراهنَ في هذهِ البقعةِ.. ويسربلها بالحزنِ الوراثيِّ.

هذهِ الرواية وصلت هيَ وخمس روايات عربيَّة أخرىٰ إلىٰ اللائحة النهائيَّة لجائزةِ البوكر للروايةِ العربيَّةِ.. وقد أثارت صدىٰ واسعـًا في الساحةِ العربيَّةِ علىٰ الرغمِ من ذهابِ الجائزةِ إلىٰ روايةِ "ترمي بشرر" للسعودي عبده خال الذي أعتبرهُ مثيراً للجدلِ وعميقـًا في بعضِ رواياتهِ مثل روايةِ "فسوق".

كأنَّ المدهون قد بنىٰ مجدهُ علىٰ هذه الروايةِ اليتيمةِ التي جاءت بعدما اكتهلَ صاحبها وعركَ الحياةَ وعركتهُ.. أقرأُ عن أمسيَّةٍ أُقيمت في بيت الكرمةِ في حيفا بالتعاونِ مع مكتبةِ "كل شيء".. وعن أمسيَّةٍ ثقافيةٍ أخرىٰ أقيمت البارحة في مكتبةِ أبو سلمىٰ في الناصرة وعن

أخرىٰ ستقامُ أيضـًا مساءَ هذا اليومِ في مدينةِ أمِّ الفحم بمشاركةِ العديدِ من الأدباءِ والفنانين.

أهبطُ الكرملَ في ساعاتٍ ما بعدَ الظهرِ .. أصلُ إلىٰ "دوَّارِ باريس" في حيفا القديمةِ.. أتناولُ شيئـًا لأسدَّ بهِ جوعي.. أتمشَّىٰ بضعَ خطواتٍ غربـًا وتقعُ أغربُ المصادفاتِ في حياتي.. فجأةً وإذ بي أمامَ ربعي المدهونِ وجهـًا لوجهْ الروائيِّ المتميِّز بدمهِ ولحمهِ بشحمهِ وعظمهِ.. يبدو أنَّهُ أصغر من عمرهِ بكثير ربَّما بنحوِ عشرينَ سنة أي أنَّه يبدو في نحوِ الخامسةِ والأربعينَ ولا حسدْ.. قامةٌ تميلُ إلىٰ النحولِ وعينانِ حادَّتانِ ونظارَّةٌ طبيَّةٌ وقميصٌ أظنُّهُ أبيضَ اللونِ ووقارٌ لا أعرفُ كيفَ أصفهُ... وهيبةٌ جليلةٌ تهبطُ علىٰ وجههِ النحيل الجديِّ القسماتْ.كأنَّها ريشةٌ علىٰ رأسِ حفيدٍ مدلَّلٍ لبعلٍ وعناة.

أستغربُ من سخريَّةِ القدرِ بي.. كنتُ قبلَ لحظات أفكِّرُ بهِ وبسرِّ نجاحهِ الأدبي وها هو الآن أمامَ عيني.. أنشغلُ بهِ كلَّ يومي ولا أفلتُ من سطوةِ مليونِ دانا أهوفا ملءَ الطريقِ وملءَ الحياةِ.. يتقمَّصني شبحُ وليد دهمان الذي لم أستطعْ الفكاكَ منهُ رغم فلسفةِ حبِّي الأفلاطونيَّة ورغمَ جذوري الممتدَّةِ في رمادِ المأساةِ كجذور سروةٍ عظيمةٍ.. أهبطُ من جحيمِ الحبِّ العلويِّ.. وكلُّ حبٍّ جحيمٌ.. أهبطُ

من فتنةِ الكرملِ وقسوةِ صعودهِ وذكرياتهِ... أخلعُ عنِّي بعضَ أمراضِ العاطفةِ ولو للحظاتٍ معدودات.. لأجدَ المدهونَ أمامي بابتسامةٍ خضراء وأقحوانةٍ غيرِ مرئيَّةٍ ترفرفُ فوقَ نظراتهِ الحادةِّ كنظراتِ الصقور.

أسلِّمُ عليهِ بحرارة بالغة وأسألهُ عن أحوالهِ.. أعتذرُ لهُ عن عدمِ حضوري أمسيتهُ الأحدَ الفائتَ في بيت الكرمة لخيانةِ سيَّارتي لي.. وأعدهُ وعداً حميميًّا بقراءةِ رائعتهِ التي أظنُّ أنَّها تمسُّ وجعَ كلِّ واحدٍ منَّا بشكلٍ خاص.. نحنُ الفلسطينيِّن في الداخل. الذينَ انصهرنا في البوتقةِ شئنا أم أبينا.. اعترفنا بذلكَ أم أنكرنا.

يبتسمُ الأستاذ ربعي بأريحيَّةٍ ويحثُّني علىٰ قراءتها.. ونمضي كلٌّ في جهةٍ.. أنا أواصلُ غربـًا وهو يمضي لشأنهِ.

أمشي بضعَ خطواتٍ وأفكِّرُ مليًّا بربعي.. بالكاتب الذي نجحَ بعدَ بلوغهِ الخامسةِ والستِّين من العمرِ.. كم خطَّطَ لروايتهِ السيَّدة من تل أبيب؟ خلال كم من الوقتِ أنجزها..؟كيفَ اهتدىٰ إلىٰ المعادلةِ الصحيحة التي جعلت كتابهُ يطبعُ أربع طبعات ويترجم إلىٰ عدَّةِ لغات..؟ حتَّىٰ أني شاهدتُ علىٰ شاشة النيل الثقافية مؤخرًّا مترجمةً ايطاليةً جميلة وموهوبةً وشابةً تعتزمُ علىٰ ترجمتهِ للإيطالية.

ما هو سرُّ ربعي المدهون هذا الطالعِ علينا من سدفِ الضبابِ في لندن بأجملِ روايةٍ فلسطينيَّةٍ؟ ما سرُّ نجاحهِ؟ ما سرُّ لغتهِ؟ ولماذا لا نتعلَّمُ منهُ نحنُ الشباب؟

لماذا لا نصبرُ ونعملُ في الظلِّ؟ لماذا لا نتعلَّلُ بالأملِ؟ نحنُ هنا نعيش بعقليَّةٍ شرقيَّةٍ حتَّىٰ في مجال الكتابةِ.. دائمـًا نريدُ كلَّ شيء بينَ عشيَّةٍ وضحاها.

يتلاشىٰ الضبابُ أمامي.. ضبابُ الحياةِ وضبابُ البشرِ وضبابُ الأدب.. ويبقىٰ المدهونُ الكاتبُ الستينيُّ الشامخُ بابتسامتهِ الوديعةِ كحمامةٍ جليليَّةٍ واليانعةِ كحبقٍ حيفاويٍّ.. يبقىٰ مطلاً من حدائقِ الشمالِ عاليـًا زاهيـًا راسخـًا شامخـًا فكراً وروحـًا لغةً وعاطفةً.. فيزدادُ رهبةً في نفسي.. في خضَّمِ هذا الاهتمامِ النقدي العربيِّ والإجماعِ علىٰ علوِّ قامتهِ الروائيِّةِ... أخفضُ رأسي وقلبي لريحانِ يديهِ.. وأبعثُ لهُ من ضفافِ حيفا التي يحبُّ ومن أعالي روحِ الكرملِ الأخضرِ ألفَ قبلة.

****

سميح القاسم.. المخلصُ الأبديُّ للقصيدة

مساء الجمعة الثلاثين من نيسان عام ألفين وعشرة... يحاصرني قلقٌ لا يُفسَّرُ ولكنَّهُ قلقٌ جميل.. أجدُ نفسي أهبطُ إلىٰ جنَّةٍ معلَّقةٍ علىٰ أطرافِ النبوءةِ.. أقصدُ حيفا التي أقاسمها خبزَ الألم.

أسيرُ بسيارَّةٍ ذاتِ محرِّكٍ متداعٍ نحوَ حيفا لحضورِ أمسيَّةٍ شعريَّةٍ للشاعر الكبير سميح القاسم. أتذكَّرُ بعضَ شعرهِ الذي لا يغيبُ عن قلبي:

سوفَ آتيكِ بطفلة
ونسمِّيها طللْ
وسآتيكِ بدوريٍّ وفلَّة
وبديوانِ غزلْ

برغمِ القلقِ الغامضِ أجدُ نفسي منتشيـًا بلقاءِ سميح.. مطمئنـًا كاطمئنانِ هذا الشاعرِ المستندِ إلىٰ جبلٍ حريريٍّ إلىٰ حقيقةِ ما حقَّقهُ من مجد.

القاسم في نظري آخرُ الفرسان الفلسطينيِّين الذينَ مهروا قصائدهم بدمهم الغالي

وهو الآن شيخُ شعرائنا بلا منازع. والطلائعيُّ الفذُّ لشعرِ المقاومة. وأحدُ ثلاثة شعراء اصطبغَ شعرهم وحبرهم بقرمزيَّةِ النضالِ القومي والمواجهةِ الرافضة للظلمِ في الأدبِ الفلسطيني بالإضافةِ لمحمود درويش وتوفيق زيَّاد.

كانَ لقائي بقصائد القاسم الباذخةِ منذ الطفولةِ عندما كانَ التلفزيون السوري يبثُّها ويشيد بقوميَّتها وعنفوانها. وها أنا اليومَ علىٰ موعدٍ مع هذه النبرةِ البطوليَّةِ ضمن احتفاليَّةِ بيت الكرمةِ هذا العامِ لتكريمِ شاعر الهمِّ القومي وشاعرِ المقاومة.

حيثُ حلَّ الشاعر ضيفـًا علىٰ حيفا التي أحبَّ في أمسيَّةٍ شعريَّةٍ ولقاءٍ أدبي آخرَ في الثالث عشر من أيَّار هذا العام.. ولقد كنتُ حاضراً في كليهما... ولمستُ بعضَ وفاء وإخلاص القاسم لقصيدتهِ المتجذِّرةِ في أديمِ البهاءِ والكلامِ النابض.

لمستُ إخلاصَ القاسم لتجربتهِ وإخلاصَ الجمهورِ له ولشعرهِ.

حاولتُ مرارا أن أنفذَ إلىٰ أبعدَ من نكتتهِ الحاضرةِ أبداً.. وبديهيَّتِهِ المتوقدةِ كالجمرةِ الهائلةِ وراءَ تجربةٍ تمتدُّ إلىٰ أكثرَ من نصفِ قرنٍ في الكتابةِ والهمِّ الثقافي.. سألتُ القاسمَ عن سرِّ نجاحِ الشاعرِ أو نجاحِ القصيدةِ.. فقالَ أشياءَ كثيرةً وعميقةً وركَّزَ علىٰ مسألةِ الوفاءِ والإخلاصِ للتجربةِ مضيفـًا الموهبة والمران والثقافةَ والتكرَّسَ كعناصر لا بدَّ منها ولكنها لا تصنعُ كاتبـًا عظيمـًا.. قالَ أنَّ

نصَّـاً رديئـاً لا يعيشُ طويلاً مهما كان.. أو يضمنُ لصاحبهِ مكانـاً بحجمِ نقطةِ الضوءِ في بحرِ الظلام.. ولكنَّنا ويا للأسفِ في زمنِ الديجيتالِ وقتِ اللا وقت وقت اللا قصيدة وقتِ اللا محبَّة ووقت اللا وعي وقت الهذيانِ المحمومْ.

سميح من أهمِّ المخلصينَ للقصيدةِ إن لم يكن عربيًّا وعالميًّا ففلسطينيًّا بامتياز.. وكم آلمني عادل الأسطة حينَ كانَ يحاولُ تقزيمَ حجمِ الشاعرِ بالمقارنةِ مع مجايليهِ.. ففي نظري هو عالمٌ قائمٌ بذاتهِ ولا يجوزُ لنا أن نقارنَ بينهُ وبينَ غيرهِ بهذهِ الصورةِ المجحفة.

منذُ أواسط الخمسينات وسميح لا ينفكُّ يستدعي القصيدةَ.. يُراوغها ويخاتلها وهيَ تنقادُ حينـاً وتستعصي أحيانـاً.

منذُ تفتُّحِ وعيي الشعري وأنا أرىٰ في القاسمِ قامةً شعريَّةً باسقةً وجذوةً تلتقي في نهايةِ النفقِ مع الكبار من سدنةِ الجمالِ والثقافةِ.. أدونيس.. الماغوط.. درويش... المقالح... عبد الرحمان منيف... نجيب محفوظ... أحمد شوقي.. نزار قبَّاني...

هو شاعرٌ كبيرٌ حقَّـاً برغمِ كلِّ الأقزامِ التي تحاولُ غمطَ حقِّهِ في أمارةِ الشعرِ الفلسطيني.. والتقليلَ من شأنهِ الأدبي.

أكثرُ ما يُميِّزُ القاسمَ في أمسيَّاتهِ حضورُ روح الدعابةِ والنكتةِ إلىٰ جانبِ الروحِ الوطنيَّةِ.. ترىٰ شاعراً قادراً علىٰ جذبِ انتباهِ الجمهورِ

وإثارةِ كوامنِ فرحهِ وحزنهِ.. يملكُ حاسَّةً فريدةً في فنِ الإلقاءِ.. قصائدهُ طازجة وطالعة من خميرةِ الحياةِ كالزنبقِ الحارِّ.. بتواضعٍ جمٍّ وشفافيَّةٍ مرهفةٍ ينثرُ جمانَ معانيهِ بصوتٍ مشحونٍ بالنبرةِ الحماسيَّةِ ومخزونٍ بالحبِّ الصافي.

في كلِّ مرَّةٍ ألتقي فيها القاسم أُكبرُ هذهِ الروحَ الفضفاضةَ المتألقةَ بالشعرِ.. وأُكبرُ هذا الطموحَ العنفوانيَّ إلىٰ إصلاحِ العالمِ بالشعرِ والصدقِ عن طريقِ الإيمان بالحبِّ.. إنَّهُ يبني ما تهدَّمَ من روحِ العالمِ بالوردِ.. يا لهُ من ساحرٍ..

الشعراءُ بحاجةٍ إلىٰ نقطةِ إخلاصٍ واحدةٍ وحقيقيَّةٍ من محيطِ القاسمِ الزاخرِ لمحاولةِ الحلمِ بإنباتٍ وردةٍ يانعةٍ في سهوبِ الرماد.. وبإصلاحِ العالمِ الخربِ المنهارِ بابتساماتِ أوفيليا.

عمليَّةُ الحلمِ هذهِ بحاجةٍ إلىٰ مياهٍ آخذةٍ بالنضوبِ يومًا بعدَ يومٍ.. في وقتِ الفضائياتِ والمذهبيَّةِ والطائفيَّةِ والعولمةِ الشرسةِ والرقصِ علىٰ جثثِ الضحايا الأبرياءِ.. في وقتِ اللا وقت.. في زمنِ الجنونِ وضياعِ القيمِ الإنسانيَّةِ.

تحيَّة حب صادقة لسميح القاسم فارسِ القصيدةِ الجامحةِ الأخيرِ المطلِّ علينا علىٰ فرسِ الشنفرىٰ حاملاً تمرَّدَ جدِّهِ أبي الطيِّبِ المتنبِّي.

****

رائحةُ القرفةِ اللاذعةُ جداً
للروائيَّة السوريَّة سمر يزبك

روايةُ رائحة القرفة للكاتبة السورية سمر يزبك من أجملِ الروايات القليلة التي قرأتها مؤخَّراً وأعجبتُ بها كثيراً لما تحتويهِ من خميرةٍ لغويَّةٍ مرَّكبة ولأنها قبلَ كلِّ شيء تنتمي إلىٰ تلكَ الرواياتِ الرائعة والمكتوبةِ بجرأةٍ نادرةٍ وشجاعةٍ إنسانيةٍ عجيبة . فهيَ تتقاطعُ من هذهِ الناحيةِ مع بعض كتابات الكاتب البيروفي ماريو فارغاس يوسا مثلِ روايتيهِ امتداح الخالة ودفاتر دون ريغو بيرتو والكاتب المغربي الشهير محمد شكري في روايتهِ الرائعة الخبز الحافي.. روايةُ تعريَّةٍ من الصعبِ أن تُفلت من تأثيرها لأيَّامٍ عدَّة لحرارةِ الوجعِ النفسي المسفوحِ علىٰ بياضِ صفحاتها ولأنها لا تحفلُ كثيراً بمشاهدِ الجنسِ المبعثرةِ رغمَ فداحتها هنا وهناك في حناياها بقدرِ ما تطفحُ بالمرارة والغربةِ الإجتماعيَّةِ وبذورِ المأساة... ولأنها تقفُ علىٰ فوَّهِ مُلتهبةٍ حاولَ الكثيرُ من الروائيات العربياتِ الوقوفَ عليها في الآونةِ الأخيرة.. ونستطيع أن نرىٰ في موضوعها الإشكاليِّ المتمثِّل بالمثليَّة الجنسيَّة بعضَ الشبهِ الذي تتقاسمهُ مع روائيات خليجيَّات مثل ليلىٰ العثمان ومصريَّات كنوال السعداوي مثلاً .

تقفُ الكاتبة في هذهِ الرواية أمام مرايا الحياةِ المشروخةِ في المجتمعِ السوري وتعالجُ ازدواجيَّةَ المعايير فيهِ علىٰ حدٍّ قولها من خلال التعرِّضِ للعلاقةِ المثليَّةِ السحاقيَّةِ التي تنشأُ بينَ السيدةِ الثريَّةِ حنانِ الهاشمي وخادمتها عليا فتحاولُ تصوير العلاقة المعقَّدة بينَ هاتينِ الشخصيتين بمهارةٍ دقيقةٍ وبراعةٍ في استجلاءِ مكنوناتِ النفسِ البشرِّيةِ عن طريق مونولوج داخلي.. وأيضـاً بالكثيرِ من الإنتقادِ الواضحِ للطبقيَّة وتداعياتها في المجتمعاتِ الفقيرة.. وقد أفلحت في نظري بنقلِ الواقعِ بكلِّ ما فيهِ من آلام وحزن وقسوة ومرارةٍ بسردٍ ساحرٍ أخَّاذ .

تحكي هذهِ الروايةِ قصَّةَ عليا التي تعيشُ مع أهلها في حيِّ الرملِ المدقع في الفقرِ في طرفٍ من أطرافِ دمشق.. حيثُ بيوتُ الصفيح وشظفُ العيشِ وقسوةُ الأبِ الجنونيَّةُ وتسلّطُهُ المفرطُ في الأنانيَّةِ علىٰ أهلِ بيتهِ حتىٰ أنَّهُ لا يتورَّعُ عن ضربِ ابنتهِ عليا الكبرىٰ حتىٰ الشللِ في مشهدٍ من أكثرِ مشاهدِ الروايةِ مأساويَّةً لأنها كانت تعدُّ النقودَ سرَّاً مع أمِّها من دون أن تسلِّمها إليهِ.. الأمر الذي أدَّىٰ في النهايةِ إلىٰ اغتصابها علىٰ يدِ عبود ابن الجيران وانتحارها في الأخير بعد أن علمَ الناسُ ما جرىٰ لها علىٰ يدِ ابن جيرانها.ماتت إذن عليا

الكبرىٰ لتأخذ مكانها في المأساةِ عليا الصغرىٰ التي تشكِّلُ الشخصيَّة الرئيسيَّة في الرواية.

تبدأُ أحداثُ الرواية باكتشافِ السيدة حنان الهاشمي بخيانةِ زوجها أنور الهاشمي لها بعدَ أن فزعت من الكابوس المريع الذي شاهدتهُ في نومها من أنها قد تحوَّلت إلىٰ امرأةٌ بثلاثةِ أثداء وخمسةِ أذرع. فهبَّت من نومها وكانَ الضوءُ المنفلتُ من فرجةِ بابِ غرفةِ زوجها الشيءَ الوحيدَ الذي قادها إلىٰ غرفةِ النوم لتكتشفَ خيانةَ عليا وزوجها لها خصوصـًا وأنهما كانتا في علاقةٍ مثليَّةٍ حميمة.. وهذا ربمَّا أغضبها أكثر لأنَّها كانت تريدُ امتلاكَ جسد عليا وحدها.. ليكونَ متنفسَّها الوحيدَ بعدَ أن سئمت من رياءِ ونفاقِ نساءِ الطبقةِ المخمليَّة. لذلكَ وافقت أن تكونَ هيَ السيدةَ المتنفذةَ في النهار بينما تكونُ خادمتها سيدَّتها في الليلِ... لكن سرعان ما تتوتَّرُ العلاقة بينهما عندما نسيت عليا نفسها معها حتىٰ صباحِ تلكَ الليلة المشئومة فأمرتها أن تغادرَ غرفتها بعصبيَّةٍ وغرورٍ واستعلاءٍ واضحين فأضمرت لها الخادمةُ سوءَ النيَّةِ وأخذت تلتفُّ علىٰ زوجِها حتىٰ استطاعت في النهايةِ الإيقاعَ بهِ والتسلَّلَ إلىٰ فراشهِ .

تستندُ الروايةُ وتقومُ علىٰ طريقةِ استعادةِ الماضي فهي زمنيَّـًا لا تمتدُّ إلاَّ لبضعةِ ساعاتٍ قليلة أي من لحظةِ خروجِ عليا مطرودةً من

فيلا حنان الهاشمي إلىٰ وقتِ ضحىٰ ذلكَ اليوم حينَ انطلقت السيدة للبحثِ عنها في أزَّقةِ دمشق المغبرَّة.

وقد كانت عليا في في طريقها إلىٰ المجهولِ بعدَ طردها من الفيلا تستعيدُ اللحظات المريرة منذ أن كانت طفلةً تتشاجرُ مع الصبيانِ من أجلِ الحلوىٰ التي لطَّخت وجهها ذاتَ يومٍ وسبَّبت لها مشكلةً مع والدها بسببِ شجارها مع أحد صبيةِ الشقاء في حيِّها.. ومنذُ كانت طالبة متمرِّدةً إلىٰ تلكَ اللحظةِ التي اغتصبها فيها رفيقها في جمعِ ما حسنَ من حاويات النفاية ساسوكي. لتعودَ في اليومِ التالي لتُعملَ سكينها في ظهرِهِ انتقامـًا منهُ.عليا إذن تعلَّمت كلَّ أساليب الدفاعِ عن النفسِ في هذهِ البيئةِ الدمشقيَّةِ الملأىٰ بالمخاطرِ والقلقِ والفقرِ والخوفِ من الآتي.

تظلُّ عليا في البيتِ منذ تلك الحادثة إلىٰ أن يقودها أبوها ذات صباحٍ للخدمةِ في منزلِ السيدة الثريَّة حنان التي تستعيدُ هيَ الأخرىٰ بعدَ طردِ خادمتها ذكرياتها الأليمة مع أمها التي لم تعبأ بمشاعرها الطفوليَّة والتي أرادت لها أن تتزوَّج بلا حبٍّ من أنور ابن عمِّها الذي يكبرها بسنوات عديدة لتنجبَ لهُ ابنهُ الذي انتظرهُ طويلا منذ زواجهِ الأوَّل.

ولكنَّا تنفرُ منهُ وتسميِّهِ التمساحَ المتفسِّخ الخالي من أيِّ عاطفةٍ وحرارة.

تتذكَّرُ حنان كيفَ أن أمها قد أخذتها عندما كانت طفلةً إلىٰ حمَّامِ النساءِ لتعبثَ بجسدها هناكَ أصابعُ امرأةٍ ممهدَّةً بذلكَ لولعها الخفيِّ بالجسدِ الأنثويِّ في مجتمعٍ محافظٍ وظالمٍ لا يولي المرأةَ ومشاعرها أيَّة أهميَّة.لا أريدُ أن أعرض في عرضي القصيرِ هذا إلىٰ فلسفةِ هذهِ الروايةِ بل أحببت أن أشير إلىٰ أنَّها حشدت صوراً حيَّةً حقيقيَّةً للواقعِ السوري وسلَّطت الأضواء علىٰ عوالم خفيَّة وتقاليد يجهلها الكثيرُ من الناس خصوصـًا تلك التي تضعُ فيها المستحمَّةُ إبريق قرفةٍ علىٰ النارِ ليغلي وتشتمُّ هيَ بدورها رائحة بخارِ القرفةِ المنبعثة.. ربمَّا يكونُ السبب من وراءِ هذا الأمر تقويةَ الرغبةِ عند المرأة وفي ظنِّي أنَّها وُفِّقت كثيراً في اختيارِ عنوان الروايةِ بعدَ أن كانَ اسمها في البدايةِ عليا كما يتضِّحُ من نصٍّ منها منشورٍ في موقعِ الحوارِ المتمدِّن قبلَ صدروِ الروايةِ بطبعتها الأولىٰ عام 2008.

هنالكَ ترديدُ بعضِ العباراتِ في الرواية مثل " ظل الضوء المائل " وهذا الشيء يعملُ كثيراً علىٰ الجانب السايكولوجي لدىٰ القارئ وهو موجودٌ في روايات عديدة مثل رواية ميرامار لنجيب محفوظ ونلمسهُ في الرواية العالميَّة أيضـًا لدىٰ بروست وكافكا .

أودُّ أن أشير في النهاية إلىٰ أنَّ رواية رائحة القرفة رواية جادَّة وضَّاجةٌ بالألمِ الإنساني... توظِّفُ مشاهد الجنس والإيروتيكا ليسَ لإيقاظِ غرائز الشهوة بل لتسليطِ الضوءِ علىٰ بؤرةِ ظلامٍ دامسٍ ونقل

الصورة الحيَّة إلىٰ الإنسانِ القارئ أيًّا كانَ دينهُ أو كانت قوميَّتهُ. رائحةُ القرفة في هذهِ الروايةِ لاذعةٌ جدًّاً ومن الصعبِ أن يتلاشىٰ طعمها من فمكَ بسهولة.. هيَ صرخةٌ مدوِّيَّة وجريئة وفتحٌ جديدٌ في الروايةِ العربيَّةِ وتستحقُ منَّا الإلتفات والإهتمام.

****

جدليَّة العشقِ والتمرُّدِ
في شعريَّةِ الفلسطيني يوسف أبو لوز

كقارئٍ ممسوسٍ بالشغفِ إلىٰ اكتشافِ كلِّ جديدٍ في العوالمِ المختبأةِ في الكتبِ والموروثِ الإنساني فإنني أدينُ لفطرتي السليمةِ في أحيانٍ كثيرةٍ. وأدينُ دائماً لذائقتي النقيَّةِ التي قلَّما تخطئُ في اختيارِ المجموعات الشعريةِ اللامعة.

فأنا دائبُ البحثِ عن الدواوين التي تحملُ في طياتها الرؤىٰ والأساليب الجديدةَ والتقنيَّات العالية والمبتكرة لصياغة القصيدة العربية الحديثة وتلك المتفلِّتة والمتطلِّعة إلىٰ ما وراء الحداثة.

وقد كانَ ديوان الشاعر الفلسطينيِّ الأصل والأردنيِّ النشأةِ يوسف أبو لوز والمُسمَّىٰ " ضجرُ الذئب " أحدَ الدواوين الشعرية التي أفدتُ منها كثيراً وفتحت شبابيكي علىٰ عوالم ومناخات طالما حلمتُ بها.. ذلكَ أنَّهُ من الكتب الشعرية القليلة التي بهرتني بقيمتها النوعيَّةِ العظيمة. من دون أن يكون لصاحبها ذلك التقديسُ في المحافل الأدبية هنا وهناك.. ذلكَ أنها شكلَّت مفصلاً أساسيًّا في مسيرةِ صاحبها الشعريةِ.

عدم معرفتي بالشاعر الجميل روحًا ونصّـًا يوسف أبو لوز جعلني أتردَّدُ في البدايةِ باقتناءِ الديوان ظنًّا مني أنهُ لا يحملُ الضالة التي أبحثُ عنها.. ولأنني ربمَّا أصبحتُ أميلُ إلىٰ الأسماءِ المكرَّسةِ كغيري من الشعراءِ العربِ الذين لا يريدونَ أن يجهدوا أنفسهم بالبحثِ عن الشعريَّات الجميلة المستترة وراءَ حجابٍ رقيقٍ من الخجلْ.

ولكنني في النهايةِ غامرتُ وراهنتُ علىٰ جودتهِ بعدَ قراءةِ بعضِ سطورهِ القليلة.. وهكذا اشتريتهُ ولم أكن بعدُ قد إطَّلعتُ علىٰ ما أثارهُ هذا الديوان من ضجَّةٍ أدبيةٍ ودويٍّ شعريٍّ.. ولم أكُ أعلمُ أيضـًا أنهُ حصَدَ جائزة عرار الأدبية في الأردن فور صدورهِ عام 1992 عن إتحادِ الكتاب الأردنيين والمؤسسة العربية للدراساتِ والنشر. مما حدا ببيت الشعر الفلسطيني أن يصدرهُ بطبعة ثانيةٍ أنيقةٍ بعدَ ذلكَ بسنوات.

ديوان ضجر الذئب في نظري يُعَّدُ تتويجـًا حتميَّـًا لمسيرةِ أبي لوز الشعرية التي بدأها عام 1983 بديوان "صباح الكاتيوشا أيها المخيَّم" ليصدرَ بعدَ ذلكَ "فاطمة تذهبُ مبكرة إلىٰ الحقول" و" نصوصُ الدم " الذي كانَ مقدمةً لضجر الذئب مشروع الشاعر الجدِّي من حيثُ أنهُ احتوىٰ علىٰ بعض التجديد في الأساليب والصور الشعرية البديعة.

نلمحُ في ضجرِ الذئبِ عباراتٍ مركَّبةً وأطيافًا ملوَّنةً لنصٍّ ما بعدَ الحداثةِ. ونسمعُ أصداءً ملحميَّةً عظيمةً يفتتحُ الشاعر بها الديوان في مطوَّلتهِ العامرة "مجرَّةِ القتلىٰ".

فنلمسَ هناكَ التواترَ اللفظيَ الجامحَ والخيالاتِ البريَّةَ والنبرةَ العالية والغوصَ علىٰ التراكيبِ الشعريةِ الباهرةِ للأذهانِ والتي تأسرُ العقولَ والقلوبَ معًا.. ونطربُ لوقعِ الموسيقىٰ المارشيّةِ الهادئةِ حينًا والهدَّارةِ أحيانًا في تجريبٍ ومغامرةٍ تجاوزت تجاربَ العديدِ من الشعراءِ العرب في تلكَ المرحلة التي امتدَّت من أواخر الثمانينات حتىٰ بداية التسعينياتْ وكانت من أكثر المراحل أهميَّة علىٰ مستوىٰ الشعر الفلسطيني الأردنيِّ الذي تمثَّلَ بشعراء كثيرين كتبوا تفعيلةً وغير تفعيلة مثل طاهر رياض ويوسف عبد العزيز وزهير أبو شايب وعمر شبَّانة وأمجد ناصر.

مجرَّةُ القتلىٰ إعجازٌ تفعيليٌّ محض وقصيدة ثائرة علىٰ الأنماط الشعرية البسيطة بينما ضجر الذئب إعجازٌ نثريٌّ فريد ونشيدُ إنشادِ عشقِ صاحبهِ لامرأةٍ من زرقةِ البحرِ.. وقد جاءت قصيدة ضجر الذئب خاتمةً للديوان.. وبين هاتين القصيدتين يرتفعُ أداءُ الشاعرِ ولا يسفُّ أبداً كأنهُ صقرٌ يطيرُ عموديًّا نحوَ النورِ والمجدِ.. يعالجُ موضوعاتٍ عديدة في حياتهِ الشخصية ويجعلُ اليوميَّ العابرَ يصبُّ في صميمِ الشعرِ.. الشاعر يعبِّرُ عمَّا يجيشُ في صدرِ شاعرٍ فلسطينيٍّ

شاب لم يأخذ نصيبهُ من الشهرةِ والأضواء رغم علوِّ كعبِ شاعريَّتِهِ..

أبو لوز شاعر مطبوع يراوحُ بينَ التفعيلةِ المكتوبةِ بوعيٍ عالٍ ورصانةٍ تعبيريَّةٍ وجدَّةٍ تصويريَّةٍ وأناقةٍ لفظيةٍ وبينَ قصيدة النثرِ الحقيقيةِ التي تحتفظُ بحرارةِ دمائها وصوتها المتفرِّدْ.

أنا أنتمي إلىٰ أبي لوز من حيثُ أنَّهُ أستاذٌ في اجتراحِ الأخيلة والأساليبِ الفنيَّةِ غير المطروقةِ في كتابة نصٍّ حداثيٍ جديد يرتكز علىٰ موروث الفلسفة العربية القديمة وجماليات إبن عربي والنفرِّيْ والفارابي فهو مشغوفٌ بالنثرِ العربي إلىٰ أبعدِ حدْ.

أبو لوز شاعر متمرِّد وصاحبُ نهجٍ في تطوير وعيِ شاعريَّتِهِ وتطويرِ تقنياتِ فهمهِ لما يريدُ من اللغة وكيفَ يريدُ للقصيدةِ أن تبدو في الأخير. وما هيَ المناخاتُ الأفضلُ لتربيةِ هواجس ما بعدَ الحداثةْ.

ضجرُ الذئبُ ديوانٌ فريدٌ ودرَّةٌ كمينةٌ يهديهِ صاحبهُ إلىٰ الفراغ.. لا أعرفُ أيَّ فراغٍ هذا الذي يقصدهُ الشاعرُ ولكنني أربطُ الفراغَ الذي أرادهُ وعناهُ في مطلعِ ديوانهِ بذلكَ الضجرِ الذي استبدَّ بالذئبِ العربيِّ.. ذلكَ الذئبِ الذي استعادَ أبو لوزَ صوغَ ملحمتهِ واستعارَ قناعهُ في مسيرةٍ شعريَّةٍ جبَّارةٍ... وحتىٰ هذهِ اللحظةِ لم ينزعْ شاعرنا عن وجههِ القناعَ الذي ربمَّا أعجبهُ.. فأصدرَ بعدَ خمسةَ عشرَ عاماً

من صدورِ ضجر الذئب ديوان آخر هائل في جمالهِ بعنوان"خطُّ الهزلاج" والهزلاج هو الذئب الصغير وربمَّا يكون معنىٰ هذهِ التسمية الجميلة مسربَ الذئبِ الصغير. ولا أعرفُ مصدرَ ولعهِ بالذئبِ المستوحىٰ من الأساطيرِ الشعبيَّةِ بأنَّ الذئبَ يحملُ طبعاً غريباً يجمعُ الشراهةَ إلىٰ الجوعِ اللا نهائيِّ .. وهذا يذكِّرُنا بذئبِ الفرزدقِ وقصّتهُ مشهورةٌ في كتبِ أدبنا العربيِّ.. ولكننا نلمسُ في نصوصِ أبي لوز بعداً آخرَ ميتافيزيقيَّاً ونجدُ أيضاً حميميَّةَ اللغةِ البريَّةِ المتدفقةِ في لواعجِ روحهِ.. وهذا يعيدُ إلىٰ أذهاننا صورةَ الشعراءِ الصعاليكِ فنحاولُ الربطَ بينَ أبي لوز وبينَ عروةَ بن الورد والشنفرىٰ والسلَّيك بواسطةِ التعلُّقِ بحياةِ الصحراءِ وجموحها المطلقِ وبريَّتها المفتوحةِ علىٰ أقاصي النفسِ البشريةِ الحزينة لدىٰ الشاعر الذي يحملُ من نفسيَّاتِ الصعاليكِ الكثيرَ.

ولا عجبَ في هذا فالشاعر ينحدرُ بأصلهِ من أسرةٍ فلسطينيةٍ من بدوِ النقبِ هاجرت إلىٰ الأردنِ واستقرَّت هناك منذ أواسط القرن الماضي. بينما تنقَّلَ أبولوز بموجب عملهِ في بعضِ الدولِ العربيَّةِ كالإمارات والسعودية حيثُ عملَ في الصحافةِ الأدبيَةِ.

قالَ بعضُ النقَّادِ أنَّ ديوانَ الشاعرِ الثالث المسمَّىٰ نصوص الدم هو الذي شكَّلَ علامةً فارقةً ونقطةً فاصلةً في تجربةِ الشاعر وهو الذي حملَ لصاحبهِ الشهرة والأهميَّةَ في العالمِ العربي.. متذرِّعينَ

بمحاولات الشاعر الإنقلابَ علىٰ نفسهِ وذاتهِ الشعريَّة حيثُ حوىٰ صوراً طازجةً ورؤىٰ مستقبليةً ممسوحةً بالنبوءةْ.

ولكنني أعارضهم وأُرجِّحُ كفَّةَ الديوان الرابعِ "ضجر الذئب" لوفرةِ مادَّتهِ ونوعيَّتهِ الممتازة واختراعاتهِ وفتوحاتهِ الكبيرة فقد حاولَ شاعرنا في هذا الديوان أن يُقدِّمَ عصارةَ تجربتهِ في الشعرِ ويجلو عبقريَّةً واضحةً من غيرِ غموضٍ في مقطوعات شعريةٍ ومطوَّلتين رائعتين اعتمدَ فيها حشدَ المعاني المجنَّحة وتكثيفَ الصور.

يقول الشاعر في مطوَّلة "ضجرُ الذئب" حاشداً غيماً كثيفاً من المجازات والاستعارات

"تلالٌ من القرفةِ، والخبز المحموسِ، تلالٌ رآها جَدّي ذو الرِمّة وقالَ مصعوقاً: هذه غيمةُ الجَدْبِ، وبقي عصوراً وهو يتبعها بناقته، ولثام وجهه النّاحل مثلُ أعواد الذَرة، تلالٌ تأوي إلىٰ قمصان الخدر الذي يشبه الموت، ولا موت لك الآن، وأنت تفتْح هذه السّواحل البروزنية، مُتسلِّحاً بنبيذٍ يكفيك سبعَ ليالٍ. لو تحلُّ فيك روحُ غابةٍ، أو رَنينُ جبلٍ، لو تندفع بجسد ثورٍ إسبانيٍّ لا يقتل أحَدَ أصدقاء لوركا.. لو تزيح هذه التلال أو تمضي إلىٰ حتفكَ، وهناك علىٰ طرف السّاحل تتمدّد، بكامِلِ دمك الشبقيِّ، وقد طلعت من رأسك

زهرةٌ بريةٌ،

لا

تذبلْ"

أفتخرُ حينَ أقولُ أنني أنتمي إلىٰ شاعرٍ عربيٍّ لوكونيٍّ فذٍّ مسكونٍ بالحزنِ والألمِ والثورةِ والحبِّ والأحلامِ والخيبةِ من مصيرِ هذا الشعبِ المسكين ألا وهو شعبهُ ولا أزالُ أقفُ حتىٰ بعدَ قراءاتٍ لا تحصىٰ أمامَ ضجرِ الذئبِ في نشوةٍ شعريّةٍ عظيمةٍ منافحـًا " أتحدَّىٰ أيَّ شاعرٍ من الشعراءِ العربِ المتأخرينَ أن يكتبَ قصيدةً بمثلِ زخمِ وجماليَّةِ وإبهارٍ مجرَّةِ القتلىٰ.." القصيدة التي أقفُ أمامها بإكبارٍ وعزَّةٍ واحترامٍ بالغٍ ... وأعتبرها ركنـًا أساسيًّا في تكوين كلِّ شاعرٍ لا زالت تدغدغهُ تفاعيلُ الخليل الفراهيديِّ ... حتىٰ لو قرأتُ كلَّ شعرِ العالمِ فإنني أنتمي إلىٰ يوسف أبو لوز...!

****

صورةُ الشاعر بينَ الذئبِ والمرأةِ

(تأملاَّت سريعة في كتابةِ الشاعر الفلسطيني يوسف أبو لوز)

أردتُ هنا أن أكملَ ما بدأتهُ في مقالةٍ سابقةٍ عن الشاعر الفلسطينيِّ المقيمِ في دولةِ الإماراتِ العربيةِ يوسف أبو لوز فما زالتْ في نفسي تخيُّلاتْ كثيرة بشأنِ قصيدتهِ الحداثيَّة وطريقةِ كتابتهِ النثريَّة.

بعدَ نشري مقالي السابق طافت بنفسي تأملاَّت سريعة أحببتُ أن أوردها هنا في هذهِ الإطلالة العجلىٰ علىٰ عالمِ الشاعرِ المسكونِ بالضجرِ والقلقِ والجمال.

ليسَ من بابِ الصدفةِ أو العبثيَّةِ إذن أن يقولَ الشاعر محمود درويش عن يوسف أبو لوز أنَّهُ مستقبلُ الشعرِ الفلسطيني فقد تلقَّيتُ ردَّاً آخرَ من شاعرٍ مصريٍّ عريق هو عزَّت الطيري يؤكِّدُ أنَّ يوسف أبو لوز بحساسيَّتهِ المفرطةِ وطبعهِ الحادِّ كسيفٍ يمانيٍّ من أروعِ وأبدعِ الشعراءِ العربِ المتطلِّعينَ إلىٰ قصيدةٍ جديدةٍ حداثيَّةٍ بكلِّ ما تحملُ الكلمةُ من معنىٰ.. فقد كانَ يعرفُ درويشُ جيِّداً في أوائل التسعينيَّات أنَّ هذا الشَّاب الأسمرَ المعروقَ المتحدِّرَ من أسرةٍ فلسطينيَّةٍ من ملحِ أرضِ النقبِ والمترعرعَ في شمالِ الأردنِ في بيئةٍ

جبلِّيةٍ وعرةٍ.. يملكُ أدواتهُ الفنيَّةَ ولغتهُ الشعريَّةَ الطازجةَ المركبَّةَ والجديدةَ وطبيعتهُ البريَّةَ المتشوِّقةَ إلىٰ هدمِ أطلالِ الرتابةِ والتكرارِ والجمودِ في الذائقةِ العربيَّةِ..والبناءِ المحكمِ لنصٍّ مغايرٍ غائصٍ علىٰ المعاني الفريدة يخوِّلُ صاحبهُ الخجولَ الغاضبَ أبداً أن يكونَ أميرَ شعراءِ فلسطينَ الشباب عن جدارة.

أبو لوز شاعرٌ صعبُ المراسِ لا ينقادُ للناسِ بسهولة.. وربمَّا يأتي هذا الطبعُ من طبيعةِ شاعرنا المتقلِّبةِ القلقةِ والشديدةِ الحساسيَّةِ والرهافةِ إلىٰ جانبِ الحسِّ الحادِّ والصراحةِ العجيبةِ في زمنِ المداهناتِ والتملقِّ والرياءِ والمحاباةْ.وأوردُ هنا ما

يقولُ الشاعر ذياب شاهين عن يوسف أبو لوز في تقديمهِ لأمسيةٍ شعريَّةٍ لهُ: "يوسف أبو لوز شاعرٌ خارج الالتزام والأدلجة، وهو نموذج الأديب اللا منتمي، فلا يعمل بوحي من سلطة أو رقيب أو إيديولوجيا. الكتابة لديه تعني الحرية بكل بهائها، ولا يمكن له أن يكون بوقـًا لأي كان، وهو يعمل في منطقة لا تنتمي للسرب، يغرد خارجه فروحه عصية علىٰ التدجين، ولا تطيع إلا ما ينبثق من داخلها إبداعيـًا. يجد في نفسه ذلك البطل الذي لن يترجل عن صهوة حصانه أو يغمد سيفه، بل إنه مطمئن علىٰ أن الذي سيأتي هو الأجمل والأبهىٰ، كما أن غزارته في الكتابة التي أفنىٰ حياته بها ونذر نفسه لها

لن تتوقف، فالشاعر ما انفك مولعا بالحياة وما تنطوي عليه من شعر ونثر وحب وسفر وجنون."

أودُّ أن أشيرَ إلىٰ أن العمودَ النثريَّ الذي يكتبهُ الشاعرُ تحتَ عنوان " رفيف" في صحيفةِ الخليجِ الإماراتيَّة يتميَّزُ بدِّقةٍ عاليةٍ وعشقٍ واضحٍ جليٍّ لهذا النوعِ من النثرِ الذي يتدفَّقُ علىٰ الورقِ بكاملِ الحريِّةِ والشفافيَّةِ والموضوعيَّةْ... وعمودُهُ الذي لا يتجاوزُ أربعمائةَ كلمةً يصلُ إلىٰ أعلىٰ حدودِ التكثيفِ اللغوي الإيحائيِّ البليغِ حتىً أنَّهُ من خلالِ الكلماتِ القليلةِ هذهِ يوفي الموضوعَ المتناولَ حقَّهُ علىٰ أجملِ وجهٍ وأحسنِ صورةٍ.. أكثرُ ما ترهبني ليونةُ الحبرِ في يدِ شاعرنا عندما يكتبُ نثرهُ الحرَّ والمنفلتِ من بوتقةِ التراكيبِ المألوفةِ كطيرٍ سحريٍّ ملوَّنْ..

ومواضيعُ شاعرنا التي يكتبُ عنها كثيرةٌ ومتنوعةٌ منها الأدبيُّ ومنها السياسيُّ ومنها المعيشيُّ الراهنُ.. ومن أجملِ مقالاتهِ ذلكَ المقالُ الذي أسماهُ " في مديحِ الكتابة" ومقالهُ عن الشاعر المصريِّ الراحل أمل دنقلْ في ذكرىٰ سبعينَ عامًا لولادتهِ.. وتلكَ المقالات الكثيرة التي يدافع بها عن شعرِ التفعيلةِ ومن أهمِّها مقالهُ المعنون" هل أنقرضَ شعراءُ التفعيلةِ في مصر".

الشاعرُ يولي النثرَ أهميَّةً خاصَّةً ونجدهُ في روحهِ النثريَّةِ كما في شعرهِ أيضـًا محتشداً بالحنينِ ونارهِ الوجوديِّةِ القاتلةِ ومملوءاً بالزخمِ

الموسيقيِّ العالي والغضبِ العربيِّ الأبهىٰ.. وروعةُ نثرِ الشعراءِ المطبوعينَ تنطبقُ علىٰ العديدِ من الشعراءِ العربِ المتأخرِّين كنزار قبَّاني وأدونيس ومحمود درويش وعبد اللعزيز المقالح وأنسي الحاج وسميح القاسم وشوقي بزيع وغيرهم وربمَّا استثنينا بدر شاكر السيَّاب من هذهِ القائمةْ علىٰ حدِّ تعبير بعض النقَّاد العرب.

عندَ قراءتي لشعرِ يوسف أبو لوز فأكثرُ صورةٍ ترتسمُ في خيالي لهُ وأحسُّها مطابقةً لتجربةِ الشاعرِ ومناسبةً أكثرَ من غيرها لوصفهِ فهيَ صورةُ الشاعرِ بينَ الذئبِ والمرأةِ فكلُّ كيانهُ الشعريِّ يتراوحُ دائماً بينَ هذينِ المخلوقينِ فهما موتيفانِ أساسيَّان صديقانِ ولا يفترقانِ عن بعضهما في أغلبِ ما كتبَ أبو لوز من شعر.. فكلامهُ وروحهُ يعكسانِ في نظري العطشَ الذئبيَّ للشاعرِ إلىٰ جمالِ المرأةِ غيرِ المحدود واللا متناهي.

علىٰ الرغمِ من قولهِ :

لستُ ذئباً
ولا من طباعي العواء علىٰ الليل ظناً من الحيوانِ
بأن الليالي قطيع
وما جعتُ يوماً
ولا نبتُ صيداً
فمثلي من دون ناب

لستُ ذئبـًا
ولكن، تقنعتُ وجهـًا لذئبٍ
لكي لا تعضُّ حياتي الكلابْ.

يقول الناقد والشاعر الفلسطينيُّ علي الخليلي عن الشاعر يوسف أبو لوز في مقالةٍ جميلةٍ بديعةٍ تناولَ فيها ديوان الشاعر الأهمَّ "ضجر الذئب" : "ولكنني أستطيع أن أمحو مسافة ثلاثة عشر قرناً بين الفرزدق وأبو لوز، بقراءة غير مألوفة لكليهما، وصولاً إلى الذئب الشعري الذي صاغته المخيلة العربية بخبرة الدهر، أو أنها تجدد صياغته على الأصح جيلاً بعد جيل، بغير ما صاغته الطبيعة بتلقائية الصيغة منها وسكونها الموروث، حتى جعلت منه ثباتاً مادياً لا يتحول ولا يتبدل على الأرض.

قد يبدو للوهلة الأولى، أن ذئب الفرزدق هو ذئب الطبيعة، لا اختلاف بينهما، إلا ما شاءه الشاعر من "صحبة" بينهما غير عادية إلى حد الاستحالة، في القصيدة. ولكن التمعن النبيه، يخترق هذه الوهلة، ويعبر إلى ذئب خاص بهذا الشاعر، أراد، من خلال صياغته له، أن يحدثنا عن نفسه، أو عن الإنسان بشكل عام. هل ثمة في هذا المعنى (في هذه الصياغة – الصيغة الشعرية)، علاقة متنامية إلى درجة التماهي، بين الإنسان والذئب؟".

ومقالتهُ تلك المنشورةُ في الأيامِ الفلسطينيةِ من أجملِ ما وُصفَ بهِ هذا الشاعرُ الجامحُ كحصانٍ بريٍّ إلىٰ أقصىٰ فضاءِ اللغةْ.

كم نحنُ بحاجةٍ إلىٰ حفَّارينَ في ذاكرتنا الجمَّاليةِ علىٰ شاكلةِ هذا الشاعرِ المُصابِ بلعنةِ الحرفْ والمرهونِ لأبدِ النعناعِ... كم نحنُ بحاجةٍ إلىٰ استفزازيين نبوءيين جدد... وإلىٰ شعراءٍ يملأهم جوعُ الذئابِ إلىٰ الحريِّةِ والجمالِ والمعرفةْ .

كانون ثاني 2010

****

أ

أُنوثةُ القصيدةِ لدى الشاعر اللبناني شوقي بزيع

هو شاعر لبنانيٌّ من مواليدِ الجنوبِ في مطلعِ الخمسينيَّات. له حتىٰ الآن أكثر من عشرةَ مجاميعَ شعريةٍ بدأها بعناوين سريعة لوطن مقتول عام 1978 ولا زالَ من ألمعِ الشعراءِ العربِ وأرقِّهم حاسَّةً وأصفاهم شفافيَّةً.

لا أعرفُ في الحقيقةِ بماذا أُشبِّهُ قصائد هذا الشاعر المُتجذِّرِ في أديمِ الأنوثةِ وفي خميرةِ الجمالِ.. أأشبِّهها بلمعانِ أجسادِ النساءِ اللواتي كانَ يتلصَّصُ عليهنَّ طفلاً من وراءِ أوراقِ الأشجارِ التي تشبهُ بريقَ الذهبِ؟؟ أم أأشبِّهها بالأزهارِ البيضاءِ اللوزيَّةِ ؟؟ أم بالأرضِ الجنوبيَّةِ التي عشقها بكلِّ سهولها وجبالها وفتنةِ وديانها وروعةِ تضاريسها؟.. فهذا الشاعرُ يستطيعُ أن يُدخلكَ إلىٰ حلقاتِ الوجدِ الصوفي الجماليِّ الشعريِّ بلمحةِ البصرِ... وبدفعةٍ واحدةٍ يستطيعُ أن يُبلِّلَ قلبَكَ بالماءِ الغامضِ والبرقِ الحزين.

في قصائدهِ الكثيرُ من فتنةِ الأنوثةِ العصيَّةِ علىٰ الفهمِ.. فأنتَ تقفُ وكأنكَ أمامَ إعجازٍ يملأُ قلبَكَ بالانبهارِ وروحكَ بالإعجابِ الرفيع.

ألفاظُ شوقي بزيع منتقاةٌ بدقةٍ ورهافةٍ وحسٍّ موسيقيٍّ بارعٍ وذكاءٍ شعريٍّ نادرٍ قلَّما وجدتهُ عند الشعراءِ الذينَ يكتبونَ قصيدةَ التفعيلةِ.

فعباراتهُ الشعريَّة شفافةٌ كالماءِ وليِّنةٌ كالغيومِ تنسابُ في نفسكَ كما ينسابُ النهرُ الحافي في دروبِ الحصىٰ. فتدغدغُ عواطفكَ وتوقظُ ما هجعَ من أحلامكَ الخضراء. وتحملكَ وتحرضِّكَ علىٰ فعلِ الحُبِّ والتأملِ في شظايا الأملِ.. والحلولِ في بهاءِ الكونْ.. يقولُ في إحدىٰ قصائدهِ عن مأساةِ الشاعر الحديث:

دائمـًا يكتُبُ ما يجهله
دائمـًا يتبع سهمـًا غير مرئي
ونهراً لا يرىٰ أوّلَهُ
ينهر الأشباح كالماعز عن أقبية الروح
وكالسّاحر يُلقي أينما حلّ
عصا الشك
ليمحو بعضُهُ بعضـًا
مقيمٌ أبداً في شبهة البيت
ولا بيت له
كلما همّ بأن يوضح يزداد غموضـًا
وبأن يفصح يزداد التباسـًا،
والذي يكتبه يحجُبُهُ
هي يدري أن بعض الظنّ إثمٌ
ولذا

يومئ للمعنىٰ ولا يقربُهُ
يدّعي الشاعر أن الشّعر ذئبٌ
فيقول الناس:
إن هو إلاّ شاعرٌ
والشّعر أضغاثُ رؤىً خادعةٍ
لم يصدّق أحدٌ ما زعم الشاعر،
لم ينتبه الناس إلىٰ الموت
الذي ينهش في هيئة ذئبٍ
جسمُه الرثّ
لكي يستخرج المعنىٰ الذي في قلبه،
الناسُ نيامٌ
فإذا الشاعرُ مات
انتبهوا!.

في هذهِ القصيدة استشرافٌ لنبوءةِ الشاعرِ وفيها بعدٌ رمزيٌّ لعبثيَّةِ ما يحاولهُ في حياتهِ. ولكن الصياغة في قمةِ الذكاءِ الشعريِّ والمكاشفة.

أوَّلُ معرفتي بالشاعر شوقي بزيع كانت من خلالِ قصائدَ متفرقة في الصحافةِ العربيةِ وما كانَ يصلنا من نتفِ أشعارهِ في صحافتنا

المحليَّةِ في الداخلِ الفلسطيني وقد كانَ دسماً علىٰ قلَّتهِ. ثُمَّ في أيَّار عام 2001 وقعَ بصري في معرضِ الكتابِ الذي تقيمهُ مكتبةُ (كلُّ شيء) في حيفا علىٰ ديوانيهِ الصغيرين (قمصان يوسف) و(كأني غريبك بينَ النساء) فولجتُ عالمهُ الشعريَّ السحريَّ من خلالِ ديوانيهِ هذين وخصوصاً الديوان الثاني الذي راقَ لي.. دخلتُ إلىٰ مملكتهِ المعلَّقةِ فوجدتُ في أروعِ دواوينهِ هذا اشتغالاً مُتقناً علىٰ الصورةِ الشعريَّةِ وعلىٰ تركيبِ الجملةِ في القصيدةِ وعلىٰ التدويرِ البديع الذي لا يخرجُ بكَ عن سياقِ الحالةِ الموسيقيَّةِ العامةِ في النصِّ.. للوهلةِ الأولىٰ تشعرُ أنَّكَ أمامَ شعرٍ جديدٍ تعبَ صاحبهُ عليهِ كثيراً..

فهو موصولٌ بأصالةِ اللغةِ المصفَّاةِ وصرامةِ أساليبها وغزارةِ معانيها ومفرداتها الشعريَّةِ التي كأنها قد نُحتت من الصخرِ الليِّن.. وفي الوقتِ نفسهِ نجدُ أخيلتهُ وكأنها تنهمرُ علينا بصورهِ المخترعةِ من عالمِ المستقبلِ وفضاءاتِ قصيدةِ النثرِ الرحبةِ الزاهيةِ بالأقواسِ القزحيَّةِ. والمشبعةِ بالرذاذِ الضوئيِّ.

فنيَّةٌ التجاورِ والتناصِ والمحاورة موظفةٌ بدقةٍ متناهيةٍ في السياقِ وفي الجملِ المحمولةِ علىٰ أنفاسِ الأنثىٰ المعشوقةِ البعيدةِ أو ربمَّا المستعصيَّةِ علىٰ يدِ الشاعرِ.

وهذا ربما تأثيرٌ من شعراءِ النثرِ البارعين ومنهم عبده وازن وعباس بيضون.. فشاعرنا يعترفُ أنهُ يصبُّ تقنياتِ قصيدة النثر وجمالياتها في قوالب موسيقية عبر مجال التفعيلةِ اللينةِ الطيِّعة.. التي ترشِّحهُ مع شعراءٍ قليلينَ ليكونَ أجملَ فرسانها بعدَ رحيلِ أميرها محمود درويش.

تروقنا في قصائد شوقي أيضـًا براعةُ السردِ الذي يدخلُ في الحوارِ الذاتي للقصيدةِ حتىٰ أنَّ بعضَ النقادِ العرب عزا هذا الأمرَ إلىٰ تأثُّرِ شاعرنا بالفنِ الروائي وأساليبهِ. وهذهِ الميزة من خصائصِ شوقي بزيع بل من أهمِّ ميِّزاتهِ.

للأشياءِ في شعر شوقي بعدٌ آخرُ غيرُ محسوسٍ فللصيفِ طعمٌ غريبٌ يختلفُ عنهُ في الواقعِ وللفتةِ الأنثىٰ أيضـًا مسحةٌ تليقُ بحفيداتِ دعد وليلىٰ وجولييت وكليوبترا وإلزا.. حتىٰ الليل والأزهار ومسمَّياتُ الطبيعةِ تكتسبُ روحـًا وقيمةً وملمسـًا خاصـًا يشي بالسحرِ وينضحُ بمعناهُ الكامنِ وغموضِ تكوينهِ.

فإنني عندما أقرأُ لشوقي أجدُ أنَّ النساءَ جديراتٌ بهذا الحدبِ الذي يمحضهُ لهنَّ الشاعر العاشقُ فها هو يُضفي عليهنَّ جمالاً علىٰ جمالٍ ويوشحهنَّ بالفتنةِ الغريبةِ المستغلقةِ ومناديلِ الهيام.. ويجعلهنَّ كائناتٍ من أحلامٍ وسرابٍ.. وهذا أجملُ ما في عملِ الشعرِ وأروعُ ما في لعنةِ الكلام.

فلشاعرنا مقدرةٌ عجيبة علىٰ تنقيةِ عالمِهِ الشعريِّ من الشوائبِ والزوائدِ وإضفاءِ مسحةِ الحلمِ علىٰ الواقعِ المجبولِ بالحديد.

فشوقي وعمر بن أبي ربيعة سهمان شعريان جامحان يصدران عن قوس واحدٍ كما قالت العرب. فهما يتداخلان هذا في ذاك ولا تفصلُ بينهما لغةُ التماهي الحسيِّ.. ولا ينفصلُ وجدُ أحدهما وهيامهُ عن لهفةِ الآخرِ تجاهَ الأنوثةِ ومعناها. تلكَ الأنوثةِ التي يحبَّانِ كلٌّ بمقدارٍ والتي طفقا يصورانها حسيًّا رغمَ أن أشواقهما تجريديةٌ بحتةٌ وسرياليةٌ حداثويةٌ تنهضُ من انكساراتِ اللغةِ وأفراحها المخبوءةِ..

أستطيعُ القولَ أنَّ عمر بن أبي ربيعة قد بُعثَ لنا بعدَ أكثرَ من ألفٍ وأربعمائةِ عامٍ في ثيابِ شوقي بزيع الشاعر الثائرِ علىٰ رتابةِ أحلامهِ الشعريَّةِ.

للشاعر قصائدُ بالغةُ الجمالِ والخصوصية اللفظيةِ والشفافيةِ.. قصائدُ تبلغُ حدَّ النشوةِ والكمالِ بامتيازٍ.. منها قصيدة كأني غريبك بينَ النساء فهيَ من الروعةِ والدقةِ في التصوير بحيثُ تجعلكَ تذهلُ عمَّا قرأتَ قبلها من شعرٍ..

يقولُ في مطلعها:

يدُكِ الأرضُ رابضةٌ منذُ أكثرَ من صخرةٍ فوقَ صدري

وطافيةٌ كالزمانِ علىٰ قُبَلي الخاسرةْ
تتجلِّينَ لي كمآذنَ مضمومةٌ حولها قبضةُ الريحِ
أو كبلادٍ تضيءُ لها كالسماواتِ أطيافك الغابرةْ
تتجلينَ لي مثلما يتجلَّىٰ الكسوفُ علىٰ جبلٍ شاهقٍ
أو كعاصفةٍ تتواجهُ مع نفسها في خريفٍ بلا شرفاتٍ
لكي أتنسَّمَ تفاحكِ الدنيويَّ
كما يتنسَّمُ وردُ المقابرِ رائحةَ الآخرة.

ألا نسمعُ هنا أصداءً للمزاميرِ ولنشيدِ الإنشادِ؟ ألا نلمسُ تقاطعاً حتميّاً مع أنغامٍ أوركستراليةً تتنزَّلُ من سماءٍ حزينةٍ وبعيدةِ الجرح؟

ألا تذكِّرنا انسيابيةُ هذهِ القصيدةِ وتهاديها بموسيقىٰ الغرفِ الهادئةِ؟

والمطالعِ الهوميريةِ العاليةِ النبرةِ.. ؟ والحادةِ كالسيفِ اليمانيِّ؟

هذهِ القصيدة العامرةُ تستولي عليكَ وتخلبُ قلبكَ.. إنها نشيدٌ رزينٌ صارخٌ لتمجيدِ الأنوثةِ.

حتىٰ لو كنتَ لا تعرفُ شوقي بزيع فإنَّكَ ستختارهُ من قراءةِ أوَّلِ سطرٍ شعريٍّ لهُ في قصيدةٍ عابرةٍ تجدها في مجلةٍ هنا أو جريدةٍ هناكَ ولكنكَ لن تنساهُ أبداً.. لا تستطيع أن تتفلَّتَ من سحرِ ماروتهِ الطاغي وتوحشِّ انهماراتهِ وبوحهِ العالي.

وسيحصلُ لكَ كما حصلَ لقارئٍ إتصلَ بقناةِ الجزيرةِ وكانت تبثُّ برنامجاً أدبياً وقالَ مصارحاً المذيعَ بأنَّ في العالمِ العربيِّ شعراً جيِّداً يستحقُّ القراءةَ وعندما سألهُ المذيعُ بعضَ أسئلةٍ يحاولُ فيها استجوابهُ.. قالَ هذا المواطنُ العادي جدا والمثقفُ أنَّ هنالكَ في لبنانَ شاعرٌ غيرُ معروفٍ كبقيةِ النجومِ من الشعراءِ ولكنهُ شاعرٌ حقيقيٌّ وساحرٌ بكلِّ ما تنطوي عليهِ هذهِ الكلمةُ من أبعادٍ ومعانٍ.. يستحقُّ القراءةَ والاهتمامَ في محيطِ هذا الغثِّ من الشعرِ. قالَ القارئُ الحقيقيُّ أن الشعراء الجيِّدين كشوقي بزيع يجرفهم طميُ القصائد الركيكة في عصرِ الكمِّ ولا يجدهم إلاَّ من يُحسنُ اكتشافَ اللؤلؤِ تحتَ الرمالِ.. لم أستغرب حينها كلامه وابتسمتُ ابتسامةً خفيفةً وقلتُ في سرِّي شكراً لشوقي بزيع الذي يزيدُ أحلامنا جمالاً.. وينقعُ جفافَ أرواحنا بالرذاذ.. ألفَ شكر...!

****

قُبلةٌ للشاعر العراقي عبد الوهاب البياتي

(في ذكرىٰ رحيلِهِ العاشرة)

عبد الوهاب البياتي أحدُ أعمدةِ الشعرِ العربيِّ الحديث الثلاثة.. إضافةً إلىٰ بدر شاكر السيَّاب ونازك الملائكة. ويحتلُّ البياتي في اعتقادي المكانَ الثاني بعدَ السيَّاب من حيثُ الأهمِّية والدور الريادي الذي لعبهُ في تطويرِ الشعرِ العربي الحديث.

خصوصـًا في فترةِ الخمسينات.. أما بعد ذلك فقد انطلقَ وحلَّقَ عاليـًا في تجربتهِ الشعرية.. بعدَ احتكاكهِ بحركة الشعر العالمي وتأثرهِ بها.

حينَ أخلىٰ السيَّابُ لهُ الساحة الشعرية برحيلهِ عام 1964 فجدَّدَ في نظري في مضمونِ القصيدة وأعطاها بعداً إنسانيـًا أكثر.

نستذكرهُ اليومَ بعدَ مرورِ عشرِ سنوات علىٰ رحيلهِ عن عالمنا فنسترجعُ تلكَ الضجة الهائلة والدويَّ الكبير اللذين أحدثهما برحيلهِ. فنحسُّ ونحنُ نعيدُ تقليبَ صفحاتِ الماضي ونُمعنُ النظرَ في عناوينِ ذاكَ الحدثِ المفجعِ مثلِ(رحيلُ آخر العمالقة) و(انهيارُ

آخر ناطحةِ سحابٍ للشعرِ العربي) وغيرها الكثير.. نحسُّ بأننا أمامَ تجربةٍ شعريةٍ عظيمةٍ أرهبَت حتىٰ السيَّابَ في أوائل الخمسينيَّات.

وجعلَت صوتَ البياتي ندَّاً قويَّـًا ومنافسـًا يُحسبُ لهُ ألفُ حسابٍ في الخصومةِ الشعريَّةِ وأيضـًا في الزمالة اللدودةِ في اجتراحِ القصيدةِ الحرَّة للسيَّاب ونازك.

خلالَ تعرُّفي علىٰ البياتي عام 1998 وقراءتي لدواوينهِ كلِّها في مرحلةٍ لاحقةٍ علىٰ تعرُّفي بخصمهِ الألدِّ السيَّاب لم يجذبني كثيراً حينها.. فقد اكتشفتُ سرَّهُ بعد عدةِ سنوات من قراءتي الأولىٰ لهُ. في البدايةِ وجدتُ لغتهُ مختلفةً عن لغةِ بدر.. وكانت تتمحور حولَ الهمِّ الإنساني وتنفخُ في بوقٍ ثوريٍّ حميم وشموليٍّ جامعةً أطيافـًا ذاتيةً رفيعةً في أفقٍ إجتماعيٍّ وإنسانيٍّ رحبْ.

فالبياتي عرفَ منذُ البدايةِ أنَّ عليهِ أن ينطلقَ إلأىٰ سماءِ العالمِ وينعتقَ بالألوانِ الكثيرةِ محرِّراً ذاتهُ من قيودِ الرومانسيةِ والذاتيةِ التي أثقلتْ روحَ السيَّاب.

كانَ عليهِ أن يسبحَ في فضاءٍ جديدٍ لم يسبقهُ إليهِ أحدٌ.. فها هو يسافرُ إلىٰ عاصمةِ روسيا موسكو ويزورُ دولَ شرق أوروبا وإسبانيا ومصر (التي مكثَ فيها زمنـًا) وأمريكا اللاتينية طامحـًا في فتحِ كوَّةِ الطائرِ الحبيسِ في قلبهِ منذُ الفِ قرن.

تعانقَ البياتي فكريًّا وروحيًّا مع شعراء عالميين كثر من بينهم ناظم حكمت وبابلو نيرودا وأكتافيو باث ورافائيل ألبرتي وغيرهم من مثقفي الشيوعية وثوَّارها وعلىٰ رأسهم تشي جيفارا. ولا أنسىٰ علاقتهُ بالروائي الكولومبيِّ الكبير والمتوَّجِ بنوبل جابرييل غارسيا ماركيز وإشادةِ الأخيرِ بقيمتهِ ومنزلتهِ في أكثر من مناسبة ومهرجانٍ أدبي.

اكتشفتُ فيما بعد أنَّ البياتي يؤثِّر في القارئِ أكثر من سواهُ من الشعراء العرب المعاصرين. فأصوات البياتي قلَّما تغيبُ من ذاكرة أيِّ شاعرٍ عربيٍّ ستينيٍّ أو سبعينيٍّ أو حتىٰ ثمانينيٍّ .. حتىٰ أنا لم أستطع أن أتفلَّت بسهولةٍ من تأثيرِ جملتهِ الشعريةِ وسحرِ تعابيرهِ الطاغي.

مرحلةُ الشاعر الذهبيةُ تفتَّحت ما بعدَ سنواتِ الستين خصوصاً في السبعينيَّات فما قبل هذهِ المرحلة كانَ البياتي يميلُ إلىٰ سهولةِ القصيدةِ وقصرِ جملها بالرغمِ من براءةِ ألفاظهِ فقد كنَّا نجدُ في ثمارهِ بعضَ الفجاجةِ ربمَّا لكثرةِ قوافيهِ التي كانت توحي بالسجع وتبعثُ علىٰ الملَلْ.. وأيضاً لتكرارهِ الجملة الواحدة في قصائد كثيرة. مرحلتهُ التدويرية أنضج بكثير وأكملُ وهيَ التي غيَّرت المفهوم السائدَ بالنسبةِ للقصيدة الوجودية الرازحة تحتَ أعباءِ الحياةِ والمشرَّدة في سهوبِ العالمِ الثالث. البياتي شاعر شموليٌّ بالمفهوم

الحديث والدقيق للكلمة. ولكنهُ أحد أعظم ممثلِّي تيَّار السهل الممتنع في القصيدة العربيةِ الحديثة.

يأتي ولعُ البياتي بالصوفيين من شعورٍ عميقٍ بانتمائهِ لتراثهِ الديني وارتباطهِ بالموروث الجماليِّ الضخمِ للشعرِ الصوفي. فقد أغرمَ بالحلاج وابن الفارض وابن عربي وجلال الدين الرومي وحافظ الشيرازي منذُ نعومةِ أظفارهِ. ولم يضفي عليهِ هذا التعلُّقُ بهولاءِ إلاَّ قدسيةً وأصالةً وبريقـًا وبهاءً في عيونِ مجايليهِ وأندادهِ من الكتَّابِ والشعراءِ العالميين. فهو لم يختر أقنعتهُ عبثـًا ولم يتقمَّص شخصيات أبطالهِ من بابِ اللهو والتلاعبِ والمجانيَّة. فهو يحملُ من وضاحِ اليمن وحافظ الشيرازي وبابلو نيرودا ولوركا الأشياءَ الكثيرة. حتىٰ أنهُ في النهايةِ قد انكسرَ تحتَ أعباءِ أشواقِ ابنِ عربي أستاذهِ وشيخهِ علىٰ مقربةٍ منهُ في دمشق منفاهُ وقدَرهُ.

ولا أردِّد الآن إلاَّ ما ردَّدتهُ منذ عشر سنوات في مرثيةِ شاعرِ الحبِّ والمنفىٰ والعذاب والأمل:

ومن بعد سبعينَ عامـًا من الحبِّ والجوعِ والذكرياتْ
يعود الغريبُ إلىٰ دارهِ من بلادِ الشتاتْ
ومن بعد هذا النزيفِ الحرورِ بصحراءِ نجدِ
وثلجِ سيبيريا يسافرُ من بحر وجد لوجدِ
يعودُ السنونو إلىٰ وكرهِ

يحطُّ الرحالَ ويُلقي ذخيرةَ شوقٍ قديمٍ علىٰ ظهرهِ
سلوهُ لماذا يعانقُ صمتَ الدجىٰ والبحارْ ؟
ويرقدُ في جفنِ هذا النهارْ ؟
سلُوهُ وفي مقلتيهِ الجوابْ
كضوءٍ بهِ يستنيرُ الضبابْ
لماذا يصيرُ لهيبُ العذابْ
رماداً ويُطوىٰ جناحُ السفارْ ؟
ويبردُ كالثلجِ قلبُ الحياةْ ؟
وتنطفىٰءُ النارُ...
تخبو قناديلُها الذكرياتْ ؟

****

محمد علي شمس الدين..

بين لغةِ الحلمِ وهاجسِ الحداثة

أُعجبتُ بكلامهِ عندما رأيتهُ يتحدثُ علىٰ فضائيّةٍ سعوديةٍ عن سرياليةِ المتنبي..قالَ أنَ بيت المتنبي المشهور(نحنُ قومٌ ملجنٌّ في ثوبِ ناسٍ فوقَ طيرٍ لها شخوصُ الجمالِ) أروعُ ما لدىٰ العرب من تراثٍ سرياليٍّ..ولو عاصرَ دالي المتنبي لرسمَ هذا البيت رسماً يدهشُ كلَّ نقَّادِ الفنِ الحديثْ. كانَ ذلكَ منذُ سنواتٍ عدَّة.. كانَ الشاعر ذكيَّاً في طريقةِ نقاشهِ وعرضهِ لمشكلاتِ الشعرِ العربي الحديث.. ومراوغاً في الإجابةِ علىٰ الأسئلةِ الشائكة ومحدِّثاً لبقاً وشاعراً يملكُ ثقافةً استثنائيةً فذَّةً لا زالت تبهرني وتدهشني حتىٰ اليوم.

كانَ يتدفَّقُ في كلامهِ كالنهرِ البريء وكنتُ في شوقٍ مُشتعلٍ بكلِ حرائقِ الشعرِ لسماعهِ.

ولا أُنكر أنني متأثِّرٌ بالشعرِ اللبناني تأثُّراً جارفاً وخصوصاً بالجنوبي منهُ وشاعريهِ الجميلين محمد علي شمس الدين وشوقي بزيع.. اللذين خلخلا بقصيدتهم التفعيلية وتجديدهم الجمالِّي الجريء مسلَّمات القصيدة العربية الحديثة وغيَّرا مسارها بقوة كأنهما

أحفادُ بروميثيوس وحملةُ مشعلهِ المقدَّس في الأرضِ المظلمة.أو أحفادُ ديكِ الجنِّ الحمصي في بلادِ الشام. ديكِ الجنِّ الحمصي الذي تغنَّيا بهِ وبعشقهِ وغيرتهِ وجنونهِ طويلاً.

محمد علي شمس الدين شاعر يدينُ لهُ فنيَّاً وعلىٰ مستوىٰ بناءِ القصيدة الحديثة الكثيرُ من الشعراءِ العرب فهو يعرفُ ماذا يريدُ من الشعرِ ومن نفسهِ أيضاً. تعرفتُ إليهِ عبر دواوينهِ الشعرية التي لا تتركُ القارئ في اطمئنانهِ الشعري أبداً وتدفعهُ للقلقِ المضني والبحث عن الآفاقِ الجديدة المجهولة.

كنتُ قد قرأتهُ بنهمٍ ضارٍ قبلَ عدَّةِ سنواتٍ فأدركتُ انني أقفُ أمامَ قامةٍ سامقةٍ وضاربةٍ في أقصىٰ سماءِ اللغة. لمستُ في كتابتهِ الشعريةِ نموذجاً شعرياً حداثوياً نقيَّاً من الزوائدِ والشوائبِ ومكتوباً بحساسّيةٍ عاليةٍ وتركيزٍ جمٍّ قلما وجدتهما عند غيرهِ من الشعراءِ المعاصرين. فهو يتغلغلُ بحسِّهِ الصافي وذكائهِ الفطري إلىٰ جوهرِ الحداثةِ وسرِّها الدفين متشرِّباً بها حتىٰ النخاع. ومشبعاً ظمأ فؤادهِ وروحهِ التي ترفرفُ في محيطٍ يلهثُ شعراؤهُ في شمسِ الصحراءِ العربيةِ القاسية.

أظنُّ أنَّ الكثير من الشعراءِ العربِ تأثروا ظاهرياً بالحداثةِ المستوردةِ من الغربِ وربما بأفكارها أيضاً ولكنهم ظلَّوا بعيدينَ عن نفسِّيتها والخوض في غمارها ذلكَ أنهم لم يرضعوا لبانها في المهادِ

ولم يدرجوا علىٰ هواها في الطفولة وإنما تلَّقوها عن مدارسَ ومنظِّرين وشعراءٍ تأثروا بها أكثر من معانقة نارِ حقيقتها. ومعرفةِ خفاياها.

ولا أريد أن أشيرَ إلىٰ شعراءَ كأدونيس وعبد العزيزِ المقالحِ هنا وهم في نظري مجدِّدون في الأشكال الشعرية أكثر منهم مجدِّدين في المضامين. بل أكتفي بالقولِ أنَّ شعراءَ الحداثةِ المرموقينَ بذلوا قصارىٰ جهدهم لكي يصلوا إلىٰ حالةِ الرضىٰ النفسي حولَ تجاربهم الشعريةِ. ومنهم محمود درويش وسعدي يوسف ونزيه أبو عفش وحسب الشيخ جعفر ولكنهم لبعدهم عن منابعِ الثقافةِ الفرنكفونية في فترةٍ مبكِّرةٍ علىٰ تفتُّحهم الشعريِّ أخفقوا في كتابةِ قصيدةٍ عربيةٍ ينطبقُ عليها مقياسُ الحداثةِ بكلِّ الجماليَّاتِ والعناصرِ المتعارفِ عليها.

يقول حولَ سؤال عن الماضي في شعرهِ وتجليَّات الحياةِ الجميلة : (عمليّة القطع مع السيرة ليست سهلة ولا صحيحة. الحداثيّون في الغرب Modernists قطعوا مع الماضي، حتىٰ إن (مایاکوفسكي) اعتبر الرومنسيّة كعضو مريض في جسم حيّ. ايضاً (يوجين يونسكو) المسرحي السوريالي الفرنسي، كتب هجائيات لفكتور هوغو. ثمّ استيقظ العالم علىٰ ما بعد الحداثة ليجد أن الحداثيين لم يفهموا جدل العلاقة مع الماضي. لا شيء يموت. كلّ

شيء يولد. الولادة هي تجدّد. كلّ قصيدة تخزن كلّ الشعر. لا يؤسّس تجاوز علىٰ أي جهل. المعادلة هنا دقيقة جدّاً وخطيرة.)

شمسُ الدين شاعر ثقافةٍ مركبَّة كما يقولُ عنهُ المستشرق الإسباني بدرو مارتينيز مونتافيز فما أن فتحَ عينيهِ علىٰ دنيا الشعرِ إلاَّ وجدَ نفسهُ متوفِّراً علىٰ منابعِ الكبارِ من الشعراءِ النبوءيونَ أمثال ملارمه وبودلير ولوتريامون ورمبو هؤلاء اللذينَ جعلوا للقصيدةِ رؤىٰ مجنَّحةً ولما يتصِّلُ بها من طقوسٍ لكتابتها أداةً لفهمِ واقعِ الحديدِ والذهب.. وخيطاً رفيعاً من النورِ يربطهم بالوحيِ ولغةِ الأحلامِ الشفيفِ الرفيعة.

لا أعرفُ سبب قلَّةِ انتاج الشعراءِ اللبنانيين وعلىٰ رأسهم محمد علي شمس الدين الذي لم ينتج نصف ما أنتجهُ مجايلوهُ فلهُ عشرة دواوين صغيرةِ الحجمِ كبيرةِ القيمةِ أولها(قصائد مهرَّبة إلىٰ حبيبتي آسيا) وآخرها (الغيومُ التي في الضواحي) الصادر عام 2008 الذي نلمسُ فيهِ لوعةَ ومرارةَ حرب تموز عام 2006ولا يفارقنا شبحُ الحزن علىٰ ما حصلَ بالجنوب.ولهُ أيضاً ثلاثةُ كتبٍ نقديةٍ هي رياح حجرية ..والطواف.. وحلقاتُ العزلة. ويحضرني الآن أيضاً الشاعر اللبناني أنسي الحاج فقد بنىٰ مجدهُ الشعري علىٰ أقَّل من سبعةِ دواوين.فالمسألة مسألة كيف لا كم في الكتابة.

منذُ ديوان شاعرنا الأوَّلِ (قصائد مهرَّبة إلىٰ حبيبتي آسيا) الصادر عام 1975 وهو في ارتقاءٍ تعبيريٍّ مستمرٍ نحوَ الكمالِ المجازيِ. فهو يشدِّد كثيراً علىٰ الناحيةِ الصورية والحسيَّة في قصيدتهِ. ونجدُ في ديوانهِ هذا أنهُ منذُ بداياتهِ لا يقولُ كلاماً مجانياً ولا يحفلُ بالشعاراتِ المستهلكةِ ولا بالتقريرية. هناكَ فقط ايحاءٌ شعريٌّ فذٌّ وتراكيب منحوتةٌ من أقصىٰ الروح.

نراهُ بعدَ ذلكَ يصعدُ في أُفقٍ تخييلي مزركش بالألوانِ الضاريةِ وفي اتجاهٍ عموديٍ في أعمالهِ اللاحقةِ مثل(أما آنَ للرقصِ أن ينتهي؟) فنلمسُ هذا التمرَّدَ الخطيرَ علىٰ ترسُّباتِ القصيدةِ العربيةِ من أواخرِ الستينياتِ إلىٰ يومنا هذا.ونجدُ أيضاً التبرَّم الواضحَ بأساليبِ اللذينَ يرتكزونَ علىٰ التراثِ من غيرِ أن يفهموا متطلباتِ الكتابة الشعريةِ الجديدةِ ووعيها العميق. فهم لا يعترفونَ بأنَّ وراءَ الليلِ التريِّ شمساً للحرية.

فالقصيدةُ مشروعُ مغامرةٍ وتحدٍّ دائمٍ وليسَ في الشاعرِ الإشكاليِّ أيَّةُ صفةٍ تدعو إلىٰ القناعةِ والكفافِ علىٰ مستوىٰ الخيالِ والرؤيا.. فهو في بحثٍ مستمرٍ عن الأمثل والأجدر.

وفي قلقٍ وجوديٍّ كأنَّ الريحَ تحتهُ وكأنهُ علىٰ سفينةِ السندبادْ.

إذن نحنُ أمامَ شاعرٍ عربيٍّ اشكاليٍّ يبلغُ في كتابتهِ أقصىٰ حدودِ الاشكاليةِ والجمالِ وما بعدهما تغني قراءتهُ كلَّ بضعةِ شهور عن

عشراتٍ غيرهُ ولهذا السبب أجدني أعودُ إليهِ كُلَّ بضعةٍ شهورٍ لأقفَ علىٰ مصادرِ الرحيقِ والشهدِ. لا لشيٍ فقط لجدَّةِ معانيهِ وكثافةِ صورهِ وأصالتهِ. وهذا ما حدا ببعضِ النقادِ العربِ إلىٰ الإشادةِ بأهميةِ تجربتهِ والإشارةِ إلىٰ قدرتهِ غيرِ المسبوقةِ علىٰ استعمالِ الرموزِ والأساطيرِ وتوظيفها بالشكلِ اللائق.

فهو قيس وجميل وكلُّ العشَّاق العرب في آن واحدٍ وهو يستندُ علىٰ التراثِ العربي بقدرِ ما يستندُ علىٰ التراثِ الغربي.. يقولُ في آخرِ دواوينهِ (الغيوم التي في الضواحي) في قصيدة (وجهٌ لليلىٰ) ويرتكزُ علىٰ ما تبقَّىٰ من الضوءِ في عينيِّ ليلىٰ العربيةِ كما ارتكز أراغون علىٰ عينيِّ إلزا من قبلهِ:

باب ليلىٰ
كان عشقي لها يعذبني
وموتي جميلا
علىٰ قاب قوسين من بابها
يصطفيني
تقول: وهل أنت قيس العليل؟
أقول: نعم
وأضيف: القتيل
إن ليلىٰ

التي لا تزال هناك
محجبة لا تراني
تحيط بها نسوة من حديد
ورجال عبيد
ونسر عجوز علىٰ بابها
يرصد القادمين إليها
فيا أهلها في العراق
اسمعوا زفرتي
وهي تمضي مع الريح
أو دمعتي
وهي موصولة بالفرات الجريح
من الشام تمضي
مواكب عشقي
وتحمل راياتها
في الفلاة
وتحدي لها
بالغناء الحداة
ولكن ما حيّر العقل
حتىٰ براه الجنون

أن ليلىٰ
-التي مت في حبها ألف عام-
تخون

أعتقدُ أننا نحنُ العرب محظوظونَ بشاعر مثل محمد علي شمس الدين متمِّم مسيرة بدر شاكر السيَّاب الذي أحبَّهُ وتأثَّرَ بهِ ولكنهُ اختلفَ عنهُ.

****

الطيِّب صالح يهاجرُ جنوباً

لم أقرأ رائعة الطيِّب صالح موسم الهجرة إلىٰ الشمال إلاَّ مؤخَّرا قبلَ عدةِ شهور وكم عاتبتُ نفسي لذلكَ.. منذ سنينٍ وأنا أتلهَّفُ لقراءتها ولم أفعلْ رغم ما كنت أسمعُ عنها من أهميَّةٍ أدبيةٍ رفيعة منذ سنواتٍ عديدة وأنها تضيفُ لقارئها الكثير.. حتىٰ أنها اختيرتْ عام 2002 ضمن أهمِّ مائة رواية عالمية وقد اشترك مئةُ ناقد وكاتب عالمي من أكثر من 50 دولة لتقييمِ الأعمال المختارة.

موسمُ الهجرةِ إلىٰ الشمال روايةٌ تستحوذُ علىٰ كلِّ مشاعركَ بلا استئذانٍ وتضربكَ كأنها إعصار إفريقيٌّ قادمٌ من الشمالِ حيثُ عاشَ بطلها وغامرَ وقاربَ بينَ جسدِ أوروبا البضِّ الفائرِ المنادي بألفِ فمٍ المشتعلِ بالرغباتْ وجسدِ أفريقيا الذائبِ شوقاً ولهفةً إلىٰ حريَّةِ المعرفةِ وحريَّةِ الحبِّ والحياةْ.

تعتبر هذه الرواية الخالدة من أروع الروايات العربية التي تناولت الصراع الإنساني بين عقليَّة الغرب وروحانية الشرق حتىٰ أن بعض النقاد ومنهم الناقد المصري رجاء النقَّاش قد تعاطفَ جدا مع هذه الرواية بزعمِ أنها فريدةٌ في موضوعها وطريقة سردها وفلسفتها بين

الرواياتِ العربيةِ الأخرىٰ المعاصرةِ لها حينها. وقالَ أيضاً أنَّ لها بعداً خفيَّاً لا بدَّ من الوصولِ إليه.

بينما ربطَ البعض بينها وبين توارد أفكار أو خواطر في روايات أخرىٰ مثل قنديل أم هاشم للكاتب المصري يحيىٰ حقِّي وعصفور من الشرق لتوفيق الحكيم . والحيُّ اللاتيني لسهيل ادريس وقارنَ البعض بينها وبين مرتفعات وذرنغ للكاتبة الإنجليزية إميلي برونتي.

بطلُ رواية الطيِّب وهو مصطفىٰ سعيد شخصية عميقة وغامضة تجمعُ في كيانها العبقري والشرقي الرومانسي والإفريقي الباحث عن ذاتهِ والرجلُ المتمرِّد.

ويقول الطيِّب صالح أن بعض النقاد والدارسين وجدوا في الرواية ثقافات من مختلف الأجناس ولمسوا أيضاً فلسفات لشعوبٍ كثيرة ولم يستطيعوا أن يجدوا أثرَ المتنبي وكبريائهِ العربيِّ فيها. أي لم يعثروا علىٰ العنصر العربي في تكوينها.

يبدو الكاتب في روايتهِ تائها يبحثُ عن نفسهِ في كيانِ غيرهِ. كبحثِ مصطفىٰ سعيد عن أسئلتهِ في علاقتهِ بجين موريس... وفي أجسادِ نسائهِ الأخريات اللواتي تهاتفنَ علىٰ سمرةِ جلدهِ وبريقِ عينيهِ وحدَّةِ عقلهِ وطقوسهِ السحريةِ الغرائبيَّةِ.

لا أريدُ أن أثقلَ الروايةَ بالبعدِ الجنسي الذي اعتمدتهُ الرواية في بعض تصريحاتها وتلميحاتها هنا وهناك علىٰ لسان بنت مجذوب أو

ود الريِّس . فهنا يشفعُ للكاتب جمالُ تصوريهِ الواقعيِّ للحاضر السوداني الرامز إلىٰ الشرق العربيِّ بكلِّ ما يحتوي من خرافات وسحر وضلالات وتجاوزات.هيَ مواجهة بينَ انسان العالمِ الثالثِ بكلِّ ما لديهِ من أدواتٍ وخصائصْ وبينَ انسانِ العالمِ الأوَّلِ المتقدمِ.

في حديث للطيَّب صالح يقولُ فيهِ أنه التقىٰ بجين موريس بطلةِ روايتهِ موسمِ الهجرةِ إلىٰ الشمالْ واحتسىٰ معها القهوة في متحف الفنون بلندن. وهناكَ دارَ بينهما حديث طويل حولَ الحضارة الغربية والشرقية وأسباب الخلاف وأوجهِ الشبهِ وحولَ مفاهيمِ الحريَّةِ والحبِّ. وافترقا بعد ذلك ولم يلتقيا. وكان ذلكَ الحديث هو الخيط الرفيع الذي راحَ الكاتبُ ينسجُ بهِ أولىٰ أحلامِ الروايةِ العظيمة. التي كانت نقطة تحوُّل في الروايةِ العربية الحديثة.

موسمُ الهجرةِ إلىٰ الشمال رغم رصانةِ لغتها العربيةِ وجدَّتها روايةٌ حديثة بكلِّ ما في الكلمةِ من معنىٰ ذلك أنها تلتصقُ التصاقاً وثيقاً بالواقعِ من حيثُ الصور والإيحاءِ وتسلسلِ الأحداث بينما هيَ تبحثُ موضوعاً فلسفياً رمزيَّاً وتحملُ أفكاراً ساميةً تعبرُّ عنها بزخمٍ وحسٍّ كونيين من منطلق الحبِّ والمعرفةِ واللذةِ والموتِ وهذا ما منحها عالميتها وشهرتها إذ تُرجمتْ إلىٰ أكثر من ثلاثين لغةٍ حيَّةٍ . وأظنها كانت جديرة أن توصلَ صاحبها إلىٰ مصافِ نوبل التي زهدَ بها لتطَّفلِ العرب عليها حسبَ قولهِ.

إذن الطيِّب صالح هو مصطفىٰ سعيد أو ربمَّا هو جزءٌ لا يتجزَّأُ منهُ. أو يجوزُ القولُ أنَّ مصطفىٰ سعيد شخصيةٌ مثيرةٌ للجدلِ من صنعِ الطيب صالح قد جعلَ منها خلطةً غريبةً مزجَ فيها تجاربَ من عرفهم من سياسيين وأدباءْ وأصدقاء سودانيين في لندنْ.

في هذهِ الشخصيَّةِ استلهمَ الكثير من الأفكار الناجحةِ أدبيًّا وعلىٰ المدىٰ البعيد.

وهذا رأيي الشخصي.. أذكرُ منها تمسكَّهُ بواقعهِ وحضارةِ شعبهِ وتمازجَ الأضدادِ في موضوعاتهِ والبحثِ عن وسيلةٍ جديدةٍ يعرضُ من خلالها حلمَهُ باكتشافِ الغير وهو في قمةِ اعتدادهِ بنفسهِ وحضارتهِ وفي أوجِ طموحهِ ورغبتهِ المتأججةِ المُحرقةْ.

لا تهمُّني تفاصيل الرواية بقد ما يهمُّني مغزاها المُبهم والمفتوح علىٰ الاحتمالات فلا هيَ رمزية في نظري لا هيَ واقعية صرفة هي تمازج بين هذا وذاك وإناء شفَّاف عرفَ كيفَ يستعملهُ الطيِّب بحيثُ يصبُّ في داخلهِ ما يشاءْ من رؤيةٍ جديدة مفعمةٍ بالأملِ والندِّيةِ تجاهَ الغربِ المتعجرف وعنجهيتهِ واستعبادهِ للرجلِ الأَسودِ وموطنهِ أفريقيا . هيَ وثبةٌ في وجه الظلمِ والإستعلاءِ الغربييْن .وردٌّ اعتبارٍ للكرامةِ الإفريقية المستلبةِ منذُ قرونٍ عديدة علىٰ يدِ ذاتِ الجمالِ والحضارةِ والسطوةِ والنفوذِ (الإمبراطورية البريطانيةْ).

عودةُ مصطفىٰ سعيد إلىٰ الوطن بعد مغامراتهِ العاطفيةِ ورحلتهِ العلميةِ العريقةِ في بلادِ الضبابِ فيها الكثيرُ من الغموض وموتهُ في قريتهِ فلاحـًا فقيراً يجعلُ الروايةَ من أعصىٰ الرواياتِ وأعظمها في آنٍ واحد. بل أنَّ موتهُ علىٰ ترابِ وطنهِ أخيراً يذكرُّني اليومَ بهجرةِ الطيِّب صالح الأخيرةِ إلىٰ وطنهِ جنوبـًا بعدما ملأَ الدنيا وشغلَ الناسَ ووطنَّ النفسَ لينامَ قريرَ العينِ في ظلِّ نخلةٍ عاشقةٍ علىٰ ضفةِ نهرِ النيلِ الذي أحبَّهُ بكلِّ كيانهِ... فوداعـًا أيُّها الطيِّبْ.

****

الشاعرُ الفلسطينيُّ حسين مهنَّا:

علاقةٌ متجددَّة مع مسمَّيات الجمال

لم أكن أحسب أنني علىٰ موعدٍ باذخٍ مع كل هذا النقاء، وهذه الأصالة التعبيرية التي ذكرتني بالشعراء العذريين العرب أو بأقرانهم الأبطال العشّاق في القرون الوسيطة، ولكن... أن تجد شاعراً حقيقياً بكلِّ ما تنطوي عليه الكلمة من مغزىٰ ودلالة، ومتواضعاً ونبيلاً كطيران الفراشِ الأنيق إلىٰ سدَّةِ الحلمِ، في هذا الوقت بالذات، فهذه نادرةٌ قلمَّا يجودُ الزمن البخيلُ بمثلها.

حتىٰ أنني عندما أهداني الشاعر ديوانيهِ الأخيرين الصادرين عن مؤسسة الأسوار في عكا بطبعةٍ أنيقةٍ مخمليَّةِ الطراز، وهما " تضيقُ الخيمةُ يتسِّعُ القلب" و" الكتابان :ويبدأ بالأوَّل وينتهي بالثاني" تيَّقنتُ أنني أقفُ علىٰ كلمةِ الشاعر وبيت قصيدهِ، ولم أتفاجأ أبدا من حجم الطاقة النورانية والزخم الشعوري المنفلت منهما.

الديوانان عبارةً عن سجلَّين للندىٰ، والأزهار، والتراب المعشوق، والضبابِ الطفوليِّ الناعسِ في ظلال أشجارِ اللوزِ

والزيتونِ والسنديانِ، وعن سمفونيَّة عشقٍ لا تحاول المآلفة بين فوضىٰ حواسها ومشاعرها، بينَ الحسيِّ والمجرَّد.

لم أكدْ ألمسهما حتىٰ انبثقت من أصابعي الأنهار، وخفَّت في القلبِ المسكون باشتهاءِ شتاءٍ بعيدٍ كلُّ العصافير المُلوَّنة بألوان الفرح الخفيِّ والغناء، والنجوم الخريفيَّة المبتلَّة بدموع كيلوباترا وليلىٰ وجولييت والزا وفاطمة ومي.

كيفَ لا وأنا علىٰ موعدٍ مع كُلِّ هذا الاحتفاء بالجمال والأنثىٰ والحبقِ النسائيِّ؟

كيفَ لا ... وأنا علىٰ موعدٍ مع مملكة النقاء الأبجديِّ؟

ما أن بدأتُ بالقراء المتأنيَّة التي ينبغي أن يُقرأ بها شعرٌ في مثل هكذا حجم، حتىٰ انزاحت الحُجب والستائر عن ذاكرتي المثقلة بعشبِ الصحراء، وعن الديوانين، وتأكدَّ رهاني من جديدٍ علىٰ صاحبهما، رهاني الذي بدأتهُ منذُ سنين عديدة وأخذَ ينمو رويداً رويداً حتىٰ اكتملَ اليومَ بدراً مبينَ النورِ والهالةِ في سماءِ شعرنا العربي الفلسطيني، وأظنُّ أن الناقدة والشاعرة الأمريكيَّة "إميلي ديكنسون كانت محقَّةً عندما قالت إنَّ أجمل الشعر في نظرها ذلكَ الذي تقرأهُ فتحسُّ أنَّ قمة رأسكَ قد أُنتزعتْ من مكانها، أظنها لم تكن تعني الاَّ شعراً كشعر حسين مهنا، ذلكَ أنَّ شعر حسين مهنا ينتزعُ قمة رأسك وقلبكَ وأحاسيسكَ معـًا وفي لحظةٍ ضوئيةٍ واحدة،

أو هو كالمغناطيس الهائل الذي يجذبكَ الىٰ ذاتك الجميلة الأخرىٰ، أو أشبه بغناءِ الأمازونيات في الأوديسة، ذلك الذي لا يختلفُ كثيراً عن النغمةِ الشجيِّة المتدافعة بحرارة من أقصىٰ قلبِ شاعرنا وكأنها بركانٌ احتبسَ طويلاً، وها هو يتكأُ اليومَ علىٰ قريحةٍ سيَّالةٍ تجددُّ أشياءها باستمرار وبهجة، وتشحذُ ذاكرتها الايروسية وذائقتها الرفيعة المتجددَّة بالبلوَّر النسائيِّ الناصع الرهافة والحساسيَّة والصوت.

في هذينِ الديوانين الصغيرين حجمـًا، الكبيرين تأثيراً وقيمة جمالية، يحاولُ شاعرنا كما في أعمالهِ الشعرية السابقة تجديدَ العلاقة الشعرية والمجازية مع مسميَّات الحبِّ والجمال والأنوثةِ، التي يرتكزُ عليها شعرهُ الرقيقُ المخمليُّ بالأساس، والمراوحُ بينَ الخطابِ الذاتي الوجداني المكاشفِ للنفسِ ولواعجها وحريَّةِ الدفق الشعوريِّ العذب في فضاءٍ مُلوَّن بأناشيدِ الحُبِّ والصوفيَّة، في عناقٍ واضحٍ وجليٍّ لمناخات يستحضرها الخيال المرهف ويستعذبها القلب، لخلق رؤىٰ مزهرة واستدعاء طقوس غنائيَّة سيالَّةٍ بالوجد الصافي، يصعدُ منها بخورُ الأنوثةِ العبق جنبـًا الىٰ جنبٍ ورذاذَ لغةِ البوح، والكشف. حتىٰ لتظنَّ في وهلةٍ أنَّ ما كان يريدُ أن يفرغهُ الشاعر، قد اختمرَ في روحهِ دهراً طويلاً، ربمَّا يرجعُ الىٰ حنايا الطفولةِ، قبلَ أن تتبلوَّر تجربتهُ أخيراً وتخرجُ لاهثةً علىٰ الورق ونابضةً في النصِّ.

وكما عهدناهُ دائمـًا. صلبـًا. حُرَّاً. مترفِّعا. أبيَّـًا. يقفُ الشاعرُ في قصيدةِ " تضيقُ الخيمةُ يتسِّعُ القلب" طوداً شامخا في أرضيِّةِ التمرِّد علىٰ أشكال القهر التاريخي ويعلنُ موعداً له في انتظارِ الحياة، يقول:

لي موعدٌ في انتظارِ الحياةِ / كأني أراكم / كما قد رأتكم دمائي / علىٰ بابِ عايَ

تشدونَ خيلاً وتعدونَ خلفي / ويومَ صرختم ببابِ أريحا / تموتُ .... تموتُ / وراحابُ تحيا / حملتُ الحياةَ علىٰ راحتيَّ / وسرتُ علىٰ مهلٍ / أنثرُ الحبَّ والشعرَ / سرتُ ... وسرتُ .... وسرتُ / أنا أستزيدُ الحياةَ حياةً / وأنتم تشدُّونَ خيلاً وتبغونَ حتفي/ .

نجدُ استلهام الرموز التوراتية في هذا النص يتحدُّ اتّحاداً فذَّاً مع المشهدِ الشعري، نراهُ يرتفع ويذوبُ ذوبانـًا رائعـًا في تركيبِ اللغة، وينصهرُ طواعية في النغمةِ الحزينة المتحدِّية، المستمدَّة كلَّ شموخها وصفائها وجلاءِ اللحظةِ الشعرية المتوَّترة المتجذرَّةِ في لهبِ القلبِ المُحبِّ وعنفوانهِ.

الشاعر لا ينحني الاَّ للجمال ولا يدين الاَّ بدينهِ حتىٰ لو وقفَ أمامَ ربَّاتهِ الكثيرات. وحتىٰ لو ذرفَ سخيَّ دمعهِ علىٰ أطلال علاقاتهِ

فإنهُ يعلنُ أنهُ لن ينكسرَ أمام أحد. وسوفَ يساجلُ عدوَّهُ وتاريخه الدامي معـًا. كما نقرأ في هذا المقطع:

عناةُ يا عناةُ .../ ها أنا أدقُّ بابَ قصركِ المنيفِ / نازفـًا قطعتُ دربيَ الطويلَ /

حاملاً علىٰ يديَّ بعضَ جثَّتي / وخالعـًا أمامَ ناظريكِ ثوبَ خيبتي / فباركي إن

شئتِ موتيَ الكبيرَ / أو باركي قيامتي ...../ وعلمِّيني كيفَ أستطيعُ أن أساجلَ الطغاةَ / طعنةً بطعنةٍ / وطلقةً بطلقةٍ / فقد سئمتُ رقصةَ المذبوحِ في محافلِ السلام.

وممَّا يلفتُ نظري في قصائد حسين مهّنا أنها تتقاسمُ البهاء اللفظي والرعشة الموسيقية مع باقي المنثورات والشعر العمودي، في جدَّةٍ لا ينقصُ شيءٌ من ضيائها وأصالتها المعهودة، وفي تكثيف دافق للأحاسيسِ، يشدنُّي بما يحتضنُ من خيالات، وأوصاف بكر، ومناخات، وقوَّة لهفةٍ الىٰ المطلق، والتغنِّي بما يتركُ سحرهُ – المطلق– في الروحِ والقلبِ من فراشاتٍ وكائناتٍ جميلة، ضوئيَّة.

والرائع أنَّ الطبيعةَ أيضـًا تمتزجُ امتزاجـًا وثيقـًا بروحِ شاعرنا وتنعجنُ بموادهِ الأوَّلية وأفكارهِ، وأصواتهِ القرمزيَّة، فحينـًا نرىٰ السنونو تمرحُ في فضاءِ قلبهِ كما تبتغي فتغمرُ دربَ حياتهِ الجديبَ

بوردٍ كثيرٍ وشوكٍ أقلَّ، وحينـًا آخر نراهُ علىٰ بابِ عناة نازفـًا، مطالبـًا إياها أن تعلِّمهُ مساجلة الطغاة، وحينـًا في غمرة الغوايةِ لتسميَّةِ حبيبتهِ الاسم الذي يليق بحبِّهِ لها وشغفهِ بجمالها، وحينـًا مسائلاً معذَّبـًا. يقول:

لماذا جعلتِ الفؤادَ يودُّكِ هذا الوداْ ؟/ وكيفَ دخلتِ حياتي علىٰ غيرِ وعدٍ ؟/

وهل يا تُرىٰ أصدقُ الحبِّ / ذاكَ الذي يطرقُ البابَ / _ من أنتَ..... ؟؟/

ما أنتَ ....؟ / من أينَ ....؟/ ..... ما تبتغي ؟؟!/

مطرقٌ لا يردُّ / كأني علىٰ رقعةٍ الحبِّ بعضُ مداد.

مع هذا النبض الشعري الدافئ الغنيِّ تحوَّلنا نحنُ أيضـًا إلىٰ مدادٍ غامضٍ بلا لونٍ وطعمٍ ورائحةٍ، فوقَ الصفحاتِ البيضاء المحترقةِ بجمرِ الحُبِّ.

وكأني بحسين مهنا الشاعر يراوغُ قصيدته ويستلُّها من لهيبِ العنقاء ومن رمادها الأخضر الطريِّ بطريقةٍ غايةً في الأناقة التعبيريَّة والتصويريَّة والايحاءِ المعنويِّ والدلالي، وفي كثافة شعورية وصُوَرية

وزخم موسيقي هادئ الجرس يذكرُّني بموسيقىٰ الغُرَف الهادئة، الباعثة علىٰ الاسترخاء الشعوري والراحة والسكينة.

كما في هذه القصيدة:

لكِ اللهُ / ما تفعلينَ بقلبٍ أحبَّكِ / حُبَّ الرسولِ لأهلِ الكتاب

ذبحتِ مُحبًّا ..../ فماذا عساكِ تقولينَ / في حضرةِ اللهِ يومَ الحسابْ؟

تجسيد البعد النوستالجي هنا وتوظيفهُ بهذا الشكل الرقيق والبالغ النعومة يفتحُ أفقًا مموسَقًا من الغنائيَّة المتردِّدة العذبة، والمرهفة النَفَس، واستخدام لغة المخاطبة يشكِّلُ دلالة معرفية نورانية، إشراقية متوهجة كما في الأدب الصوفي. علىٰ الولع الظاهرِ والملموس حتىٰ في الخفيِّ من أنَّاتِ ووجعِ قصيدة حسين مهنَّا ونصِّهِ.

ها هو يقولُ في مزجٍ بالغِ العذوبةِ والشاعرية بينَ النبرةِ العالية وحساسيَّةِ الوجدانِ العميقة، في مقطعٍ من قصيدةٍ شفيفةٍ شفَّافةِ الضوء:

سألتكِ موتًا جميلاً

اذا كنتِ حوَّاءَ / من يا تُرىٰ قد أكون؟

سأحملُ عريكِ في مقلتيَّ / وأمشي علىٰ جمراتِ الظنونْ

ودربيَ دربُ الشقاءِ المقيمِ / وتدرينَ أني طريدُ النعيمِ
غداةَ لبسنا العراءَ وشاحـًا...../ سألتكِ أن تستظلِّي / بما قد يقيكِ
من النظراتِ المريبةِ / بئسَ الزنىٰ في العيون.

لا أعرف بماذا أصفُ روعة هذا الكلام؟ وخصوصـًا الشطر الأخير، إنهُ ولا شكَّ أعلىٰ بكثيرٍ من السحرِ، وأغلىٰ من غار النصر.

وفي فسحةٍ أخرىٰ، من أريجِ العبارة وعطرها الأنثويِّ، ومن تجليَّات قيس بن الملوَّح في عشيَّاتِ ليلىٰ العامرية، يطلُّ شاعرنا في قصيدةٍ عذراء فتدهشني مزاميرهُ إذ أسمعهُ يقول:
أُجُمِّعُ حُبَّ النساءِ / بحبِّ أُسميهِ .../ ماذا أُسمِّيهِ... ؟ / قيسٌ يسمِّيهِ ليلىٰ / إذن / أُسميهِ باسمكِ / - لا لن أبوحْ : وعدتكِ الاَّ أبوحَ / فحبكِ سرِّي الجميلُ
وبعضُ الغرامْ / إذا كانَ بالسرِ أحلىٰ.

التساؤل في هذه القصيدة يبلغُ قمة الذكاء الشعري في انسيابيةٍ تحملُ الكثير من الخفةِ والرقة والشفافية واللوعة والحنين، أكادُ هنا أن المسَ بجدارة بعض الوهج النابع من المهارة الفردية والحذق الشعري العالي الذكاء، والرؤىٰ الصادقة، أكادُ في هذه القصيدة كما في قصائد كثيرة غيرها أن ألمسَ الدموع العاشقة الحقيقية التي لا

تفيض الأَ من أحداقِ العشَّاق، وأشعرَ بصدىٰ هذا الكلام يتوِّجُ في نفسي حلمـًا غائبـًا، حلما بالظفرِ ربمَّا أو بالخسارةِ، بالحزنِ علىٰ فقدانِ شيءٍ ما، بالفرحِ الذي يعدُ باستردادهِ مرةً أخرىٰ، ويمنحُ لذةَ الشعورِ بالعثورِ علىٰ نجومهِ الضائعة.

أعترفُ أنني نادراً ما يشدُّني شعرٌ لقراءتهِ، حتىٰ لو كانَ للكبار، نادراً ما أقرأُ شعراً بكلِّ هذا الحنوِّ والحدبِ والتفاعل الخيميائي العجيب، وبكلِّ هذا التأثرِّ العاطفي الإنساني والوجداني، ولا أذكرُ إلاَّ دواوين تُعدُّ علىٰ أصابعِ اليدين، مثل "خذ وردة الثلجِ، خذ القيروانية " لسعدي يوسف أو "كأني غريبكِ بينَ النساء" لشوقي بزيع أو " سرير الغريبة " و"لماذا تركت الحصانَ وحيداً" لمحمود درويش أو "ضجر الذئب " ليوسف أبو لوز، أو "أوَّل الجسد آخر البحر "لأدونيس" أو "طعم قديم للحلم" لوليد منير، أو "إنَّ بي رغبةً للبكاء" لأحمد العوَّاضي، مرجعيَّات شعرية نمتْ تحت جلدي ونامتْ منذُ نعومةِ الأظفارِ في الأشعار، لا زلتُ أعتبرها نقاط تحوُّل، أو كواكبَ تسكنني، أو مخلوقات غامضة تركت شيئـًا غريبـًا فيَّ، أنحني أمامها بخشوعِ راهبٍ وبرهبةِ عاشقٍ للأبجدية، وأضمُّ إليها اليوم ديوانيْ حسين مهنّا الصادرينِ مؤخراً، وبكثير من الاعتزاز والفخر، وبدفقٍ هائلٍ من المحبة النقيَّة.

حزيران 2008

****

" ففي الصيفِ لا بدَّ يأتي نزار "

(في ذكرىٰ عقدٍ علىٰ رحيلِهِ)

أذكرُ ذاتَ صباحٍ ربيعيٍّ غائمٍ وماطرٍ في مطالعِ أيَّار بعيدٍ قبل عشر سنوات كيف سافرت إلىٰ مدينةِ الناصرةِ لشراءِ بضعة دواوين للشاعر السوري الكبير والمُختلفِ عليهِ نزار قبّاني. كان حينها قد رحلَ قبل أيامٍ معدودات، وكنتُ في شوقٍ لأقفَ علىٰ ماهيَّةِ وسرِّ هذا الشاعر المثير للجدل والاهتمام والاعجاب، خصوصاً وأنني لم أقرأه تلك القراءة الكافية العميقة إلَّا في نطاقٍ محدود كانت تتيحه مكتبة المدرسةِ أو منهاج التعليم أو الجرائد التي وصلت الىٰ يدي آنذاك.

إنتقيتُ أكثر من أهمَّ عشرة دواوين لنزار من بينها ديوانه الأوّل " قالت لي السمراء" الىٰ جانب " الرسم بالكلمات" و"هل تسمعين صراخَ أحزاني " و"قصيدة بلقيس" وغيرها. وحاولت الغوص في شعريَّة واحدٍ من ألمعِ وأغزر وأمهر وأصفىٰ الأصوات في قيثارة الشعر العربي لا في عصره الحديث بل في عصورهِ جميعها.

لا أظنُّ أن رحيل الشاعر كان محفِّزاً لي لقراءتهِ واستكشاف لمعان ابداعهِ الخفيِّ كالمحارِ والظاهرِ كالشمسِ في عليائها. بل

الإختلاف عليه من طرف النقاد وكثرة الهمز واللمز فيه ولم يوارىٰ جثمانه الغضُّ الثرىٰ بعد.

رغم قراءاتي الكثيرة للمدرسة الرومانسية الساذجة بأفكارها في النصف الأوَّل من القرن العشرين، التي انتمىٰ اليها نزار ولم ينتمِ، أقصد أنه إستفادَ منها ولم يسرْ في نهجها، ورغم إعجابهِ بشعر شعرائها الكبار أمثال إلياس ابو شبكة وعلىٰ محمود طه وعمر أبو ريشة. فإنني وجدت لاحقـًا أنه مختلفٌ كثيراً في أدقِّ تفاصيلِ كتابتهِ الشعرية حتىٰ عن أكثرهم وأعمقهم رومانسيةً وتجديداً وتمرداً علىٰ القديم، إنَّ نزار قباني شيءٌ آخر مختلف ومتغيرٌ ولا يمتُّ الىٰ ما قبلهِ من رؤىٰ شعرية ورؤيةِ الىٰ القصيدة المستقبلية وطريقة تفكير، وموضوعات فنيَّة، بأية صلة، أنهُ من أعظم أوائل المؤسسينَ لمدرسة الشعر الحديث وأحدُ أولئك الذين حوَّلوا الشعر العربي الىٰ " خبزٍ يوميٍّ " علىٰ حد تعبيرهِ، بعدما كسروا التابوهات المقدَّسة تكسيراً يليق بها علىٰ أعتاب القصيدة، وبعدما أشعلوا الحرائق في الذائقة العربية العامة الجماهيرية والنخبوية وفي اللغة المتوارثة وثيابها الرثَّة.

لم يُحارَب نزار قباني من جهات ثقافية أو دينية أو سياسية أو إجتماعية إلاَّ لأنَ صدقهُ الفطري الإنساني قد أخذ بفضحِ جهلها وتخلَّفها ومحاولة التمردَّ عليها، كلُّ النقاد الذينَ فتحوا نيرانهم عليهِ كانوا ينتمونَ بوعيهم الىٰ ضلال مرحلة بائدة ولم يروا أبعد من سياج

أنفسهم أو ما وراءَ نوافذ أرواحهم، أرادوا للشعر العربي أن يبقىٰ ممثِّلاً مملَّ الدور، وللمرأة أن تبقىٰ تمثالاً خزفيـًا جامداً في النصوص والأدبيَّات.

أظنُّ أنَّ أعظم ما في نزار قباني صدقهُ الذي يجعلك لا ترىٰ في سهولة كتابتهِ الشعرية وقرب المجاز والصور والمعاني من المُتخيَّل أيَّ نقصانٍ أو مذمةً شعرية، بل ترىٰ اجتياحـًا طاغيـًا نبيلاً لذائقة جماهيرية استعبدتها زمنـًا ليسَ قصيراً كليشيهات فارغة من أيِّ مضمون حيٍّ، جديد، وطازج، يلمسُ قضايا تهمُّ الإنسان المعاصر في القرن العشرين، ولا يستوحي ويستلهم الماضي بالضرورة.

عشقَ نزار سوريا عشقـًا أسطوريـًا وتغزَّل بها وأحبَّ مدينتهُ الأم بامتيازٍ قلَّ نظيره، رغم طوافه في كلِّ أرجاء الدنيا بقيَ خيطٌ واحدٌ من اللازورد، من الضوء، من المخملِ الشاميِّ، من الدانتيل الدمشقيِّ يشدُّهُ إليها، وإلىٰ أزهارها وشوارعها وحاراتها وروائحها وطيورها. حتىٰ أنه لم يستطع التفلَّت من الحنين الشديد الممضِّ الىٰ الكتابة عنها كما يكتب عن امرأة أو حبيبةٍ في شعرهِ، لقد ملكت حواسه وملأتها بالعطر النفَّاذ، اسمعهُ يخاطب شقيقه صباح القباني في تقديمهِ لكراسة معرض رسومهِ وتأمَّل كيف كان وطنه بالنسبة لهُ لوحةً فريدةً تضمُّ كلَّ فنون الرسم والتجريد، وتحوي جميع العناصر التي خلعَ عليها صفة السحر، يقول:

"عندما نثر صباح قباني مئات الصور التي رسمها لبلادي أمامي لأكتب عناوينها، شعرت أن جميع اشجار التين، والحور، والصفصاف، والزيتون، والورد البلدي تنبت في راحة يدي.. وان الخراف الربيعية تترك بعضا من صوفها الأبيض علىٰ أصابعي.

صارت يدي ـ وهي تقلب الصور ـ يداً أخرىٰ: عليها يسقط المطر، وتكبر سنابل القمح، ويسرح الرعيان، ويدبك الراقصون، ويغني الحصادون، وتملأ القرويات من ينابيعها الجرار، وتتناثر عليها مضارب البدو، وإيقاعات المهباج، وعبق القهوة العربية الطيبة.

صارت يدي مسرحًا تمتزج فوقه الألوان، والأصوات، والأهازيج، وتذوب كلها في نشيد واحد.. هو نشيد الأرض.

صارت يدي ـ والشكر لصباح ـ مرعىٰ جَمَال.

وكما أخصبت يدي، وهي تتنزه مع صباح علىٰ طرقات بلادنا الجميلة التي نعرفها ولا نعرفها، ستخصب أيديكم، فصباح قباني يضع الوطن في راحة يدنا كما توضع التفاحة في يد طفل يرىٰ التفاح للمرة الأولىٰ.

سورية، تفاحة شهية، سكرية الرحيق، لكن أكثرنا مع الأسف لم يجرب أن يصل الىٰ منابع النكهة والحلاوة في داخلها.

سورية، عند أكثرنا تفاحة ذهنية، تفاحة من المجردات، والخرائط، والأناشيد المدرسية.

لكن الوطن، ليصبح وطنًا حقيقيًا، لابد أن يخرج من نطاق التجريد ليكون وطنًا نراه، ونشمه، ونلمسه بالأصابع. فلا وطن خارج نطاق الحواس الخمس.

وصباح قباني حاول بمعرضه الصغير أن يُخرج التفاحة الجميلة من دهاليز الذهن وأقبيته.. ويضعها بكل ملاستها واستدارتها في تجويف يدنا.

صور صباح الجميلة أهدتنا وطننا الجميل.. مرة ثانية".

نزار قباني

منذُ زمن وفكرة الكتابة عن نزار تلحُّ عليَّ ولكن ماذا أكتب عن شاعر ربمَّا لم يكتب عن أيَّ شاعر عربي آخر مقدار ما كُتبَ عنه ؟ في مقالات وشهادات وحوارات وكتب نقدية وأدبية ورسائل جامعية وغيرها .

نزار في نظري المتواضع مزيجٌ نادرٌ وفي غاية الروعة للشاعرين الفرنسيين

"بودلير" و"بريفيير" في مزجهِ بين النزعة الإباحية الجنسية والعادي اليوميِّ أو الشيء وضدهُ في بساطةٍ غنيةٍ، لا يحقُّ لأيٍّ كان أن

ينكرَ فضلهُ علىٰ القصيدة العربية وعلىٰ ايقاعاتها وتطوير موضوعاتها واغناء صوَرها وتجريب أساليبها وتراكيبها. شعرهُ خير من حطمَّ الذهنية الشعريَّة الىٰ حين، لمائيَّة الحياةِ فيه.

نزار ليس شاعر عمقٍ فكريٍّ بل هو شاعرُ عمقٍ عاطفيٍّ وهذا ما أخذه عليه النقاد وعابوهُ. ولكنَّ شعريَّتهُ الحقيقية لا توجبهُ أن يكونَ الأَّ كما يريدُ هو لا كما يريدُ له الغير، لا أرىٰ في هجوم النقَّاد عليه أيَّ مبرِّرٍ، هو أرادَ أن يجعلَ من الشعر طيراً صباحيًّا يحطُّ علىٰ نافذةِ معشوقتهِ، حراً من أغلال الفكر والأسئلة الوجودية. وهو من قال ذات يوم " أعتقد أن التغيير الكبير الذي أحدثته، هو إنزال الشعر إلىٰ الشارع العام، وتحويله إلىٰ مادة متفجرة، وحركة عصيان شعبية. لا أحد يستطيع أن يقول لك اليوم إنّه لا يحب الشعر، أو لا يقرأه أو لا يفهمه. فلقد مزجت الشعر السياسي والشعبي في كأس واحدة، وأزلت الكلفة نهائيـًا بين القصيدة وبين من كتبت من أجلهم. بكلمة واحدة، ألغيت فاكهة الشعر من حياة الناس، وأطعمتهم حنطة الشعر".

وكما يقول الكاتب وائل عبد الفتاح عنهُ " بحث عن لغة مختزلة، كما فعل يوسف إدريس عندما عثر علىٰ لغة سرد خارج التطوّر الرتيب لكتابة القصص. بدايتهما كانت تقريبـًا في وقت واحد. «أرخص ليالي» كتاب يوسف إدريس الأول كان في 1952، قبلها

بسنوات قليلة، كانت مجموعة نزار الأولىٰ «قالت لي السمراء» تصدر في بيروت. الاثنان طالعان من نكبة فلسطين وما تلاها من تفكيك لمؤسسات الفن والذوق، ناهيك بالسياسة والسلطة. ولم يكن جديداً علىٰ الشعر العربي الأوصاف الحسية للمرأة، لكن نزار ظهر في فترة استعارت البرجوازية أخلاقها من العصر الفيكتوري، ولم يتمرد شعراؤها علىٰ الرومانتيكية الساذجة. كان جواً خاملاً، تقليديـًا، وكان طبيعيـًا أن تكون قصائد تتحدث عن النهد والحلمات والنبيذ والحشيش والأفخاذ... قنبلة في ساحة معبد فرعوني".

فهمَ نزار عقليَّة الرجل الشرقي وعرفَ كيفَ ينقلُ أقدامهُ في حقل الألغام العربي. وعرفَ جيداً كيفَ يغتنمُ فرص النجاحِ والفتح، في حينَ ضيعَّ الكثير من مجاليهِ الفرص الذهبيَّة الكثيرة، ممَّا أبقىٰ رنينهُ يصلُّ الىٰ ما وراء المجد والزمن بينما تلاشت أصوات شعراء عرب آخرين أتوا قبلهُ وبعدهُ في رياحِ الخمول وكثرة الأسماء.

أنا أنتمي الىٰ نزار قباني، أنتمي الىٰ هذه الظاهرة الفريدة والحالة الشعرية الهائلة التي دوَّخت العالم العربي من أقصاه الىٰ أقصاه أكثر من نصف قرن، أنتمي الىٰ قصائده التىٰ تربَّىٰ عليها كلُّ الشعراء العرب الآتين بعده لا أستثني أحداً، اعترفوا بذلك أو أنكروا، ولا أريد له أن يكونَ عميقـًا كما أرادوهُ هُم والنقَّاد، بل أريدهُ ماضيـًا

كالسيفِ وخفيفـًا كذاكرة الندىٰ ومؤجلاً كقرنفلِ الصباح وحاراً كمطرٍ في نيسانْ.

****

نزيفُ الأسئلة

بين التكرُّس الأدبيِّ وهموم الواقع

منذ تلك المساءات الشفافة البعيدة التي أسرتني بها حبال الشغف غير المرئية بهذه اللغة المتفرّدة وتخييلاتها ورؤاها المشتعلة في جسد القصيدة العربيّه منذ أكثر من خمسة عشر قرنـًا، ومنذ تلك اللحظات الزرقاء الغاربة وراء شفق الصبا كأنها ظلال عيون حور، وأنا في مدٍّ وجزر من يقيني وشعوري الساحر بشبه ذنب لتضحيتي في سبيل هذا الشغف بالغالي والرخيص عندي، كما أن الفجوة بين المشهد الواقعي الحقيقي والحلم الرؤيوي لديَّ تزدادُ إتساعـًا وعمقـًا وغربةً يومـًا علىٰ يوم بل لحظةً علىٰ لحظة وسط هذه التيارات العاتية للمذاهب الأدبية والأفكار الجديدة، وفي خضَّم التناحر الثقافي الرقمي الذي بات يقنعنا بأن ما يكتب اليوم من نثيرات عادية تبحث عن الشعر ولا تجده وتملأ عالمنا هو الصورة الحقيقية والنموذج الأعلىٰ للشعر العربي، ويجهل أصحابها أن الشعر هو موروث ولغة وفكر وعاطفة وخيال وذوق ومقاييس جمالية عالية المستوىٰ وايقاع روحي، تجتمع كلُّها في هورمونيا عجيبة في اتحادٍّ يصعبُ تفكيك ذراته.

وأصبح لزاما عليَّ أن أردَّ علىٰ حيرة القلب فيما يفسرُّ انهزامية الشعر وغروب شمسه عندنا وفي أماكن أخرىٰ من العالم، فإنَّ الكثير من الأسئلة النازفه والمتعلِّقة بالمصير الحتمي للشعر والابداع تلِّحُّ عليَّ اليوم كما لم تلح عليَّ بمثل هذا الزخم وبهذه الحساسيَّة في أيِّ وقتٍ مضىٰ، ذلك أننا نعيش علىٰ شفا مرحلة فاصلة في تاريخ البشر من انعدام مركزيَّة الخطاب الحضاري، المتمثلة بالفنون والآداب، وانتهاء زمن التفرُّد والنجوميَّة والأضواء، وفقدان الكلمة لقيمتها العليا.

أحيانـًا أقول أن هذا التراجع في القيمة الأدبية أو الفكرية عندنا يرجع الىٰ فقر في تجاربنا الحياتية بالقياس الىٰ الغرب، أو يعود الىٰ عقلية غير متحرِّرة بعد من قيود عديدة منها الدينية والأخلاقية والاجتماعية والنفسية.

نعم لدينا مواهب ربما بحجم مدهش ولكننا لا نملك أدبـًا كأدب الغير ولا أدباء مكرَّسين وناجحين في الوقت نفسه كهنري ميلر وماركيز وتوماس مان وغيرهم لسبب بسيط، ذلك لأنهم جعلوا من الحرية الانسانية قيمة عليا فوق كل القيم والاعتبارات، ولأنَّ لغتهم ممتزجة حتىٰ القرار بدماء تجاربهم الحياتية، ومتقاطعة مع خطوطها الكثيرة الطولية والعرضية، ومتماهية مع ذواتهم حتىٰ النهاية، ولا سلطة لدين أو أخلاقيات أو تقاليد مجتمع علىٰ أقلامهم، هنالك فقط

اخلاص للفن والتجربة، هذا عدا عن تقديس الكلمة بوصفها المادة الخام المستعملة في صياغة الملحمة والتاريخ والمستقبل.

هذه التداعيات ربَّما تفتَّحت جروحها من قبل، ولكنها لم تكن ذات وجعٍ مقلق كما هي الآن، كنت في حداثتي أحاول أن أعزِّي النفس وأرفو جراحها بشتَّىٰ الأسباب الداعية الىٰ التفاؤل والشجاعة في مواجهة هذه الحياة بسلاح الشعر ولكني في هذا الوقت بالذات أعرف كم كانت نزوة الحداثة جامحة، وكم كان مسكونـًا حصان تلك المرحلة بعد الطفولية بلهيب بابلو نيرودا، كانت الأشياء "كل أشياء الكون" لا تزال محتفظة في ذهنيتي الغضةِ تلك بكلِّ حرارتها وغناها الوجودي المعنويِّ، كان الواقع بكلِّ صوره وتجلياته اللانهائية يبدو لي وكأنه مأسطرٌ "من أسطورة" ولم تنشرخ مراياه بعد وتتكسَّر أمام عينيَّ كما هي الآن، كسرٌ من نجوم علىٰ شاطئ وجداني، كنت أعيش بالروح في صميم رومانطيقية أوائل القرن التاسع عشر الأوروبية وكان جسدي في أواخر القرن العشرين، أي أنَّ قرنين من الزمن تقريبـًا كانا يفصلان ما بين روحي وجسدي، وكان الشعر بأجنحته يشرع لي أبوابـًا سماويَّة غريبة ويدشنُّ أرضي بالفتوحات الجديدة، كنت مثل شاعر دون جوان يعيش ويدور في مدار وهمه يكتب حياته قصيدةً في انتظار عبثيٍّ لمن أحب حتىٰ لو كان انتظاره أطول وأسخف من انتظار "جودو" بآلاف المرَّات.

كنت أعتقد كما يعتقد الحالم أن الشعر لا زال الملك أو كما قال نزار قباني يوما عنه بأنه "ملك الملوك"، هذا إحساس يصحبني وأحاول أن أخدع نفسي به، ولكن الحقيقة الواقعية تقول أن الشعر لم يعد ملكـًا ولا حتىٰ صعلوكـًا بل أقل من ذلك بكثير، ولم تعد هذه المهنة الملعونة / المقدَّسة تردُّ علىٰ تقلبات روح العصر وسؤالها الوجوديِّ الصعب.

ولقد قادني إحساسي بهذ الفراغ النسبي لجماليات الحياة وروحانيتها وشعوري بضحالة تجربتها وسطحيتها أن أطرح علىٰ شاعر فلسطيني يُعتبر رمزا شعريـًا لامعا لا في مرحلة سابقة وحسب بل في الراهن واللاحق سؤالاً بديهيًّا يلخصُّ الكثير من قلق الريح والحبر فيَّ.

ماذا يحتاج الشاعر العربيُّ اليوم لكي "يكون"؟

وبكل ما تحمل هذه أل "يكون" من معانٍ ودلالات وأبعاد وتصوُّرات.

في حديث لي مع الشاعر الفلسطيني الكبير سميح القاسم قال أن علىٰ الشاعر لكي يكون حاضراً في المشهد الإبداعي العربي بقوة ونجاح وعمق عليه أن تتوفَّر له ثلاثة أسباب أو عناصر مهمَّة.

العنصر الأوَّل هو الاستعداد النفسي السيكولوجي الداعي الىٰ تحفيز السليقة البديهية لدىٰ الشاعر للكتابة ومحاورة الأشياء،

بالاضافة الىٰ الموهبة الفطرية التي تولد معه وتنمو بالرعاية والقراءة والتثقيف وتصقلها الأسفار، وهي الشيء الوحيد المحتفظ بفرادة الإنسان وتميّز طابعه.

والعنصر الثاني فهو ما أسماه القاسم بالرهبنة الشعرية أو الانقطاع والتكرُّس للشعر والاخلاص له والإيمان بقيمته العليا وجعله فوق كل اعتبار آخر، مهما كانت العواقب والظروف الحياتية، بوصفه أحد آخر المحاربين الوجوديين علىٰ كياننا كبشر نملك أحاسيسَ وعواطفَ سامية ويجدر بنا أن التعبير عنها وفق أهوائنا وأحلامنا غير المنهوبة، أمَّا العنصر الأخير فهو التجربة الشخصية الحياتية بكل ما فيها من تقلُّبات ورغبات وبكل ما تحمل من جموح الحياة وتناقضاتها، كأن يبيت الإنسان في سجن وضيع ويصبح في فندق سبعة نجوم، أو تقذفه الحياة من قمة أحلامه الىٰ هاوية جحيمه بين عشيَّة وضحاها، وأضاف أيضـًا أن الشاعر لا تصنعه الأضواء ولا الدعاية بقدر ما يصنعه نصه، ولا فائدة من تلميع اسم شاعر معيَّن إذا كان ما يكتبه رديئـًا، ففي عصور خلت إمتلأت الأرض بأصوات مندثرة لشعراء كثيرين عاصروا هوميروس والمتنبي ودانتي وشكسبير ووركا، إذ أن المقياس الوحيد للنجاح الأدبي الحقيقي هو القيمة الكتابية وليس أي شيء آخر.

وأردتُ هنا أن أشدِّدَ علىٰ كلمة "رهبنة" لأن هذا المصطلح فضفاض، لا أعتقد أنه يناسب زماننا ومكاننا بقدر ما كان يناسب الماضي، كنت مقتنعـًا أنه لا يفيد شيءٌ وسط هذا الكم الهائل من الأسماء وأمام أساليب وطرق جديدة لنشر الابداع وتوصيله بأسهل الطرق الىٰ عقلية قارئ مشغول بسطحيَّات الأمور ومنهمك بما يتيحه العصر من شواغل أخرىٰ أكثر تسليةً وبساطةً ولا تشقُّ علىٰ الذهن، أما اليوم فالرهبنة الشعرية التي يحلم بها بعض المثقفين بايمان الشعراء العميق علَّ مركبها يوصلهم الىٰ شواطئ الابداع الجديدة والنائية قد تكسَّرت هي ومركبها الهش علىٰ صخور الواقع القاسية وتناثر حطامها علىٰ شاطئ الحياة.

كنت مسكونـًا بنار نبيلة ومأخوذا بروعة هذا التمردِّ الجليِّ ونبرته التي أخرجتني من صلب واقعي بعض الشيء وأشعلت حطام هذا المركب الغريق "مركب الرهبنة الشعرية" وحوَّلته رماداً لعنقاء أُخرىٰ، بينما كان صوت القاسم يفيض حبـًا لهذا الوطن وترابه، وحماسةً وكرمـًا قلمَّا وجدتهما في شاعر غيره، كان بسيطا خلوقـًا كفارس القصيدة النبيل، الذي ما زال من أهمِّ المدافعين عن قداسة وأصالة لغتنا ومن المتغنِّين بروعة الشعر العربي القديم واشراقة ديباجته وغنىٰ تجربته، هو حارس جمالية الموروث الشعري العربي

ومن أبرز القابضين علىٰ جمر القصيدة المقاومة والهادرة في وجه الظلم والقمع والموت العربي.

ولكني في أعماق نفسي كنت أحسُّ أن هذا الكلام ربما يكون حماسيًّا أو ربما يكون عزاءً حميمًا لي من راهب الشعر العربي المتمرِّد، كننت في دخيلتي أقول أرجو أن يكون هذا الكلام الذي يقال صحيحًا لأحاول أن أرمِّمَ به بعض خراب الروح، وأشحن همتي لكتابة قصيدة جديدة، أريدها أن تنطلق كفراشةٍ أو كطير سنونو في المدىٰ وتذوب كقطرة ضوء بنفسجية اللون علىٰ أعتاب الشمس، وأنا واثق أشدَّ الثقة من أن يحتضر، وليس هذا الغناء المنطلق من حناجرنا بين الحين والحين، الاَّ مارشًا جنائزيًا في طريق الشعر الأخيرة.

****

فرادةُ القراءة والاضافة

أحياناً كثيرة أسأل نفسي ما جدوىٰ أن أكتب نصاً شعرياً آخر؟ ما فائدة أن أضيف الىٰ هذا الكم المعرفي الهائل كلمة بسيطة؟ إذا كانت لا تحملُ في طياتها فرادة عظيمة، وأنا مؤمن أعمق الإيمان أني كمن يضيف الىٰ محيط زاخر بالمياه قطرة ماء واحدة لا تزن ذرة من خردلٍ، أو يشعلُ شمعة خضراء صغيرة في نهار مليء بالشموس العظيمة الضوء، كثيراً ما ينتابني شعورٌ بأني عبثاً أضيعُ عمري وأني لن أصنع أفضل ممّا صنع غيري أو أضيف جديداً مبتكراً، ويراودني شوقٌ كبيرٌ حينها الىٰ الصمت الجميل "صمت رمبو" أمام هذه الملايين من المجلدات والكتب التي تفيض وتزخرُ بها مكتبات العالم وصروحه الحضارية الثقافية، وأقول في سرِّي "هل هناك شيءٌ جديٌّ لم يقال بعد، أو هل هناك سؤال لم يسأل حتىٰ الآن؟" وما زال محتفظاً بحرارته الأولىٰ وبجدارة أن يُطرح.

أنا أدعو نفسي دائماً الىٰ تجاهل هذا السؤال تماماً وأحاول أن أتمرّد علىٰ روتينية الحياة والكون القاسية، ولكنَّ خوفاً في داخلي ينمو ويحدثني بأني ربمّا سأستيقظ في غدٍ بعيدٍ ذات صباح ربيعيٍّ بلا قصيدة، أستيقظ بلا رغبة حية بتأثيث هذه الفوضىٰ العارمة التي تجتاح ما حولنا، وتحوّله الىٰ رماد عنقاء ملوَّن، أو الىٰ قبض ريح.

ربمّا سأستيقظ بعد انطفاء شعلة العاطفة البودليرية العظيمة وتلاشي لمعان الذكاء الشعوري الراجح علىٰ كل ملكاتي المكتسبة، أقصدُ بذكائي الشعوري تفجرَّ الحسِّ الإنساني المتصيّد لكل متناهٍ في الصغر من ذرات الحياة والوجود، أما الملكات المكتسبة فهي كثيرة منها اكتساب العلم والثقافة والإلمام باللغات العديدة لتوسيع مدارك العقل وعاطفة القلب.

إن لهفتي في ابتداع شيءٍ جديد له خصوصيته وجدَّته وتميَّزه هي ما يدفعني غالبا الىٰ التمسِّك بأطياف الحلم الأخير المتلاشي في فضاء التفجُّرِ المعرفي الهائل ووسط تصحرِّ القصيدة الكليِّ في مناخ فقير وخالٍ من الإضافات النوعيَّة أو تلك المتفلتة من سطوة التابوهات عليها.

ولكن هل هناك عبقرية في الخلق الإبداعي من غير عبقرية فهم ومحاورة ومكاشفة الأصل الموروث والمؤثرِّ في نفس قارئه؟ بملامسة مواطن القوة والجمال والجدّة فيه، والتأسيس عليها، وهذا لا يأتي الاَّ عبر قراءة كاشفة ونافذة لها فرادة الحسِّ وعبقريته، فكلُّ الإبداع في نظري كتابة واعية علىٰ كتابة واعية أخرىٰ.

رغم الوعود الكثيرة التي قطعتها علىٰ نفسي بقراءة قدر ما أستطيع من المأثور الفكري الشعري القديم أو الغربي الحديث خصوصاً الروائي الذي طالما تمنَّيت أن أكشف خفايا سحره وأستبطن جماله،

إلاّ أني حتىٰ هذه اللحظة لم أحقِّق سوىٰ الانجاز القليل المتواضع وما زلت في انتظار الفتح الكبير عله يغني العاطفة والعقل.

ألم أعد نفسي بقراءة الإلياذة بصمت داخلي وبنفس طويل أو ملحمة جلجامش البابلية كاملة قراءة كاشفة وفاحصة ومتأنية ومن غير توقفٍ؟ ولم أفعل، وهذا ينطبق علىٰ مؤلفات الأدباء الروس الكبار أمثال دوستوفسكي وتولوستوي وغوركي وبوشكين، ومؤلفات الكتَّاب الفرنسيين ومنهم هوغو وفلوبير وبلزاك، والأدباء الألمان وعلىٰ رأسهم جيته وتوماس مان وشيلر، أقصد بقرائتهم قراءةً كاشفة أصلُ فيها الىٰ قاع نفسية الكاتب، والحقيقة المطلقة لعراء الذات أمام بياض الورقة، والىٰ ما أراد الكاتب أن يوصله الىٰ الغير، من خلال تمعُّنِ الحبر الخفي المتلألئ بين ثنايا سطوره والأهمِّ من كلِّ هذا أن أصل الىٰ عبقريَّة الإضافة الحقيقية وفرادتها داخل النص، وسأضرب مثلاً علىٰ هذا من خلال قراءتي لأعمال الكاتب اللبناني العالمي المبدع والمثير للجدل جبران خليل جبران فهو متجددٌ في كل أوان وقادر علىٰ إدهاشك وتغيير رأيك المسبق عنه في كلِّ مرةٍ جديدة تقرأهُ، ففي كل قراءة تجد نفساً آخرَ وروحاً جديدة وعالماً مختلفاً وكأنَّ الذي يكتب شخصٌ آخر، فهو يختزن طبقات ثقافية رهيبة ويمتلك بعداً انسانياً عميق الجذور والأصالة، تستطيع أن تكتشف في كل قراءة نهرا جديداً يتغلغلُ فيكَ ويرفُّ كأنه

طائرٌ غريبٌ وتلمسَ ضوءاً يدغدغُ أطرافك وقيمة فنيَّة وإنسانية فذةً بالإضافة الىٰ حلم متناسخ عبر القراءات، فجبران كاتبٌ يعرف كيف يضيف وكيف يحرِّرُ ذاته تحريراً كاملا في الكتابة، وهذا التجدُّد الدائم لماء الإبداع وجدته أيضـًا عند شاعر لبناني جنوبي جددَّ في بلورة القصيدة العربية وإشكالية حداثتها في الثمانينيات والتسعينيات من القرن الماضي هو محمد علي شمس الدين فمنذ قراءتي الأولىٰ له قبل سنوات عدة ما زال يثير فيَّ الفضول والرغبة في كشف قاموسه الشعري المكثّف والصعب والمشاكس والمستند الىٰ عالم غنيٍّ متنوعٍّ ولا نهائيٍّ من التصاوير التي تشكلُّ خامة كتابته الشعرية، فهو عميق الغور متعددُّ المعاني يغلب علىٰ شعره الغموض الشفيف ومساءلة الموجودات الجمالية، وتفيض كتابته بتوظيف الرموز التاريخية والأسطورية الكثيرة بما يشبه الإيحاء المجازي والتناص التاريخي في جدَّة ابداعية واحتراف أدبي مشهود، ممَّا يجدِّدُ في روح ونهر الشعر العربيً الحديث.

وحتىٰ هذه اللحظة أتشبّثُّ بالمنىٰ وأتمسكُّ بحبال الوهم والحقيقة علنَّي أحققُّ وعدي لنفسي، أقول أحيانا ربما جنىٰ عليَّ الشعر بأن وهبني لعنة رفاهية القراءة المتمثلَّة بمزاجيتي الغريبة المرهفة القصيرة النفس أحيانـًا، والتي ما أن تهبط علىٰ زهرة حتىٰ تطير الىٰ أخرىٰ وهنا أقصد المواد الفكرية والفلسفية المستعصية

والتي تذكرني بلغة دروس الحساب الجافة، فكل قراءاتي الفكرية الأولىٰ كانت كهبوب النسيم الخفيف علىٰ حديقة المعرفة، ولم تكن قراءة المقيم المتبصِّر المستجلي للخفايا.

كثيرا ما حرَّضني الأدباء المصريون الكبار "أُدباء الحديث الخفيض" أمثال سلامة موسىٰ ومحمد حسين هيكل وأنيس منصور، وبقوة لا يُصمَد في وجهها علىٰ اقتحام عوالم أُدباء الانسانية خصوصـًا في العام الأخير كما لم يحرضني أحدٌ يومـًا ما علىٰ التوَّفر الفسيح الجادِّ علىٰ كنوز هذا الأدب، والنهل من ينابيعه الثرَّة الصافية التي لا تنضب الىٰ الأبد، وأذكر كيف كان الكاتب المصري توفيق الحكيم أوَّل من حرَّضني علىٰ قراءة شيء من تراث الشاعر الفرنسي الكبير جان كوكتو، ولكنني في كل مرةٍ كنت أشعر بضآلة ما يكتب اليوم إزاءهم، وأخاف أن يجيء ذلك اليوم الذي أصمت فيه أمام روعة وإدهاش أعمالهم، أخاف ألاَّ أُضيف الىٰ ما قدَّمت أياديهم شيئـًا يُحفظُ لي، وأخاف من صباحٍ بلا قصيدة أو قصيدة بلا صباح يعانق جمال صمتها.

****

وداعاً نزيه خير .. وداعاً عاشقَ الياسمين

وأخيراً رحلَ نزيه خير، عاشقُ الياسمين الحييُّ وغرّيدُ الكرمل وما زال ترجيعُ نشيد إنشادهِ يتردّدُ في كياننا، رحلَ مستعجلاً وقبلَ أوان إزهار اللوز، قبل أن يعانق مدينته الضائعة ويمسح الثلج عن خدِّها، قبل أن يكملَ نبوءة الريح التي تغنىَّ بها طويلاً، كأنه وقصيدته علىٰ سفر الىٰ ما وراء المطلق.

لا زلتُ أذكرُ صوته الشجيَّ الممسوح بفضة الدمع وعبقه الحار والمشحون بعاطفة الصيف الغريب يتسربُّ الىٰ قرار كياني الجريح في ذلك الصباح التموزي العذب الباهر ريحه والمسكون بالتجليَّات.

لن أذكر الآن إطراءه لديوانيَّ الأولين وكلامه الحميم عنهما وهو الذي لم يجامل أحدا أبداً ولم يطرِ شاعراً في وجهه الاَّ فيما ندر.

لن أذكر صدق وفائه الذي فاض من حديثه ذاك، فكلنا نعرفه في طوايا نفوسنا ونقرُّ بسموِّ روح صاحبه،

بل سأذكرُ ندمي المتفتحِّ مثل زهرة النار، ندمي لأني تقاعست ربَّما بلا سبب عن تلبية دعوته عندما دعاني الىٰ لقاء في برنامجه الأدبي الثقافي الأثير عندي "شرفة" ذلك البرنامج الذي كان يعدُّه إعداداً راقيـًا ويقدّمه في قناة 33 في التلفزيون. طلبتُ منه حينها بأدب

وحبٍ ولطف جمٍّ أن يُرجئَ مشاركتي ولقائي به الىٰ المستقبل غير المنظور، وكم هي خسارتي فادحة الآن، ماذا كان سيحدثُ لو كنت إستثمرت هذا اللقاء معه؟

لا أدري ما هو سبب تقاعسي عن هذه المشاركة آنذاك وكان أجدر بي أن أغتنم مثل هذه الفرصة التي ضيعتها كما ضيَّعت غيرها، لترسيخ قناعتي بما أقوم به.

أهو الحياء أم الخوف؟ أم شيءٌ آخر؟ وقتها فقط حين لم يعاتبني الشاعر الرقيق الناعم الكلام أتهمتُ نفسي بهما.

رغم مشاغلي الكثيرة أيام السبت لم أكن لأفوّت فرصة مشاهدته والإستماع الىٰ محاوراته الذكية الصريحة وأسئلته المتغلغلة في أعماق الوعي الثقافي السائد عندنا، كانت تشدني وتأسرني طريقته في مناقشة المواضيع، وعباراته الشفافة المنحوته من صخر المعرفة وكانت حساسيّته الشعرية الواضحة جليّاً في مكاشفاته الكثيرة تلك سيدة المشهد.

أذكر في أحد الحلقات مع الروائي سهيل كيوان دفاعه الجريء عن ديوانيَّ الأولين.

أستطيع أن أقول الآن وبلا محاباة ورياء وتصنعٍّ، بل بثقةٍ وفخرٍ يعانقان النجوم أن نزيه خير هو الذي علَّمني الاحتفاء برائحة الطبيعة وبأنوثتها وبأسماء الورد أكثر في شعري، قاموسه الشعري قاموس

جميل لعشق الأرض بأزهارها ومكانها وأبعادها ومسميَّاتها المطلقة، وهو أيضا من أغراني بحشد مواصفات ومعانقات تاريخية في تناص رائع، كيف لا وهو أحد شعرائنا الكبار.

لا أكاد أصدقُّ حتىٰ هذه اللحظة رحيل هذا الفارس العربي النبيل ولا أستطيع أن أتخيَّل مشهدنا الشعري خاليًا من اطلالته العالية، لا أستطيع تصوَّر وجداننا الشعري الجمعي خاليًا من حضور إبداعه، فهو ريحان وعبقٌ في الذاكرة، كان منفتح العقل والقلب والروح، كان أفقه مفتوحا لكل طائر غريب.

لم أسمع منه كلمة واحدة تدلُّ علىٰ ملل أو إحراج أو ما شابه في كل أحاديثي الهاتفية معه كان يشعُّ بشاشة وطيبًا ومرحًا حتىٰ في أشدِّ فترات إنشغاله، كأننا كنا متعارفين منذ سنين طويلة أو كأننا أصدقاءٌ من جيل واحد.

أذكرُ الآن مقالاته ولغته التي كانت تفيضُ حزنا ووفاءً وصدقًا إثر وفاة أيٍّ من أصدقائه الشعراء العرب، والذين منهم عبد الوهاب البياتي وبلند الحيدري وعبد الله البردوني، وغيرهم، لم يهذبُّ لوعته أبداً، أذكر كيف كان يتفجرُّ نثره رثاءً قويًا وعاطفة صادقة أعظم بكثير من عاطفة كتبت مراثي المدن الأندلسية، كانت مقالاته تلك أيقونة في صدر مرحلة ذوت من سفر الوجود الشعري الفلسطيني الإنساني،

وكانت تقريباً واختزالاً لذلك البعد المترامي في المسافة والهويَّه والثقافة والانتماء.

لم أمر بالدالية يوماً أو أنظر اليها وهي خبط العصا جغرافياً من هضاب طبعون إلَّا عشقتها لأجله أو تذكرته وسكنت اطمئناناً الىٰ هذا القرب الجغرافي الروحي الشعريِّ الجماليِّ المشترك بيننا، لن أصرخ ذات يوم وأقول قولة أخيك الكبير بدر شاكر السيَّاب "قساة كلُّ من لا قيت" أو قولته الأخرىٰ "كلُّ من أحببتُ غيركَ ما أحبوني " ولكن سأقول رغم هذا البكاء الخفيِّ الذي يملأ غصن جسدي أنني لستُ بحاجةٍ إلىٰ دمع يهبُّ من فضاء الروح لأثبت لك حباً غامضا مجهولاً منحتكَ إيَّاه، لم تزحزحني عنه قسوةُ الآخرين وزيفُ أشباه الشعراء الفانين، فإلىٰ جنان الخلد والشعر والنبوغ يا أبا فادي، أيها الكبير الذي عانق صوته الشجيُّ أعماق الروح مني ذات صيف جميل هادئ، الىٰ جنة الله يا شاعراً لم يوارب يوما ولم يتلوَّن ولم يجامل أحدا وكان وفاؤه عندي مثلاً.

****

طيور السكونك

انتقدَ أحد الكتَّاب في مجلس ضمَّني به مؤخراً.. إضافةً الىٰ شاعرٍ آخر صديق، الحداثة الشعريه، وأردف قائلاً إن الاعجاب بالشعراء المحدثين هو آني ومرتبط بحميمية معينة تجاه شكل شعري محدَّد أو نبرة شعرية معيَّنة، وأضاف الشاعر نقدا علىٰ هذا النقد فقال إن الشعرية العربية الحالية تفتقر الىٰ الشعراء الحقيقيين، أمثال المتنبي في شعرنا العربي القديم، والذي يعتبره صاحبنا الشاعر الأوحد في تاريخ الادب العربي عامة.

ثم إنتقل بعد ذلك الىٰ الكلام عن الشعراء اليونانيين ،وعن الشاعرة اليونانية سافو المعبِّرة عن الوجد الانساني والفرح بالحياة والتحرق بالجمال الخالص قبل ولادة حضارات الشعوب الأخرىٰ، وقبل نطقها بأول كلمة تعبر عن خلجات روحها بالأوصاف والتشبيهات العذراء.

كنت أسمع ولا أنكر ما يقال لكنني خرجت من المجلس وأنا مليء بالتساؤلات الغامضة حول عملية الكتابة الابداعية ومثقل بضباب القصيدة الفضي، وبسحر الأفكار الجميلة المجنحة، نفس الغموض والأفكار والرغبة الجامحة في استقصاء تجربة الغير

الكتابية التي كانت وما زالت تنتابني بقوة عند سماعي لأحاديث كتَّاب وشعراء عرب وأجانب، أمثال البياتي وأدونيس ومحمود درويش وعصام العبدالله وبول شاؤول والماغوط وباولو كويلو وساراماغو وغيرهم، حول علاقة الكتابة والشعر والفن بالحياة وبطبيعة النفس البشرية والأمزجة الجمالية المختلفة.

تلك أحاديث كانت دائماً تتركني أبحث عن ذاتي الشعرية تحت سماء لا أعرفها، تماماً كما قال صديقي الكاتب، أحاديث كانت تترك فراغاً روحياً وعلامة سؤال في ذهني دائماً حول أمور كثيرة ومتشعبة، كنت أحس من خلال حديثهم أنهم يعبِّرون عن نفسي وذاتي التائهة الباحثة أبداً عن الأمثل والأجمل أكثر مما عبَّروا عن ذواتهم.

فأنا لا أفهم سر هذا الغموض الشفاف النابع من قلق الشاعر أو الفنان علىٰ مصيره، في عصر الذرَّه، والنابع أيضاً من حزن عميق أسطوري بعيد النزعة كحزن عبد القادر الجنابي أو حزن ناتان زاخ أو محمد الماغوط أو أدونيس، والقائمة طويلة.

أظن أنه من المهم أن نحاول استدعاء مخيلة الآخر المختلف، أو نمتلك حاسة اضافية تحاول التقريب بيننا وتجعلنا نتأثر بعضنا ببعض لبلورة رؤىٰ شمولية طازجة وجديدة، وذات روح متمردة وثائرة علىٰ قيم جامدة.

أما عن مسألة انصهار النثر بالشعر أو العكس فلا بأس بأن نستمتع بنماذج راقية لنثرية بول فاليري وسعيد عقل وجبران وأمين نخلة، والاعجاب بنرجسية بروست وطاقته علىٰ التغلغل في نفس المكان وفي نفس القارىء.

إن النثر في رأيي هو بلورة المادة الكتابية والشعر هو إطلاق أجنحة لطائر حبيس في اللاوعي الذاتي.

النثر تراكم وتجمع لمخزون الوعي في بؤرة واحدة والشعر محاولة لنثر مخزون اللا وعي في الهواء الطلق. الشعر أخيرا نوع من مشاكسة فردية لروح الوجود.

ولكتابة مادة ابداعية كقصيدة مثلاً، لا بد وأن تتوفر للشاعر فسحة من الحرية علىٰ حد تعبير ناتان زاخ، والا سيجد نفسه محاصراً بما يفسد عليه احساسه بجمال الشعر والحياة، وبجمال روحه أيضا.

الشعراء هم (طيور سكونك) هذا الكوكب الموبوء بالظلم والشقاء كما يقول الشاعر السوري المعروف نزيه أبو عفش، والسكونك هذا طائر أسطوري جميل أو ربما مخلوق غريب نصفه طائر ونصفه الثاني حيوان حسَّاس، لدموعه رائحة عطر تدلُّ عليه صيادَه، فاذا وجده أخذ السكونك بالبكاء المرِّ كوسيلة أخيرة للنجاة ولدفع الخطر عنه واسترحام الصياد.

****

جنةُ بدر شاكر السيّاب الضائعة

(في البحثِ عن الرجل الذي ضاعَ في عرضِ الشعر والمنفى)

لا أعرف سرَّ هذه النوسطالجيا الغريبة التي انتابتني مؤخراً لإعادة قراءة ديوان الشاعر العربي الفذ بدر شاكر السيّاب، ونحن نقتربُ من الذكرىٰ الثالثة والأربعين لرحيله المفجع.

أهو حنين مجهولٌ الىٰ جنته الضائعة، والىٰ شموسه الخريفيَّة وعصافيره الخضراء؟

أم أحساس عبثيٌّ بشبه قرابة روحية افتراضية وثيقة العرىٰ تربطني بهذا الشاعر المشاكس والمهمِّ عندنا أهميَّة ناظم حكمت للأتراك ولوركا للإسبان؟

ذلك أن السيّاب ربَّىٰ في نفسي لغةً شعريةً صافيةً من الزوائدِ اللفظية التي تراكمت في وعيي الشعري قبل أن أهتدي إليه.

زوائد الشعر العربي القديم والكلاسيكي الحديث.

فلغة السيّاب الكبير لغة منتقاة ومصفَّاة شعرياً ولو عارض ذلك النقاد وقالوا بإطنابه في السطر الشعري، فإنه كان أقدر الشعراء العرب علىٰ تحويل الكلام العادي الىٰ شعر خالد يجري من القلب.

لغة حالمة بيوتوبيا موعودة وزاخرة بالرموز الرومانسية وهذا الشيء أعجبني جداً في مطالع ولهي بالشعر.

فتوحاته في الشعرية العربيه الجديدة أخذت جانبًا كبيراً علىٰ عدة مستويات، منها تليين عصيِّ اللغة وتطويعهُ ونفثه من أعماق القلب علىٰ سجيّتهِ، وجعل حروف القصيدة العربية كأنها عصافير جنة ضائعة وأطياف مجنَّحة.

كنت أسألُ نفسي قبل أن أقرأهُ بوَعي أسئلة كثيرة حول المخزون الروحي للرومانسية العربية المشبَّعة بآلام الذات، والمتأخرة عن الرومانسيات الأخرىٰ الواقعية الىٰ حد ما.

فلا أجد أثرا لهذه الأصداء عند سابقيه سوىٰ أصداء ثائرة خافته عند الشابي في بعض أشعاره التي كتبها عندما اقترب سراج روحه من الانطفاء.

إذن فهذا الفتح الشعري الذي أنجزه السياب عظيم وغير مسبوق.

فقد كانت اللغة مع جماعة أبولو حالمةً رقيقة هشَّة تخلو من معانقة الواقع وتنقصها التجربة في اكتناه آلام الغير، ولم تحفل كثيرا بأعماق النفس البشرية علىٰ مستوىٰ كوني، كانت الروح الشاعرة تعانق نفسها فقط، بينما أصبحت عند السيّاب تعانقُ الطبيعة وتنصهر وتذوب مع عوالم بائدة أو علىٰ حافة الحلمِ والتلاشي.

ولم يأتِ شاعر قبل السيَّاب مازج وقاربَ بين الشعر العربي والأوروبي الإنجليزي منه خاصةً مثل هذه المقاربة الشفافة والحميمة، وقد ذكر السيَّابُ ذلك في لقاء صحفي معه في إذاعة لندن حيث قال أن قصيدة الشاعر الإنجليزي شلي وهي بعنوان القبرّة " the sky lark " كانت الحافز الأساسيَّ له لكتابة الشعر الحر حيث شبَّهَ شلي في سطورها الأولىٰ طيران الطائر في الهواء وفي سطورها الأخيرة رفرفته وتحليقه، في نظام تدويري للقصيدة لا ينقطع المعنىٰ بين كل بيت وآخر فيهِ.

صرنا نجد نفس التقنيَّات التي في القصيدة الانجليزية ونفس الرؤىٰ وطرق التعبير في شعر بدر وهذا تجديد جريء وخطوة مباركة تُحفظ له، فقد كان من الشعراء الحقيقيين الأوائل الذين إستفادوا من إطلاعهم علىٰ الآداب الأخرىٰ وهضم جمالياتها جيّداً.

كان بدر جذوة ألم عظيم وما شعره غير تطاير الشظايا عن هذه الجذوة، وفي ظنّي أن السيَّاب لم يتجاوز مجايليه شعريا الاّ بفضل هذا الألم فتفوَّق علىٰ شعراء العراق ومنهم البياتي ونازك الملائكة وعلىٰ شعراء عرب منهم صلاح عبد الصبور ونزار قباني وأحمد عبد المعطي حجازي وغيرهم، لأن بدر إندفع بكل طاقته وبكل قواه للشعر وساعده إنفعال طبيعي علىٰ التمَّيز والتفوُّق الكمِّي والنوعي.

ورغبة متقدة الىٰ الثورة والتجديد في ضوء الانقلابات السياسية وغليان الشارع العربي وانهيار القيم القديمة التي نادت بها القومية العربية، كل هذا الىٰ جانب كبير من الحساسيَّة الرومانسية، المتطلعة الىٰ عالم آخر أو جنة ضائعة أو يوتوبيا عُليا يحاول بها أن يلغي غربته ويردم الهوَّة بين روحه وجسده.

وهنا يجوز أن نقول أن قاموس السيّاب الشعري قاموس استثنائي، هكذا أعتقد، لأن تعابيره الشعرية وخيالاته وتصوراته ورؤاه تأتي من مكان آخر، لا من هذه الأرض التي نحيا عليها وخاصة من العراق الجريح.

إن هذا التغيير الذي إبتدعه يحتاج الىٰ كثير من الذكاء والمكر الشعري مع الحفاظ علىٰ الجدَّة والأصالة العروضيَّة العربية.

ورغم خروجه عن العمود الشعري الخليلي فإن له ما لا يقلُّ عن نصف إنتاجهِ الشعري يشهدُ له بأنه ظلَّ وفيّـًا حتىٰ ساعته الأخيرة للموروث العربي ولأصالته، وما محاولاته التجديدية إلاَّ مراعاة لنفسه الثائرة وتحقيقا لها في عصر شعري متغيِّر يختلف عن أمس المتنبيّ وأبي تمام، ومكان مختلف عن أمكنتهم.

نفس بدر التي لم تجد في الخيال الشعري القديم وفي أوزان الخليل الفراهيدي ضالتّها المنشودة، بل لم تجد ذلك الإتسَّاع الكافي والأفق الرحب لتفجير طاقة فنيّة جبَّارة كانت خاتمة حتميَّة

للكلاسيكية الشعرية العربية بمفهومها الجماعي الأشمل، ولا أقصد الكلاسيكية الفردية، بل انتهاء القداسة للعمود الشعري وتكسيره .

بعدما كانت القصيدة قبل ثورة السيَّاب أشبهَ بتمثال خزفي لا نبضَ فيه للحياه، يعمدُ إليه الشعراء الخزافون فيهذبونه ويقلمون رغباته ويقيدونه بالأصفاد الأدبية والأخلاقية، بخلاف شعراء الشعوب الأخرىٰ الذين ينفثون قصائدهم كالبراكين مهما كانت حجارتها ومعادنها خامًا، ما دامت أشكالها أروع للرائي من تلك التماثيل الخزفية، وما دام فيها ذلك الوهج الأبهىٰ من ألف شمس.

كانت قصائدهم تكتبهم بتفجّرها وانثيالها علىٰ هواها حاضنةً رؤىً طازجة وباحثة عن مسارب جديدة .

وهذا الشيء وجد صداه في نفس شاعرنا المتأثرة بأبعاد الشعر الكوني والحسِّ الجماعي، الذي نما عنده بعد إنخراطه المبكرِّ بالحزب الشيوعي العراقي.

عايش بدر أزمته الروحية الشعرية بكل معانيها حتىٰ النخاع، واصطبغت حياته بها، أزمة المبدع العربي المثقّف والبرجوازي الفقير والمحروم حتىٰ من عطف وحدب المرأة التي يحبُّ، ممّا ولدَّ عنده أحساسا طاغيا بالضياع العاطفي وبالفراغ الروحي لازمه حتىٰ غروب أيامهِ، ورفد قلبه بأجمل المزامير والألحان التي أثرت سمفونية الشعر العربي الحديث، وأغنت تجربته، ومهدَّت السبيل

للحداثة العربية ولما بعدها وتشظَّت في أصوات شعراء الستينيات والسبعينيات وشكلَّت مرجعية هامّة لهم ولم أتوا بعدهم.

أصبح هذا الريفي الحالم الثائر الطموح بروميثيوس شعرنا الحديث ومؤسِّس حريته، ومؤثِّثَ لغتنا بالنار بعدما أُثقلت بجليد التقليد، فجاءت تجربته مفصلا هاماً وعلامة فارقةً في أصعب مراحل شعرنا وأدقِّ ظروفه وأشدّها حساسيةً، وبعدما آن له أن يشبَّ عن الطوق ويتبعَ الأحصنة المجنحَّة الأخرىٰ.

ديسمبر 2007

****

غابرييل غارسيا ماركيز وماريو فارغاس يوسا: رحمةً بنا

كثيرةٌ هي الروايات التي أمرُّ بها عرضـًا، كما تمرُّ الريح الجنوبية في أغنيةِ الشاعر الإنجليزي شلي، وأكثرُ منها الدواوين الشعرية، المتأرجحةِ في مدىً من التلاشي والانسياحِ المتوَّهم، من دون أن أجنيَ منها قطرة رحيقْ.

كثيرةٌ هي الروايات التي لا تستحقُ منَّا أن نضيعَ ساعةً واحدةً في الوقوفِ علىٰ لا جدواها وعدمِّيتها، وقليلةٌ الروايات العصيةُ المخاتلة للذات.

ولكنني أجدُ دائمـًا الصنف الثاني منها وأفرحُ بهِ أيمَّا فرحٍ، محتفيـًا بفرادتهِ وعمقِ مغزاه وفلسفتهِ المؤَّسسةِ علىٰ أفكارنا وبداهتنا الإنسانيةِ .

لذلكَ أعلنُ أنهُ إذا ما إستمرَّ ضغطُ غابرييل غارسيا ماركيز الروائي الكولومبي وماريو فارغاس يوسا الروائي البيروفي علىٰ مخيَّلتي فسأستقيلُ من الحلمِ يومـًا، ومن البحثِ عن الشعر ومنابعِ الجمال والمثاليةِ واستدعائها.

دائمـًا أحسُّ بأنَّ هناكَ ذاكرةً إيروسيَّة ملوَّنةً بألوانِ الطيفِ تولدُ فيَّ، في مكانٍ ما من وجداني، وتضغطُ عليَّ بيدٍ حريريةٍ خفيفةِ الندىٰ، تمسُّ روحي وتزوَّجُ الجمالَ للحريَّةِ والثورة للعدالةِ الإنسانيةِ المطلقةْ.

في هذا الوقتِ بالذاتِ لا تستهويني إلاَّ الحدَّة المفرطة في اكتشافِ معنىٰ الحياةِ وسرِّ جمالها وسعادتها، ولا أصلُ إلىٰ الضالةِ المنشودة من دونِ أن أركبَ علىٰ حصانِ هذين الكاتبينِ المُجنَّح.

كتابتهما لا ينقصها شيءٌ من لذعِ بهار أمريكا اللاتينية، لا تسبحُ إلاَّ في فضاءٍ من سحرِ الوقوفِ علىٰ أعلىٰ قممِ النفسِ الشعوريةِ، ولا ترفرفُ إلاَّ بأجنحةٍ من نورٍ نسائيٍّ وتساؤلٍ وتفاؤلْ.

في حضرتهما لا تستطيعُ التفلَّتَ من تحرِّشِ الحقيقةِ بكَ، لا تستطيعُ إلاَّ أن تصرخَ معهما كالذئبِ في براري الشتاءْ.

هنالكَ إلمامٌ عبقريٌّ بخبرةٍ فرديةٍ قلمَّا نجدها في أعمقِ الرواياتِ الحديثةِ، وأكثرها احتفاءً بطبيعةِ المشاعرْ، هنالكَ حديقةٌ للحواسِ يانعةٌ.

ماركيز ويوسا جناحانِ أزرقانِ يحلِّقانِ في سماءِ الروايةِ اللاتينيةِ الإسبانيةِ ويرفعانها عاليـًا عاليـًا حتىٰ الشمس. كثيراً ما أثقلا دمي بالنوارس.

في لحظاتٍ بلورِّيةٍ ثمينةٍ تقدسُّ مشاعركَ وترفعها كالقربانِ الأخير، هما لا يدعاكَ تتنصلُّ من مهنةِ الحُبِّ الملازمةِ لأعضائكَ، ومن رائحةِ المرأة الموعودةْ، التي استقالتْ منكَ منذ زمنٍ بعيدٍ في فضاءِ نصٍ مفتوحٍ علىٰ التجلِّياتْ.

منذُ أن حملني ماركيز في ذاكرةِ غانياتهِ الحزينات وقبلها في مئةِ عامٍ من العزلةِ، إلىٰ أعلىٰ قمةٍ للكثافة التعبيرية والايحائيةِ، منذ أن أبحرَ بي في بحر يوليس، وأنا لا أستطيعُ الهبوطَ ثانيةً من الأولمب التصويري الخارق، لا أستطيعُ حتىٰ المحاولة أو التفكير في النزول،

إستعنتُ بيوسا مرةً في دفاترِ دون ريغو بيرتو "التي كرَّستُ لقرائتها شهرين كاملين لكثافة ايحاءاتها مع أني عادةً ما أقرأ روايةً في يومٍ واحدٍ" ولكنني لم أذهبْ إلاَّ بعيداً نعو علاءِ الضبابِ، علاءِ التماهي في الروايةِ حتىٰ النخاعْ.

كنتُ أقرأ وأعيد قراءة ما أقرأهُ ثانيةً، العمق في هذه الرواية عصيٌّ، والرهافة في تكثيف الأحاسيسِ عاليةٌ وتداعيات الحلم موجعةٌ، هناكَ بعد فلسفي ورمزي للجنس والحبِّ، هناكَ إعتراف بخسارةٍ ما، أو بغضبٍ مُبرِّحٍ " كيفَ لا وقد كتبها يوسا بعد فشلهِ في انتخاباتِ رئاسةِ بلدهِ البيرو عام 1990".

لوكريثيا هنا وهي بطلة رواية يوسا تحركُّ مجرىٰ الأحداثِ بهدوءِ كما يحرِّكهُ عجوز ماركيز "الذي تستيقظُ غريزتهُ وبقوَّةٍ مفاجئةٍ في

نهاية الشوط" في ذاكرة غانياتي الحزينات، وفونتشيتو يلتقي لقاءً عفويًّا مع ديلغادينا بطلة ماركيز أيضـًا.

ولا أدري ما هو سبب التهويم علىٰ أيغون شيلي الرسام النمساوي الخليع، أهو من بابِ الاحتفاءِ بموتيفِ الجسدْ والذوبانِ في هيولىٰ الجنسِ؟

هناكَ مكانٌ فسيحٌ في الروايةِ لهُ وكأنها كُتبت من أجلهِ وحده، ولتقصِّي رغباتهِ وشهواتهِ وتفكيكِ غموضِ رسومهِ وموديلاتهِ.

ولكنني لا أعرفُ بالضبطِ أين يلتقي كلا الكاتبين وأين يفترقان، وما هيَ أوجه الشبهِ بينهما بالرغم من أنَّ أحدهما يتقاطع معِ الآخر بصورةٍ خفيَّةٍ، ويتداخل معهُ في تآلفٍ وتناغمٍ مدهشٍ، وفي أنبلِ وأعلىٰ تضحيةٍ للإبداع، " أن تكتبَ بحبرِ روحكَ ".

كلاهما يرتكزُ في أعمقِ أعماقهِ علىٰ نقطةِ ضوءِ إيمانهِ وتبتلِّهِ لما يصنعُ، لينجزَ عملهَ علىٰ أتمِّ وجهٍ وفنٍ ودهشةٍ وغرابةٍ، وهنا أستذكرُ سفَرَ ماركيز إلىٰ القريةِ النائية في بلدهِ كولومبيا ليستحضرَ أحلام وتخييلاتِ كتابهِ الرائعِ أو ملحمتهِ الخالدة "مئة عامٍ من العزلة "وهناكَ انقطعَ عدة شهورٍ ليكتبها بعدَ أن إمتلأ بها وعاشها روحيـًا.

لن أذهب إلىٰ ما ذهبَ إليهِ البعض بأنَّ ماركيز متأثرٌ في بعضِ كتاباتهِ وخصوصـًا هذه الروايةِ الفذَّة بألف ليلةٍ وليلة "سفر العرب" أو أنهُ مشتبكٌ بصورة أو بأخرىٰ في رواية ذاكرة غانياتي الحزينات

بعناقٍ واضحٍ وجليٍّ مع الكاتب الياباني ياسوناري كاواباتا الذي يوردُ في مستهلِّ روايتهِ الآنف ذكرها مقطعاً افتتاحياً لهُ، الحقيقة أنني لم أقرأ بعد ياسوناري لأحاول الربط بين الاثنين، واختزال المسافةِ بين بطلة ماركيز "ديلغادينا" وبينَ بطلةِ ياسوناري كاواباتا في روايتهِ الشهيرة "بيت الجميلات النائمات".

أظنُّ أن يوسا وكاواباتا وماركيز يلتقون جميعهم تحت جسر واحدٍ، هو جسر توظيفِ الجنسِ في الأدبِ وفلسفتهِ بلغةِ الحلمْ.

النص الحقيقي هو في رأيي ذلك النص الذي يأتي من حنايا الطفولةِ، من أقصىٰ الحنينِ إلىٰ الغيابِ الضروري لاستشعار الخسران.

هو ذلك الطفل الأبدي الذي يعيشُ في الطفولةِ، مخضبًّا بالأوهام والأحلامِ والعبثِ الضعيفِ والهشِّ الذي يحتفي بهِ يوسا في دفاتر دون ريغو بيرتو، عبث عاشقي الكواكبِ والجبال ووعدِ المواطنين بالقمرْ.

الرائعِ في أعمالهما أنها تأتي في أغلبِ الأحيانِ من المُتخيَّل، كما يقولُ ماريو فارغاس يوسا في حوارٍ معهُ بأنَّ الرواية هيَ مملكةُ الكذب، بينما الشعر هو عاطفة الإنسانيةِ الحقيقية.

ثَمَّةَ اندفاعٌ نحو الحلمِ البريء، والفراشاتِ الصفراء، يجعلكَ تلمسُ هذهِ الطاقة البالغة القوَّةِ والهائلةَ الساكنة في المفردات والمتموِّجة بحركةٍ وانفعالٍ عجيبْ.

في الروايات التي ذكرتُ هنا لم أتخيَّل نفسي لحظةً واحدةً أقرأ نثراً عادِّيـًا أو ما يقارب النثر، هو نمطٌ فريدٌ جديد، شعرٌ وأجملُ من الشعر، تجربة لا محدودة ومفتوحةُ التأويلِ علىٰ الاحتمالاتْ.

تذويبُ الكلامِ هنا يعطينا أشجاراً ونساءً دائراتٍ وخارجاتٍ عن مدارِ الرتابة، أشياءً غامضةً، واضحةً، تكتظُّ فينا بالزهورِ، حتىٰ لننزفَ شذىٰ ومخلوقاتٍ من وهجٍ وأقواسِ قزحٍ وبياضٍ وياسمينْ.

ها أني أكتظُّ بالعبارةِ والمعنىٰ، بالإشارةِ واللمحِ.

لم أكن أحسبُ أنني سأتلاشىٰ مع كلِّ هذه الجماليات المتقنةِ حدَّ اللعنةِ والهذيانْ.

13.7.2008

****

نساءُ الشاعر

عادةً ما تكون امرأةُ الشاعر موزعةً في نساء كثيرات لن أقول في جميع النساء.. الشاعر الذي يعيش في كنفِ تعدديَّةِ الحبِّ ليسَ ماجنًا أو متهتكًا بالضرورة ولكنه أيضًا ليسَ فاضلاً أو قديسًا الىٰ هذه الدرجة التي يتصورها البعض لكي يحبَّ امرأةً واحدةً بعينها.. ولو كان كذلك لم يبق له عملٌ في الشعر..منذ الشعر الجاهلي.. امرؤ القيس هذا الشاعر الحقيقيُّ كم امرأة أحب.. أيضا عمر بن أبي ربيعة هل اكتفىٰ بعشيقة واحدة؟ وفي عصرنا الحديث لدينا نماذجَ كثيرة أبرزها نزار قباني صحيح أنه أحب بلقيس ذاك الحب الأسطوريَّ ولكنه وزَّعَ قصائدَ حبٍّ كثيرة علىٰ الأخريات.. والسياب أيضا نعرف أن تجربته الشعرية حفلت بأسماء الكثيرات.. ربما لم يكن الشاعر الدونجوان الذي كان يعشقُ في الصباح امرأة وفي المساء ينساها ويعشق أخرىٰ.. والسياب نموذج واضح ومبين.. لن أتكلم عن أهمية السياب شعريًا.. ربما كتب ضخمة لن تكفيني.. نعم هناك شعراء كثر تعلقوا بامرأة واحدة وهذا وارد.. كالشعراء العذريين وغيرهم.. ولكن صورة الشاعر دائما ترتبط في ذهني بصورة بايرون أو شلي الشاعرين الانجليزيين الرومانسيين في رحلتهما الىٰ مدينة البندقية الايطالية.. اذا أحب الشاعر امرأة واحدة فالأجدىٰ له أن

يتزوَّجها اذا استطاع ذلك ولنرَ إن كانَ لديهِ ما يقوله بحرقةِ العاشقِ بعد ذلك أم أنَّ شيطانَ شعرهِ قد طلَّقه ثلاثا الىٰ الأبد.. ولكن الحق أقول أن في داخل كلِّ منا امرأةً واحدةً تشعل الفتيل وتتركنا نكابد بينما هيَ تراقب في الظل.. الذي يحدثُ أحياناً أننا بفعل تنكِّرٍ غريزيٍّ غريب لتلك المرأة الأولىٰ التي مسحت طفولاتنا بما يشبهُ أناملَ الذهب ننسىٰ أنها كانت يوماً ما ملاكاً حارساً وشمساً حانيةً علىٰ قلوبنا الملأىٰ بالطينِ والحصىٰ والرمادِ والغيومِ الصلبةِ.. لا نعود ننظرُ بذاكَ الحنوِّ المفقودِ اليها بعدَ اغراءِ الفضاءات الملوَّنة والأبواب العالية ودروبِ الحياة التي تنبذُ الناظرَ الىٰ الوراء.. فقط حاسَّةٌ غيرُ مطاعةٍ فينا تشدُّنا بكاملِ ولعنا وتوقنا الىٰ المرأة القابعةِ في ظلِّ النور والرهبة والغرامِ الأوَّل.. ولكننا مهما فعلنا لا نستطيعُ التخلَّصَ من برقها ولا من أنينها الخفيِّ المحرِّكِ لأوراقِ القلبِ.. هل تخلَّص الشاعر الفرنسي شارل بودلير من لهيبِ سمرةِ جان ديفالِ وعطرها الليمونيِّ الغامض؟ هل تابَ لويس أراغون عن عَينيْ السا الأندلسيَّةِ؟ هل نفضَ عن قلبهِ تبرَ دمعها اللا مرئيِّ؟شعراءٌ لا يُحصونَ أخذوا معهم الىٰ السرابِ كلَّ ما علقَ بأجسادهم من نثارِ نسائهم غيرِ المعلناتِ الىٰ أبدٍ مسمَّىٰ.

****

طيرانٌ عمودي

الرجلُ الثلاثينيُّ الذي يجلسِ في أقصىٰ الذهنِ في مقهىً من سرابٍ لا يستطيعُ التعبيرَ بصدقٍ عن نفسهِ.. يتلعثمُ يتوهُ.. يتلاشىٰ..يغمغمُ.. لا يعرفُ ما يُريدُ.. يقولُ لي تستعصي عليَّ الفكرةُ.. تغيبُ من غيرِ أن أرىٰ في أيِّ اتجَّاهٍ مضتْ.. لا أقدرُ أن أقبضَ بجناحينِ مرتجفينِ علىٰ قطرة الضوءِ.. زمني يهربُ مني.. وتلكَ التي تحدِّقُ بالفراغِ بنظراتٍ تشبهُ نظراتِ الشاعر الفرنسي بودلير وهو يصلبُ عينيهِ علىٰ عمودينِ من النارِ والغيمِ يحلمُ بالقصيدةِ أو بجان ديفال المحترقة كالعنقاءِ لا أفهمُ ما تريدُ وما تعني.. موزَّعٌ أنا في كلِّ شيءٍ.. وعلىٰ كلِّ الفصولِ الملغيَّة.. قلبي يذهبُ الىٰ البؤرةِ ولكنهُ لا يجدها أبداً.. يعيشُ بمنطقِ النحلِ في الربيعِ والقراءةِ.. يأخذُ من كلِّ وردةٍ رحيقًا وعطراً مختلفين.. يحومُ علىٰ النصِ ولا يقعُ علىٰ وجعهِ الدفينِ.. في النهاية لا يجدُ شيئًا ينتفعُ بهِ من ايمانهِ الكبيرِ بما يسمِّيهِ ثقافةً شموليَّة في زمنٍ يطيرُ عموديًا الىٰ عمقِ الفكرةِ.. هل هذا زمن الاختصاصِيَّة في كلِّ شيء؟ لا أعرفُ.. لا أنجحُ في قراءةِ شيءٍ ما.. قبلَ أيامَ بحثتُ بدون لأيٍ عن الشاعر الروسيِّ الكبير ألكسندر بوشكين الذي عاش في النصف الأول من القرن التاسع عشر ومات في مبارزة بينه وبين غريمهِ الفرنسي.. المهم

أن هذا الشاعر عاش ثمانيةً وثلاثينَ عاماً ولكنه حفرَ مجدهُ بحروفٍ من ذهبٍ في تاريخ الأدب الروسي حتىٰ أن الكثير من النقَّادِ كانوا يظنُّون أنه ترك من الآثار ما يعجزُ عنهُ عددٌ من الشعراء والكتَّاب.. تابعتهُ في جوجل فتهت في أسماء كثيرة عاصرتهُ ولمَّعت أسطورتهُ.. منهم الناقد الروسي بيلينسكي الذي مات شاباً هو الآخر مثل بوشكين وكانَ له الأثر العظيم في انتشار اسمِ بوشكين وتألقهِ.. تركت الاسمينَ بعدَ تتبُّعٍ وجهدٍ وانطويتُ قليلا علىٰ قلبي الطافح بما يشبهُ الضباب الخفيف.. فكَّرتُ في موقعين علىٰ الشبكة العنكبوتية يوفِّران الكتب الالكترونية في كافة المجالات وقلت في نفسي متىٰ سأتفرغُ قليلا وأنجز بعض القراءات التي وعدت نفسي بها منذ زمن.. ولكنني لأسباب كثيرة لم أقرأ حتىٰ الكتب الورقية التي تنتظرني منذ عهدٍ بعيد..

هناك من أضاعت روحُه البوصلةَ حتىٰ أنهُ أحيانا يعمىٰ عن الأشعَّة التي انطلقت من عينيِّ المرأة التي مرَّت أمامه كغمامةِ برقٍ ولم يحسنَ الإصغاءَ الىٰ أمواجِ قلبها المتلاطمة.. فلا وقت لديهِ فهو مختصٌّ بالبحث عن اللا شيءِ بحكمةِ القدِّيسِ.. قسمٌ من دواوين الشعراء القدامىٰ ومن كتب الموروث الثقافي الانساني ركنها جانبا في حاسوبهِ بعدما قرأها بقلبٍ مفتوحٍ وعينينِ مغمضتينِ أو بعينينِ مفتوحتينِ وقلبٍ مغمضٍ من أبو نواس وأبو تمام والبحتري والمتنبي

والمعرِّي الىٰ الياس أبو شبكة وبدر شاكر السياب ومحمود درويش وأدونيس وغازي القصيبي ومن الحلَّاج والنفرِّي وابن رشد وبن عربي الىٰ شكسبير وبودلير وطه حسين وماريو يوسا ولوركا وماركيز مرورا بكل العصور الأدبية الكلاسيكية والرومانسية والواقعية والرمزية والواقعية السحرية وشعراء جماعة أبولو وشعراء الحداثة وما بعدها وقصيدة النثر.. هو ربَّما قلبهُ منطفئٌ تمامـًا.. ولكنه في النهايةِ طوَّح بكلِّ وصاياهُ وبالنظريةِ الاختصاصيَّة التي يمقتها وشدَّ عينيهِ الىٰ الفيلم الايطالي (كازانوفا) تخيَّلَ نفسهُ يعيشُ في العصورِ الوسطىٰ.. في النهاية وجدَ نفسهُ يتابع بنهمٍ غريبٍ أفلام عالم الحيوان الوثائقية علىٰ قناةِ يوتيوب.. ليسَ لتجوالهِ في المدنِ نهايةٌ.. ليس لأشواقهِ بدءٌ.. ليسَ لنقطتهِ صفرٌ.

****

رفرفاتُ الروحِ للمطلق

ما الذي يستفزُّكَ للكتابة؟ سؤال طالما شغل فكري وهو يلحُّ عليَّ في الآونة الأخيرة أكثر من أيِّ وقت مضىٰ.. لمن تكتب؟ ما هدفك من الكتابة؟ أما زلت تؤمن بمبدأ التنفيس الذي كنت تطرب لهُ قديمـًا وتعزِّي روحك الظمأىٰ إلىٰ الجمالِ بهذهِ الخرافة؟ أن أنكَ لا تدري بتاتـًا.. وقدركَ مع هذا الحبرِ المقدَّس هو قدرُ الطعمِ للسمكةِ البريئة والفخِّ السرابيِّ للحمامة.. والسهمِ الخفيِّ للغزالةِ السارحة؟

هل ما زالت تشحنكَ عبارات الإعجاب والمديح والإطراء بما يشبهُ الطاقةَ المجازيَّة المجنَّحةَ التي غالبا ما تطوِّحُ بكَ من شاهق الكلامِ إلىٰ أرض الحقيقةِ كالنجمةِ المسكينةِ المبتلَّة بماءِ الورودِ الصغيرةِ؟

لا أعرف.. فقبلَ سنين كانت فكرتي المسبقة عمنَّ يمسكُ قلمـًا أكثرَ نورانيةً وتقديسـًا ممَّا هي عليه اليوم. فضربات الحياة الفظيعة علىٰ سندان الروح ربما تكون قاضية أو قاصمةً بما فيه الكفاية لأجنحةِ القلبِ البيضاء.. زيفُ البشر.. ماديتهم.. ترابيةُ الحياة الطينية.. عدم تقدير الغير لاحتراق روحك الحبريِّ.. تجاهلك..

الفراغُ الكليُّ الذي يحيطُ بسماءِ قصائدكِ وعَينيْ حبيبتكَ البعيدة..كلُّها تحفر في نفسك كما تحفر الموجةُ في الصوَّان..

هل قدرُك المغبونُ مثلاً هو ما يحزُّ في فراشاتِ نفسكَ.. ؟ أم لأنكَ قرأتَ روايةً لروائيةٍ أجنبيةٍ ورأيت مدىٰ تفوقِّها السردي غير المحدود والذي جعلَ قلبكَ يترقرقُ بينَ يديها كأنهارِ البلَّور هو ما جعلكَ تفكِّرُ بهذه المقارنة البائسة.. غير المتكافئة بتاتـًا.. بينكَ وبينها؟

أم بينَ مشهدين علىٰ طرفَيْ نقيض؟ أم ماذا؟ لا تجرح قلبكَ بالأسئلة.. أنت مملوءٌ فاكتب.. أكتب.. هكذا يقولُ لا وعيكَ.. هكذا يصرخُ فاوست فيكَ.. هكذا تريدُ لكَ الحياة التي مرَّغتكَ علىٰ أعتابِ صباحِ صيفيٍّ بعيدٍ وأنت تفكِّرُ تفكيراً صوفيًّا بجبران ونيتشة ونعيمة وبلزاك وأحمد شوقي وطه حسين.. يا لشاعريتك إذنْ. أيها العربيُّ الحالمِ باسترجاعِ أمجاد أندلسهِ بسيفهِ وحصانهِ الدون كيشوتي.

أتذكرُ تبجحكَ غير المبررَّ مرَّةً أمام حفنة من الكتَّابِ والفنانين الأصدقاء العرب وغير العرب وأنت تتكلَّم بلغة لا تخلو من الضوءِ وزهورِ الملائكة عن أمجاد قومٍ بائدة؟

قلتَ أنَّ المتنبي لا يقلُّ شاعريةً عن شكسبير.. والسياب نظير اليوت.. وطه حسين يعادل جان بول سارتر.. ومحمود درويش في

مصاف لوركا بابلو نيرودا.. نحنُ ممتلئون نعم ولدينا مواهب.. منذ امرءِ القيسِ حتىٰ أصغر شاعر عربي ما زالَ يخربشُ ولم يهتدِ بعدُ إلىٰ خيوط قصيدتهِ الفضيَّة ..

نعم.. لدينا مواهب جميلة وفذة في الأدب والفن ولدينا عقول ممتازة قادرة علىٰ هضم العلوم الانسانية.. ولدينا دائما ما نقوله ونكتبه.. فما زال فينا بعض امتلاء الأنبياء .. المشكلة تنبع من أننا مجتمع لا ثقافي .. لا يقرأ أبدا ولا يؤمن بشيء إسمه الكتاب.. هناك حالات فردية فقط ولكن الذاكرة الجمعية الجماهيرية غير ثقافية..هناك ذائقة النخبة.. ولكنها غير مسؤولة عن التقهقر الرهيب هذا..خصوصا اذا نظرنا إلىٰ الوراء مستندين إلىٰ الإرث الهائل للموروث الجمالي الفكري والأدبي.. فمأساة الكاتب العربي تنبع أولا من لا وعي مجتمعه وبيئته له ولرسالته.. وثانيا من عجزهم عن فهمهِ وتوفير الظروف الملائمة له لتنمية أساليبه الفنية ونجاحهِ.. وبالتالي انفضاض دور النشر عنه والتي دائما ما تتذرَّع بالضائقة الاقتصادية وبأنها لا تنشر إلاَّ علىٰ نفقة المؤلف..لا بأس .. فهذه المهزلة فهمناها جيَّدا... ولكن هناك أسئلة أخرىٰ.. أسئلة تثير أوجاع القلب..

لماذا يكتب مثلا الكاتب الروائي اليهودي الشاب بوعي مختلف.. ؟ ألأن مجتمعه يعدهُ بنجاح أدبي ما في المستقبل..في ظلِّ

رعاية مؤسساتية للمواهب التي وضعت أقدامها بقوة علىٰ طريق الإبداع؟

الفرق بين كاتب عربي وكاتب غربي (أو ربما يهودي) مثلا هو النجاح الذي يحققه الثاني في ظرف زمن قياسي.. فهو يعوِّل علىٰ مجتمع قارئ ومستهلك للكتاب .. مجتمع يملك حساسيَّةً عالية لهذا الشيء البائس المسمَّىٰ عندنا كلمة.

قالَ مرَّةً لي روائي شاب أن المشروع الروائي الذي يحتاج (زمنيـًا) ما يعادل عامين لاتمامهِ يفتقر إلىٰ ذلك التمويل المادي الذي لن أحدده وهو ما تستطيع راقصة في ناد للرقص في المجتمعات الغربية أن تحققه في أقل من أسبوع (مثلاً).

سأقتنعُ حتمـًا بأنَّ الكتابةَ في أحد أبهىٰ تعريفاتها وصورها سهمُ الغزالةِ السارحةِ.. ورفرفاتُ الروحِ للمطلق. وعطشُ الظلام للنور.

****

امرأةٌ من قُزَح

خُيِّلَ لي قبلَ عدَّة أيَّام وأنا أشاهد علىٰ اليوتيوب الطبيبة المصرية الجميلة والأنيقة المختصَّة بعلاج الأمراض الجماليَّة كالسمنة الزائدة والبهاق الذي يُشكِّلُ أصعب وأطول الأمراض الجمالية علاجـًا أنَّه لم يعد هناكَ حاجة لكلِّ هذهِ الأبحاث الطبيَّة العالميَّة العقيمة وذات الجهود الجبَّارة في الوقت نفسهِ في سبيل إيجاد دواء عصري لهذا المرض الجلدي المستعصي .. وإسدال الستار علىٰ هذه الحالة التي تمسُّ الحس الجمالي الإنساني في الصميم لدىٰ من يعانون منها.. بل يكفي فقط (مجازيًّا) لامرأة جميلة أن تمسَحَ علىٰ جِلدٍ فاقدٍ للصبغة الطبيعيَّة أو تمرِّرَ إصبعها عليهِ لتنبضَ فيه فراشاتُ الألوان القزحيَّة ويعودَ إليه صبغُهُ الأصلي.. عرفتُ أنَّ هذه الطبيبة المصريَّة اخترعت مادةً صبغيَّةً مستحدثةً من عناصر عدَّة منها عنصرُ الحديد تقومُ بحقنها في الأماكن المصابة وبعد دقائق وبشكل فوري يرجع الجلد إلىٰ سابق لونهِ... وكأنها تملكُ يدَ المسيح التي تبتلُّ بماءِ المعجزة وغيم الورد.. وبما أنني أحملُ وشمَ البهاق الأبدي علىٰ جلدي منذ كانَ عمري أربعة عشرَ عامـًا وقد يئستُ فعلا من شفائهِ بعد ضربي في الآفاقِ وإهداري الأموال التي جمعتها بمشَّقةٍ في سبيلِ علاجهِ المخرَّمِ بالوهم السيزيفي للوصولِ إلىٰ قمَّةِ الشفاءِ التامِ.. ذلكَ أنَّ

تُجَّارَ الطبِّ البديل يجعلونَ منهُ شمَّاعةً قانونيَّةً لتعليقِ أساليبهم الاحتيالية عليها..فقد غبتُ في لا وعيي بعالم سريالي..استرجعتُ اللحظات الأولىٰ لاكتشافهِ قبلَ أكثر من عشرينَ عامـًا.. لمحتُ حياتي في ما يشبه الفلاش باك في أقل من جزء واحد من الثانية..لا يهُم.. أكره الثرثرة المجانيَّة.

الآن تصيبني عبارةُ (إمرأة من قُزح) آه.. كم أُحبُّ إحالة هذه الصورة المجازية علىٰ حالتي بالرغم من أنني نسيتُ منذ زمن أنني مصابٌ بالبهاق الذي تعايشتُ معهُ بقلقٍ وجوديٍّ وقناعةٍ صوفيَّةٍ راضية.. فنادرا ما أعمدُ إلىٰ تمويههِ وتغطيتهِ بمسحوق أو مرهم كبعض النساءِ اللواتي لا يتنازلنَ عن جمالهنَّ الخارجي بسهولة.. والسبب هو كرهي الأعمىٰ للأقنعة.. حتَّىٰ أنَّ نظرة امرأةٍ في الشارع أو في المصرف أو في البريد وهي تحاولُ أن توهمني بمرحها ولامبالاتها أن ما يخلُّ ماديًّا باستيطيقا المجرَّد لا يهمُّها بتاتـًا.. أبدا.. بينما تغتصبُ ضحكتها الطفلة لتشغلني بها عن طيور شاردة قلقة تبزغُ من شفق عينيها اللتين لم أعد أرىٰ فيهما شفقةً أبداً.. أعترف أنني في الماضي ربَّما كنتُ أكثرَ حسَّاسيَّةً فيما يتعلَّق بهذا الموضوع وكأنني فتاةٌ عذراء خجولة تُزَّفُ توَّاً إلىٰ منصَّةٍ عالية مزخرفة بالضوء.. وسوفَ تُعرضُ علىٰ الآلاف..

راودتني فكرة الاتصال بالدكتورة وتعيين موعد معها..بل رحت أبحث عن جواز سفري الذي نسيتُ أينَ وضعتهُ آخرَ مرَّةٍ سافرتُ فيها للخارج.. ولكنَّ تجربتي العلاجية مع البهاق الممتدَّة لأكثر من عشرين عاما والحافلة بالمآسي والوجع الروحي والخيبات الكثيرة منعتني بقوَّة.. وكانَ يكفي أن أقرأ تعليقـًا واحداً علىٰ اليوتيوب مفاده أنَّ هذا العلاج لا يدومُ لأكثر من عدَّة شهور وبعدها تتلاشىٰ المادة الملوِّنة ويعود الجلد إلىٰ سابق عهدهِ أن أتراجع عن رأيي وبثبات ملحوظ هذه المرَّة.

أكثر شيء كانَ يشدُّني هو ثقةُ الطبيبة بنفسها وبكلامها وبجمالها أيضا..في عام 2005 سافرت إلىٰ القاهرة لوحدي لمدة عشرة أيام..وكانت رحلةً من رحلات ألف ليلة وليلة أو عالمـًا حقيقيًّا محسوسـًا من عوالمها الخياليَّة.. المهم أنَّ الدواء الذي وصفه لي الطبيب المشهور لم أدوام علىٰ استعمالهِ لعدم مصادقة وزارة الصحة عليه. وتركته بعد مدةٍ قصيرة لأن صيدلانيا صديقا في الناصرة أسرَّ لي أن خطورته أكثر من فائدته.. لم أغنم إلاَّ زيارةَ أم الدنيا والتسكُّع الجميل في شوارع القاهرة نهارا وليلاً.. القاهرة تختزن في قلبي سحر ألف مدينة.. كنت ألتهمُ كل لحظة فيها التهامـًا ولم أدع متحفـًا أو معلمـًا تاريخيـًا أو برجـًا إلاَّ زرتهُ.. حتىٰ أنني ألقيت بوجع القلب القرويِّ الصغير في النيل ذاتَ مساء.. ولن أنسىٰ عاملة فندق شهرزاد

في شارع النيل الذي يقع في حي العجوزة في الجيزة وسط القاهرة التي قالت لي أكثر من مرَّة أنَّها ترىٰ في عينيَّ معنىً لم يعد موجوداً من معاني الحساسيَّة والرقة والرهافة.. وأنني أنتمي إلىٰ نوعيَّةٍ من البشر في طريقها للانقراض السريع أو ربمَّا انقرضت منذ زمن بعيد.. ضحكتُ من أعماقِ قلبي وناديتها بعرَّافة النيل الجميلة.

يا للخيبة إذن.. طبيبي المصري المشهور صاحب اسم عالمي في الأمراض الجلدية ولكنهُ للأسف يستندُ في علاجهِ علىٰ دواء لم يتطوَّر كثيراً منذ أواخر الخمسينيَّات.. ويعتمدُ في أساسهِ علىٰ مادة البسورالين التي تجعل الجلد حسَّاساً لأشعَّة الشمس كلوحٍ من الزجاجِ الأسود ولكنها من ناحية أخرىٰ تفتكُ بالكبدِ وبالعينين وبأعضاء حيويَّة في الجسم...

أصبحت أهذي في منامات اليقظة.. أين هيَ تلكَ الفينوس التي تملكُ في جلدِ أصابعها الليِّن والمغرورق بالحليب غير المرئيِّ شهد الكحل السماويِّ وطلَّ النور لتمسحَ بغبار الندىٰ الطلعيِّ علىٰ يدي؟ قبلَ عدَّةِ أيام صادفتها انسلَّت من ضلعي.. توجَّعتُ بمرارةٍ شاهقةٍ من داخلي.. أحسستُ كأنني أرتطمُ بكوكبٍ من بنفسج ..كنت في متجرٍ للملابس في بلدةٍ عربيَّةٍ في الجليل.. الحادية عشر ليلا.. لم نتكلَّم كثيراً.. سوىٰ بلغة خرساء ولم تلمع من بعيد سوىٰ أكثر نجومنا غرابةً وحزناً ووحدةً.. لا أعرف... ألهذهِ الدرجة أنتمي إلىٰ

صنفِ الشعراءِ الملعونين؟ ألهذه الدرجة يسكنني شغفُ عشَّاقِ القرون الوسطىٰ؟ لا أدري..

بعد زواجي أصبحت علاقتي بالمرأة علاقةً روحيةً صوفيَّةً أكثر من أي وقت مضىٰ.. ولكنني أحسُّ أحيانا بوخز الأنوثة الفضيِّ.. وبأني أسبحُ في فضاء ليليٍّ مليء بالنجوم الهلامية.. أنا شخص مشوَّش أكثر بكثير ممَّا يظنُّ البعض.. مشوَّشٌ إلىٰ درجة عصبيَّة.. حالمٌ بمجرَّات أخرىٰ ما جعلني أفشلُ في كلِّ عملٍ أقومُ بهِ أو علاقةٍ أبنيها أو أغزلُ ملاءاتها بخيوط رفيعة من نور السماء العذراء.

هذا التشويش وهذا الحلم غالبًا ما يتسرَّبا إلىٰ أكثر قصائدي سرَّيةً.. ووحشيَّة.. وارتباطا وثيقًا بحبقِ البيوتِ الصباحي.. ولكنَّ صوتًا في داخلي يصرخُ بما يشبهُ الدموعَ الصابونية.. لن أعودَ إلىٰ أثينا.. لن أرتضي بإيثاكا.. لن أكونَ عوليسَ آخر.. بينولوبي في انتظاري علىٰ أحرٍّ من جمرِ الشموسِ الشرقِ أوسطيَّة.

****

عن المؤلِّف

نمر أحمد سعدي شاعر فلسطيني وُلدَ عام 1977. يقيم في قريته بسمة طبعون الواقعة شرق مدينة حيفا، وهي قرية جليلية معروفة بجمال موقعها، ومناظرها الطبيعية الخلابة.

بدأ بنشر بواكير أشعاره، بعد اختمار التجربة ونضوجها، جنبًا إلىٰ جنب الموهبة والثقافة، في صحيفة "الاتحاد" الحيفاوية، وكذلك في صحيفتي "كل العرب" و"الأخبار" الناصريتين منذ عام 1999. يتميز شعر نمر سعدي بقدرة علىٰ التعبير اللغوي، والتصوير الفني علىٰ حد سواء، متكئًا، في هذا وذاك، علىٰ خيال جامح منفتح علىٰ الاتجاهات كافة. يمتح من تناصات ذات حمولات متعددة: موروثات ثقافية، وإشارات إيحائية، وأخرىٰ رمزية وأسطورية، منها الخاصة: عربية وشرقية، ومنها العامة: أجنبية وغربية، تحيل إلىٰ دلالات متعددة، قد تنأىٰ عن كل ما هو نمطي أو متعارف عليه، أي وفق المنظور الحداثي. ولا يعدم القارئ في ثنايا شعره: فكرًا وذوقًا وإحساسًا ومعرفة ورؤيا. تنصتُ أشعارُهُ لهموم التجربة الحياتية وتزخمُ بالموسيقىٰ الهادئة.

يُعدُّ الشاعر نمر سعدي واحداً من أصحاب الأصوات الجديدة في الساحة الشعرية الفلسطينية، لما يمتاز شعره به من: طاقة إبداعية، وغزارة في النتاج، ومخزون ثرّ من الموضوعات المتعددة. وهو يكتب قصيدة التفعيلة، ومن حين لآخر، أيضًا القصيدة العمودية. وقصيدةَ النثر. كما أنه ناشط في الحراك الأدبي، ومتابع لنشاطات الحركة الأدبية المحلية. كرَّمته مؤسَّسة الأسوار في عكا عام 2007.

صدرَت له الدواوين الشعرية التالية:

عذابات وضَّاح آخر 2005 مطبعة فينوس/ الناصرة

موسيقىٰ مرئية 2008 منشورات مجلة مواقف/ الناصرة

كأني سواي 2009 (ديوان في ثلاثة أبواب) منشورات دائرة الثقافة العربية / دار نشر الوادي / حيفا

يوتوبيا أنثىٰ 2010 منشورات مركز أوغاريت للترجمة والنشر / رام الله

ماء معذَّب 2011 منشورات مجلة مواقف / الناصرة

وقتٌ لأنسنةِ الذئب 2014 دار النسيم للنشر والتوزيع/ القاهرة

تشبكُ شَعرها بيمامةٍ عطشىٰ 2015 دار النسيم للنشر والتوزيع / القاهرة

وصايا العاشق 2015 دار النسيم للنشر والتوزيع / القاهرة

موسيقىٰ مرئية / طبعة ثانية / 2015 / دار سؤال/ بيروت / لبنان

رمادُ الغواية 2017 دار الانتشار العربي / لبنان / ونادي الباحة الأدبي / المملكة العربيَّة السعوديَّة

استعارات جسديَّة 2018 دار العماد للنشر والتوزيع ومركز عماد قطري للإبداع والتنمية الثقافية / جمهوريَّة مصر العربية

تُرجمت له عدة قصائد الىٰ اللغات الانجليزية والرومانية والصينية والعبرية، ونشر قصائده ومقالاته في الكثير من المواقع الأدبية والثقافية علىٰ الشبكة العنكبوتية مثل كيكا والندوة العربيَّة والحوار المتمدِّن والمثقَّف وديوان العرب وجماليا ومركز النور، وفي المجلات والصحف المحلية مثل الشرق ومواقف والإتحاد وكل العرب والأخبار وفصل المقال والحياة الجديدة بالإضافة إلىٰ نشرهِ في مجلات وصحف العالم العربي المرموقة مثل الدوحة القطرية والنهضة السورية والأهرام المصرية والقدس العربي وعكاظ السعودية والخليج الاماراتية والعرب اللندنية والعربي الجديد والنهار اللبنانية وغيرها .

كما أنَّ لمجلة الكلمة الالكترونية التي تصدر في لندن ويحرِّرها الناقد المصري الكبير الدكتور صبري حافظ دوراً هامـًا في التعريف

بتجربة نمر سعدي الشعريَّة من خلال نشرها لقصائدهِ ونصوصه النثرية ودواوينه.

بريد الشاعر الالكتروني
nesaady@gmail.com
صفحة الشاعر علىٰ الفيسبوك
www.facebook.com/nemer.saady

الفهرس

عن الأبنودي والفيتوري.. وقسوةِ نيسانَ: الأغاني كزهورٍ منزليَّة.....3
آخرُ العشَّاقِ المتجوّلين.....5
تحديقٌ بمرايا الذاكرة.....8
تلويحةٌ لحارس الحلم.....11
هواجس على طريقِ القصيدة.....13
كانَ صديقاً للفراشاتِ.....18
فتنةُ العزلة.....23
أجنحةُ الشاعر ومَقصُّ الرقابة.....28
قلبُهُ طائرٌ للحنين.....31
عبد الوهاب البياتي.. أثرٌ شعريٌّ لا يزول.....34
سطوٌ أدبي.....38
في ذكرى رحيلهِ الثامنة: محمود درويش قيثارةُ الوجعِ الإنساني.....40
رسائلُ حُبٍّ في عُلبةِ صفيح.....44
جميل الدويهي.. شاعرُ اللحظةِ المفخَّخةِ بالجمال.....49
حلمُ نوبل للأدب.. هل يتحقَّقُ عربيّاً مرَّةً أخرى؟.....53
فاروق شوشة.. آخرُ الرومانسيّين.....56
نقطةُ ضوءٍ واحدةٌ من التماعات بدر.....59
أحمد حسين.. شاعرُ حيفا المعذَّبُ بجمالها.....64
أن تقبضَ على الشمسِ بقلبكَ.....69
بدر شاكر السيَّاب.. أسطورةُ شاعر.....74
حالةُ النشرِ في فلسطين.....78

حرائقُ أدونيس.....81
عبد الله رضوان.. الشغفُ الأبيضُ بالقصيدة.....86
كأنهُ مخضَّبٌ بالنوارس.....90
ماريو فارغاس يوسا وفردوسهُ الإيروسيُّ المفقود.....93
أمل دنقل.. يا فرَحَ الشِعرِ المختلَسْ.....98
قربانُ الفراغِ وهبةُ الحريَّة: (عن الثورةِ والشعرِ والحداثة)..... 105
ممدوح عدوان ورؤيا الدماء..... 109
محمد عفيفي مطر.. عبقريَّةُ التنوُّع..... 115
كيفَ التقيتُ بالكاتب الفلسطيني ربعي المدهون؟..... 120
سميح القاسم.. المخلصُ الأبديُّ للقصيدة..... 125
رائحةُ القرفةِ اللاذعةُ جدَّاً للروائيَّة السوريَّة سمر يزبك..... 130
جدليَّة العشقِ والتمرُّدِ في شعريَّةِ الفلسطيني يوسف أبو لوز..... 136
صورةُ الشاعر بينَ الذئبِ والمرأةِ..... 143
أنوثةُ القصيدةِ لدى الشاعر اللبناني شوقي بزيع..... 149
قُبلةٌ للشاعر العراقي عبد الوهاب البياتي..... 157
محمد علي شمس الدين.. بين لغةِ الحلمِ وهاجسِ الحداثة 162
الطيّب صالح يهاجرُ جنوباً..... 170
الشاعرُ الفلسطينيُّ حسين مهنَّا: علاقةٌ متجددَّة مع مسمَّيات الجمال..... 175
" ففي الصيفِ لا بدَّ يأتي نزار"..... 185
نزيفُ الأسئلة بين التكرُّس الأدبيّ وهموم الواقع 193
فرادةُ القراءة والاضافة..... 200

وداعاً نزيه خير .. وداعاً عاشقَ الياسمين..... 205
طيور السكونك..... 209
جنةُ بدر شاكر السيّاب الضائعة (في البحثِ عن الرجل الذي ضاعَ في عرضِ الشعر والمنفى)..... 213
غابرييل غارسيا ماركيز وماريو فارغاس يوسا: رحمةً بنا 219
نساءُ الشاعرِ..... 225
طيرانٌ عمودي..... 227
رفرفاتُ الروحِ للمطلق..... 230
امرأةٌ من قُزَح..... 234
عن المؤلِّف..... 239